



libya-web.net

# صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي

دولة الموحدين  
علي محمد محمد الصلابي

الإهداء

الى ابناء الشمال الافريقي خصوصاً وابناء الأمة  
عموماً اهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل

بأسمائه الحسنی وصفاته العلی أن یكون خالصاً  
لوجهه الکریم.

[فمن كان یرجوا لقاء ربه فلیعمل عملاً صالحاً ولا  
یشرك بعبادة ربه أحداً]

إن الحمد لله، نحمده ونستعینه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات اعمالنا. من یرهبه الله  
فلا مضل له، ومن یضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده  
ورسوله { یأیها الذین آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون } (1) .

[ یأیها الناس اتقوا ربکم الذی خلقکم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء  
واتقوا الله الذی تساءلون به والارحام إن الله كان علیکم رقیباً ] (2) .

[ یأیها الذین آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سدیداً یصلح لکم اعمالکم ویغفر لکم ذنوبکم ومن یطع الله ورسوله  
فقد فاز فوزاً عظیماً ] (3) .

أما بعد؛

یارب لك الحمد كما ینبغی لجلال وجهك، وعظیم سلطانك، لك الحمد حتی ترضی ولك الحمد إذا رضیت.  
هذا الكتاب الخامس (صفحات من التاريخ الاسلامي في الشمال الافريقي ) يتحدث عن دولة الموحدين،

فیعطي صورة واضحة عن مؤسس الدولة محمد

(1) سورة آل عمران: الآية 102.

(2) سورة النساء: الآية 1.

(3) سورة الاحزاب : الآية 70،71.

ابن تومرت ويوضح عقيدته المنحرفة والأسس الفكرية التي قامت عليها دعوته الباطلة، ويبين اعماله الظالمة والجائرة، ويقف على حقيقة الصراع مع دولة المرابطين ويتكلم عن بواعث القتال وسفك الدماء وهتك الاعراض عند الموحدين ويسلط الضوء على المراحل التي مرت بها دعوة ابن تومرت والاسباب التي اتخذها للوصول الى اهدافه ويشير الى أهمية تحصين الامة بعقائد اهل السنة والجماعة حتى تسلم من العقائد الفاسدة والدعوات الباطلة والمناهج المنحرفة، ويعطي نبذة مختصرة عن سلاطين الموحدين ابتداءً من عبدالمؤمن بن علي الذي سقطت على يديه دولة المرابطين ووجد الشمال الافريقي بقوة السلاح والذي وضع معالم سياسية لدولة الموحدين سار أبنائه واحفاده عليها من بعده، ويتكلم عن المعارك الفاصلة في تاريخ الموحدين مثل معركة الأراك التي قادها ابو يوسف يعقوب المنصور في عام 591هـ فيتعرض لوصف حي للمعركة وأسباب انتصار المسلمين فيها والنتائج التي ترتبت عليها ويثني على الجهود العظيمة التي بذلها السلطان يعقوب المنصور من أجل اصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم من منهج أهل السنة والجماعة ويتحدث عن طلب صلاح الدين الأيوبي من السلطان يعقوب المنصور بإمداده بالسفن والمعدات الحربية ، ويذكر الأسباب التي منعت السلطان يعقوب من تلبية طلب صلاح الدين والوقوف معه في جهاده ضد النصارى.

ويسلط الاضواء على الثورات التي قامت في الاندلس والمغرب الاقصى والأوسط والأدنى ضد دولة الموحدين وكيف تعامل الموحدون مع هذه الثورات وماهي أسبابها وماهي الآثار التي تركتها تلك الثورات في الشمال الافريقي.

ويقف وقات متأملاً مع اسباب سقوط دولة الموحدين ، فيشير الى السنن الآلهية والأسباب القريبة والبعيدة التي ساهمت في سقوطها.

ويتحدث عن الدويلات في الاندلس والشمال الافريقي، فيتكلم عن مملكة غرناطة وأسباب صمودها ضد النصارى ودور المرينيين حكام المغرب الاقصى في الوقوف مع مسلمي الاندلس ويتعرض لسقوط غرناطة ومحاكم التفتيش ويقف عند الأسباب التي ساهمت في ضياع الاندلس ويتكلم عن دولة بني مرين في المغرب الاقصى ومنهجها التي قامت عليه ومحاولاتها المستمرة لتوحيد الشمال الافريقي ويتحدث عن اسباب سقوطها وكيف تولى الوطاسيون الحكم بعدهم ثم كيف انتزعه السعديون منهم ويثني على اعمال السلطان عبدالملك السعدي الذي حقق نصراً عزيزاً على نصارى البرتغال في معركة وادي المخازن بالمغرب الأقصى في عام 986هـ والذي استشهد في المعركة وتولى أخوه ابو العباس أحمد المنصور القيادة من بعده ويمضي بالقارئ الكريم الى فترة انهيار الدولة السعدية ليقف على اسباب سقوطها ومجيء الاشراف العلويين لحكم المغرب

الأقصى.

ويتعرض لدولة بني عبدالوادي المغرب الاوسط ويتحدث عن تنظيمهم الاداري واسباب بقائهم لمدة ثلاثة قرون ويقف على اسباب سقوطها وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وانتزعوا المغرب الاوسط من قبضة الاسبان الغزاة.

ويتحدث عن الدولة الحفصية في افريقية واسباب قيامها ونظام ولاية العهد عندهم وعلاقة الدولة الحفصية بطرابلس الغرب ويقف على اسباب سقوط الدولة الحفصية وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وحرّروا طرابلس من فرسان الدين يوحنا.

إن هذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الحقبة الزمنية، فإن كان خيراً فمن الله وحده وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع أن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه. وهدفي من هذا الكتاب :

- 1- بيان خطورة الدعوات التي بنيت على أسس فكرية منحرفة، وعقدية فاسدة.
- 2- أهمية تحصيل الأمة واجيالها بعقيدة أهل السنة والجماعة وتربية أبنائها عليها حتي يسهل للأمة معرفة المعتقدات الباطلة والمناهج المنحرفة التي تخالف القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وإجماع العلماء الراسخين .
- 3- تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، واسباب سقوطها، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.
- 4- التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين الذين سقطوا شهداء في ساحات الجهاد ضد النصارى الحاقدين .
- 5- اثناء المكتبة الاسلامية التاريخية بالابحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيدة عن سموم المستشرقين ، وافكار العلمانيين الذي يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة اهدافهم.
- 6- كشف المغالطات التاريخية التي أضفت على المفسدين ثوب الاصلاح وجعلتهم من زعماء الامة ومن قاداتها العظام.
- 7- بيان أن حركان الاصلاح التي تستحق التقدير والاحترام من الأمة هي التي سارت وتسير على منهج أهل السنة والجماعة في العقائد والعبادات والاخلاق والمعاملات.
- 8- بيان أن الذين كَفَرُوا المسلمين، وسفكوا دماءهم وهتكوا أعراضهم بأنهم قادة في الفساد والدمار والاجرام.

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب الى ثلاثة فصول:

الفصل الاول: محمد بن تومرت ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الاول: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم.  
المبحث الثاني : البعد التاريخي عند ابن تومرت.  
المبحث الثالث: مسيرة العودة وخطواته الحركية.  
المبحث الرابع: الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت .  
المبحث الخامس: المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت.  
الفصل الثاني: ويشتمل على اربعة مباحث :  
المبحث الاول: عبدالمؤمن بن علي.  
المبحث الثاني: أبو يعقوب يوسف.  
المبحث الثالث: أبو يوسف يعقوب المنصور .  
المبحث الرابع: الخليفة الموحدى أبو محمد عبدالله الناصر.  
الفصل الثالث: الاندلس والشمال الافريقي بعد سقوط دولة الموحدين . ويشتمل على اربعة مباحث:  
المبحث الاول: مملكة غرناطة.  
المبحث الثاني : دولة بني مرين .  
المبحث الثالث: دولة بني عبدالوادم.  
المبحث الرابع: الدولة الحفصية.  
ثم الخلاصة .  
وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبتّه ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب اخواني الذين اعانوني بكافة ما يملكون من أجل اتمام هذا الكتاب.  
إنه ولي ذلك والقادر عليه.  
سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك،  
"وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين".

**الفقير الى عفو ربه ومغفرته**

**علي محمد محمد الصلابي**

**الفصل الأول**

**محمد بن تومرت**

## المبحث الأول

### اسمه ونسبه، ورحلاته في طلب العلم وشيوخه

#### أ- اسمه ونسبه:

اختلف المؤرخون في تحديد نسب بن تومرت فبعضهم قال بأنه عربي ، وينتهي نسبه الى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة من زوجها علي ، والبعض الآخر يجعل نسبه بربرياً صرفاً. والبعض الآخر يجعله نسباً مختلطاً بين البربر والعرب هذا وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعده يصرون على أن المهدي عربي النسب، قرشي الأصل من صلب الرسول (1).

والمتتبع لتاريخ ابن تومرت يدرك أنه لم يظهر ادعاءه النسب القرشي دفعة واحدة بل إنه تدرج في هذا الأمر، حتى يضمن قبول الناس له، فبعد أن اطمأن لقبول دعوته، وإلى تمكنه من اتباعه، أخذ يشوقهم إلى المهدي ونسبه، ثم لما قبلوا هذا الأمر، ادعى ذلك الأمر لنفسه.

ويذهب ابن خلدون إلى اثبات أن نسبه يرجع إلى الرسول صلى الله عليه —————

(1) انظر سقوط دولة الموحدين د. مراجع عقيله ص36.

وسلم، حيث قال: (وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم، مع أنه إن ثبت أنه ادّعا وانتسب إليه، فلا دليل يقوم على بطلانه لأن الناس مصدّقون في انسابهم" (1).

وقول ابن خلدون فيه نظر، لأن المؤرخين الأثبات والثقات اثبتوا أن محمد بن تومرت لا يتورع في الكذب والدجل من أجل الوصول إلى أهدافه (2).

ووافق بن خلدون من المعاصرين الدكتور عبدالمجيد النجار (3) في صحة نسب بن تومرت إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم وادّعى أن صحة هذا النسب تبقى قائمة من حيث الامكان التاريخي والجغرافي والعقلي. ويرأى محمد بن عبدالله عنان من المعاصرين أن هذا الادعاء ماهو إلا نحلة باطلة، وثوباً مستعاراً قصد ورائها ابن تومرت أن يدعم بها صفة المهدي الذي انتحلها أيضاً شعاراً لامامته ورياسته (4).

والذي يظهر من البحث العلمي النزيه، إن محمد بن تومرت ادعى النسب القرشي الهاشمي كوسيلة لكسب الانصار لدعوته الناشئة والذي قادنا إلى هذا الاستنتاج مايلي:

1- إنه لم يشتهر بين المؤرخين لاسيما علماء الانساب منهم أن ابن تومرت يعود إلى أصل عربي، وإنما معظم الذين قالوا بهذا هم من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحى من سلاطينها وامرائها، أو بتأثر بدعوة \_\_\_\_\_

(1) ابن خلدون - المقدمة ص26.

(2) انظر الذهبي سير اعلام النبلاء (539/19).

(3) انظر : تجربة الاصلاح في حركة بن تومرت د. عبدالمجيد النجار ص56.

(4) انظر: عصر المرابطين والموحدين ص557.

ابن تومرت(1).

2- ان هذا الادعاء كان مألوفاً عند أصحاب المطامح الدينية والسياسية في بلاد المغرب كما لاحظنا في دراسة الدولة العبيدية الرافضية.

3- ويضاف إلى ما سبق أن انتساب ابن تومرت إلى الأصل العربي لم يكن معروفاً عند اتباعه إلا بعد أن ادعى ذلك لحاجة في نفسه(2).

أما تاريخ ميلاده فقد ذكر المؤرخون عدة روايات تدل على اضطرابهم في تحديد سنة الولادة، فمنهم من قال 473هـ(3) ومنهم من قال، 485هـ(4) ومنهم من قال 469هـ ورجح الدكتور عبدالمجيد النجار أنه ولد سنة 473هـ(5).

ولم تعطي المصادر التاريخية نبذة موسعة عن أسرته وإنما وردت الأخبار التي تدل الباحث على أن أسرته كانت من أواسط القوم غير بارزة الجاه والثروة وكانت على مكانة دينية حيث يقول ابن خلدون: "وكان أهل بيته أهل نسك ورياط"(6)، كما أنها كانت تحافظ على العلاقات الأسرية الحميمة بين أفرادها كما يبدو من شوق والد بن تومرت وأخويه عيسى وعبدالعزیز وأخته زينب إليه لما طالت غيبته بالمشرق، ثم احتضانه ومؤازرته بعد عودته من تلك الغيبة"(7).

---

(1) من هؤلاء المؤرخين ، ابوبكر الصنهاجي المعروف بالبيذق، وابن القطان ، وغيرهم .

(2) انظر: مجلة جامعة الامام محمد بن سعود العدد السادس ص558.

(3) انظر: سقوط دولة الموحدين ص36.

(4) انظر : وفيات الاعيان لابن خلكان (52/5).

(5) انظر : تجربة الاصلاح في حركة المهدي بن تومرت ص57.

(6) ابن خلدون - العبر: (226/6).

(7) ابن خلدون - المقدمة: 506.

وعندما كان طفلاً تلقى دراسته الأولية بالكتاتيب في قريته، فتعلّم القرآن حفظاً ورسمًا وقراءة على عادة المغاربة كما وصفها ابن خلدون في قوله: (أما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه... إلى أن يجاوزوا حدّ البلوغ إلى الشيبية)<sup>(1)</sup>.

وربما قبل رحلته إلى المشرق تعلم العربية وادبها وشيئاً من الفقه، لقد ظهر اهتمامه وشغفه بالعلم منذ شبابه قال ابن خلدون: "وَشَبَّ مُحَمَّدٌ هَذَا قَارِئًا لِلْعِلْمِ، وَكَانَ يُسَمَّى "آسْفُو" وَمَعْنَاهُ الضِّيَاءُ لِكَثْرَةِ مَا كَانَ يَسْرُجُ فِي الْقَنَادِيلِ بِالْمَسَاجِدِ لِمَلَازِمَتِهَا"<sup>(2)</sup>.

### ب- رحلته في طلب العلم

تاقت نفسه للمزيد من العلوم الشرعية، فقصده المشرق الإسلامي لينهل من منابع العلم، ومصادر المعارف، ومهد الحضارات مايفيده في تحقيق اهدافه التي يرنو إليها. فبدأت رحلته في عام 500هـ ، فحج وشرع في طلب العلم، ودامت رحلته خمسة عشر عاماً كان لها الأثر المباشر في تشكيل شخصيته والتأثير في آرائه وأفكاره. ومكث في العواصم الإسلامية من أجل التعلم والتتلمذ على العلماء في كل من بغداد، والاسكندرية والحجاز، وكان قبل الرحلة المغربية سافر إلى الأندلس

(1) ابن خلدون - المقدمة ص506.

(2) تاريخ ابن خلدون (226/6).

حيث نزل بقرطبة<sup>(1)</sup> ودرس بها على القاضي أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين إلا أن الإقامة في قرطبة لم تدم طويلاً بل كانت محطة للعبور<sup>(2)</sup>.

ومن الأندلس توجه المهدي إلى تونس بجرأً ونزل بالمهدية حيث درس بها على أبي عبدالله المازري ثم قصد مصر على طريق جزيرة جربة حيث أقام بها بعض أيام<sup>(3)</sup>.

ثم توجه إلى الديار المصرية وتلقى دروساً وأخذ علماء من الشيخ أبي بكر الطرطوشي ولم يمكث طويلاً في مصر حيث فضل الذهاب إلى الحجاز لحج البيت الحرام ويؤدي الفريضة<sup>(4)</sup> وتوجه من الحجاز نحو العراق ومكث بها مايزيد على عشر سنوات وهناك تبحر في علم الكلام وعقائد الاعتزال، والأشاعرة وأخذ من كل مايخدم فكرته طرفاً قال ابن خلدون: (ودخل العراق، ولقي جلة العلماء يومئذ وفحول النظار، وأفاد علماء

واسعاً<sup>(5)</sup>.

ومن أشهر شيوخه في بلاد المشرق الإسلامي: الغزالي، والكنيا الهزاسي، والمبارك بن عبد الجبار، وأبو بكر الشاشي.

وكان الإمام الغزالي (ت: 555) مبرزاً في علم أصول الدين والتصوف ومتبحراً في علم الكلام ووقع في اغلاط واخطاء قال الذهبي عن كتابه الاحياء: (أما الاحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم، وزهد في طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية نسأل الله علماً \_\_\_\_\_

(1) البيان المغرب (435/1).

(2) نفس المصدر السابق: (435/1).

(3) انظر: تجربة الاصلاح لابن تومرت ص 59.

(4) انظر: ابن خلدون (226/6).

(5) ابن خلدون العبر (226/6).

نافعاً.

تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن وفسره الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً، ولم يأت، ولم يأت نهي عنه قال عليه السلام: (من رغب عن سنتي فليس مني)<sup>(1)</sup>. فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله وبإدمان النظر في الصحيحين، سنن النسائي، ورياض النووي، وأذكاره، تفلح وتنجح. وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضيات، وجوع الرهبان وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فواغوته يا الله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم، نعم" ولم ينسى الذهبي أنه يوفي الإمام الغزالي حقه قائلاً: "فرحم الله الإمام أبا حامد فإن مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لاندعي عصمة من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول"<sup>(2)</sup>.

وقال الشيخ الطرطوشي<sup>(3)</sup> في رسالة له إلى ابن مظفر: (فأما ما ذكرت من أبي حامد فقد رأيت، وكلمته فرأيت جليلاً من أهل العلم واجتمع فيه العقل والفهم، ومارس العلوم طول عمره، وفاق على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له العدول عن طريق العلماء، ودخل في غمار العلماء ثم تصوف وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل "الاحياء"، عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم \_\_\_\_\_

(1) اخرجه البخاري، كتاب النكاح رقم 5063، ومسلم رقم 1401.

(2) سير اعلام النبلاء (340/19).

(3) توفي عام 521هـ.

رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات" (1).

وأما شيخ الإسلام، ابن تيمية فقد أثنى على كتاب الاحياء قائلاً بأن غالبه جيد وأن فيه فوائد كثيرة لكنه أشار إلى أن فيه مواد مذمومة وفسادة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، وأضاف أن بعض أئمة الدين أنكروا على أبي حامد هذا الذي في كتبه وقالوا أمرضه الشفا - يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة - وقال: "وفي الاحياء أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة. وفيه اشياء من أغاليط الصوفية وتزهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة وما هو أكثر مما يُردّ منه" (2).

وقد كان يتعرض دائماً لآراء الغزالي في أكثر كتبه وينقد ماجاء فيها بأسلوب هادئ علمي وغالباً ما كان يختم الكلام عنه بأنه مات على أحسن أحواله بعد ان كان في أواخر عمره مقبلاً على كتب الحديث وأنه قد مات وصحيح البخاري على صدره (3).

إن بعض الكتاب عرضوا الغزالي كعالم قد تتلمذ على يديه ابن تومرت وإن الغزالي كان ينزع منزع التحرر العقلي ويشجب الجمود على التقليد (4) وإن بن تومرت تأثر به وكأن بن تومرت رجل متحرر من الجمود والتقليد ومنتور في اطروحته التغييرية.

ولا بد من بيان أن الغزالي كان مضطرباً في منهجه العقدي ولم تكن مسائل

(1) سير اعلام النبلاء (341/19).

(2) درء تعارض العقل والنقل (210/6).

(3) فتاوى ابن تيمية (552-551/10)، (55/6).

(4) انظر تجربة الاصلاح في حركة ابن تومرت ص 61.

العقائد التي طرحها منسجمة مع أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأن بن تومرت تأثر به واستفاد منه في بعض المسائل ووظفها لأهدافه السياسية.

وأما شيخه أبو الحسن علي بن محمد الملقب بعماد الدين، والمعروف بالكنية الهراسي (ت 504هـ/1110م)، فقد كان عالماً في الفقه والأصول والخلافيات والتفسير، وله في التفسير كتاب (أحكام القرآن).

وأما المبارك بن عبد الجبار (ت 500هـ/1106م) فقد كان محدثاً أكثر، إلا أن بن تومرت لم يطل تتلمذه عليه حيث توفي في نفس السنة التي قدم فيها إلى بغداد.

وأما أبو بكر الشاشي (ت 507هـ) ، فقد كان عالماً في أصول الدين وأصول الفقه، كما كان في الفقه رأس الأئمة الشافعية بالعراق، وألف في المذهب كتابه "المستظهري"<sup>(1)</sup> وكان من شيوخه أيضاً أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت 521هـ) الذي أخذ عنه بن تومرت العلم في الاسكندرية، وكان متميزاً في الفقه، ومتمكناً في السياسة الشرعية التي ألف فيها كتاب "سراج الملوك" ، كما كان الطرطوشي مهتماً بنشر السنة ومحاربة البدعة وألف كتابه "الحوادث والبدع" .

لقد استطاع ابن تومرت أن يستفيد من رحلته المشرقية وأن يتحصل على علوم متنوعة تجمع بين العلوم العقلية والنقلية، فضبط الأصول، وعلم الكلام وعقائد الأشاعرة وتأثر بالمعتزلة وغير ذلك من العلوم<sup>(2)</sup>. ورأى عن كثر أقطاب المدارس الفكرية من الأشاعرة والمعتزلة والشيعة وغيرها من المذاهب \_\_\_\_\_

(1) انظر : تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ص 61.

(2) المصدر السابق نفسه ص 62.

وحضر مناقشتهم وندواتهم واطلع على فلسفتهم وروح حركاتهم وبذلك تبلورت آراؤه وأفكاره.

وساعدته رحلاته المغربية والمشرقية على الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، واستوعب أسباب الانهيار والتدهور التي تعانيها دول أمارات بلاد المغرب. وكان ذلك من الأسباب القوية التي دفعته إلى الطموح في القضاء على أنظمة الحكم الموجودة في المغرب، والتخطيط لإقامة دولة موحدية قوية لا في بلاد المغرب وحدها، بل والعالم الإسلامي كله<sup>(1)</sup>.

## المبحث الثاني

### البعث التاريخي عند محمد بن تومرت

ونظر في المدارس الفكرية الرئيسية التي وجدت في بلاد المغرب قبله، وخصوصاً تلك المدارس والافكار والمذاهب التي كان لها ثقل مذهبي وسياسي تحميه دولة وشوكة وقوة والتي أكسبت تلك الاتجاهات هبة ومكانة عند الناس، مما ساعد على شيوعها وانتشارها في مناطق متعددة في الشمال الافريقي واهم تلك الاتجاهات والافكار التي قامت على أسس قوية تحميهها دولة في بلاد المغرب والتي استقى منها بن تومرت افكاره وزاد عليها.

#### 1- الاتجاه السني ويمثله دولتا الأغلبية والمرابطين والدولة الزيرية الصنهاجية في آخر عمرها:

وقد أسس دولة الأغلبية في المغرب الأدنى إبراهيم بن الأغلب ابن سالم التميمي الذي عينه الخليفة العباسي هارون الرشيد (171-193هـ) سنة 184هـ على ولاية افريقية، ثم مالبت أن عرض على الرشيد الاستقلال الجزئي على الخلافة العباسية، والاكتفاء بالتبعية الأسمية مقابل دفعه للخلافة العباسية مبلغاً من المال في كل سنة، فوافق له الرشيد على هذا الطلب. وقد توالى على عرش دولة الأغلبية عدد من الأمراء كان آخرهم زيادة الله بن عبدالله بن الأغلب (290-296هـ) حيث حصل في فترة حكمه انقسام داخلي بين الأغلبية أنفسهم، مما ساعد الدولة العبيدية على القضاء على دولتهم سنة 296هـ وقد عمل الأغلبية - حين مدة حكمهم - على توطيد المذهب السني ونشره في البلاد التي خضعت لنفوذهم في بلاد المغرب، وصقلية، كما عملوا أيضاً على نشر الحضارة الإسلامية في تلك الديار<sup>(1)</sup> أما دولة المرابطين (451-541هـ) فقد قامت في جنوب بلاد المغرب الأقصى بزعامة الفقيه عبدالله بن ياسين، والأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي ثم يحيى بن عمر اللمتوني وتوسعت حتى ضمت المغرب كله والأندلس في عصر القائد الأمير يوسف بن تاشفين وكانت دولة المرابطين على أسس إسلامية سليمة، حيث نهجت نهج أهل السنة والجماعة، ولم تتأثر بأي

نزعة دينية أخرى، وكان من أهم الأسس التي تبنتها "الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام أحكام الدين في فروض الزكاة والاعشار وكل أمور الدولة"<sup>(2)</sup> وكانت من مآثرهم العظيمة جهادهم ضد النصارى في الأندلس وتحقيق نصرهم على النصارى في معركة الزلاقة بقيادة المجاهد الكبير يوسف بن تاشفين وجهادهم في بلاد السنغال والنيجر وجنوب الصحراء الكبرى بقيادة الأمير الرياني العابد الزاهد المجاهد أبي بكر بن عمر الذي استشهد في قلب الصحراء الكبرى (480هـ).

وفي مستهل القرن السادس الهجري بدأ الضعف ينتاب دولة المرابطين لاسيما بعد ظهور دعوة بن تومرت في بلاد المغرب الأقصى، ثم مالبت الموحدون أن قضاوا عليها حينما دخلوا مدينة مراكش وقتلوا السلطان اسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين (539-541هـ) سنة 541هـ<sup>(3)</sup> وبهذا تمكن الموحدون من أن يقيموا دولتهم على انقاض دولة المرابطين في المغرب والأندلس<sup>(4)</sup>.

(1) انظر: الاغالبية سياستهم الخارجية ص44 للاستاذ محمود اسماعيل.

(2) انظر : قيام دولة المرابطين لحسن محمود ص166.

(3) انظر: البيان المغرب (23/3).

(4) انظر : مجلة جامعة الامام محمد بن سعود العدد السادس ص541.

وبالإضافة إلى هاتين الدولتين السنتين، فإن الدولة الزييرية الصنهاجية قد نهجت النهج السني في آخر عمرها وذلك حينما أعلن المعز بن باديس (406-453هـ) انفصاله عن الدولة العبيدية في سنة 440هـ حيث خلع طاعتهم، وأخذ بمذهب أهل السنة كما لعن الرافضة وقتل من وجده في دياره منهم، ثم مالبت أن دعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ)<sup>(1)</sup> وبهذا تحول اتجاه هذه الدولة إلى الاتجاه السني، بعد أن كان اتجاهها رافضياً<sup>(2)</sup>. ولقد فصلت في تاريخ دولة الأغالبية في كتابي الثاني (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الافريقي)، وتكلمت عن الدولة العبيدية الرافضية وكيف قضى عليه سيف السنة ومزيل البدعة المعز بن باديس في كتابي الثالث (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الافريقي) وتحدثت عن دولة المرابطين وفقه التمكين عن قادتتها العظام في كتابي الرابع (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الافريقي).

## **2- الاتجاه الخارجي: ويمثله دولتا المدراريين (140-347هـ) والرستميين (144-296هـ).**

وقد قامت دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى سنة 140هـ، على يد عيسى بن يزيد المكناسي والذي كان يدين بالمذهب الصفري أحد الاتجاهات الرئيسية عند الخوارج، حيث بسطت هذه الدولة

سلطانها على منطقة سلجماسة جنوب بلاد المغرب الأقصى(3).

(1) انظر: ابن خلدون (159/6).

(2) نفس المصدر السابق .

(3) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والاندلس د. احمد العبادي ص46.

وفي سنة 155هـ قتل أهل سلجماسة زعيمهم عيسى المكناسي لِمَا أَخَذَ أَخْذُوهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ وَلُوا بَعْدَهُ أَبَا الْقَاسِمِ سَمْعُونَ بْنِ وَاسِعِ بْنِ الْمَلِكِ بِمَدْرَارِ (155-167هـ)<sup>(1)</sup> وقد تولى على عرش الدولة أبناؤه وأحفاده من بعده حيث تذبذبوا في ولائهم المذهبي والسياسي، فمنهم من خطب للعباسيين، ومنهم من خطب للعبديين، فلما تولى محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار

(332-347هـ) أعلن خروجه على المذهب الخارجي، وأخذ بالمذهب السني، لكن العبديين قضوا عليه حينما هاجم جوهر الصقلي سلجماسة سنة 347هـ وبوفاته انتهت دولة بني مدرار .

أما دولة الرستميين، والتي كانت تنهج المذهب الأباضي، فقد أسسها في بلاد المغرب الأوسط عبدالرحمن بن رستم (144-171هـ) سنة 144هـ حيث اتخذ مدينة تاهرت حاضرة له<sup>(2)</sup>.

ولما توفي عبدالرحمن بن رستم سنة 171هـ ترك الأمر شورى، بين سبعة من رجال الدولة الرستمية، وقد اختلف هؤلاء السبعة، فبينما رأى بعضهم مبايعة ابنه عبدالوهاب، رأى آخرون<sup>(3)</sup> مبايعة مسعود الأندلسي أحد السبعة الذين ترك عبدالرحمن الأمر فيهم، لكن مسعود تنازل لعبدالوهاب، بعد أن كادت الفتن تعصف بالدولة<sup>(4)</sup> وقد استمرت هذه الدولة تحكم بلاد المغرب حتى قضى العبديون على آخر أمرائها وهو اليقظان بن أبي اليقظان

(1) انظر : مجلة جامعة الامام محمد بن سعود العدد السادس ص543.

(2) انظر : المغرب الكبير (3/583).

(3) المصدر السابق : (2/552-553).

(4) انظر : الأزهار الرياضية للباروني (2/990).

(292-296هـ) وذلك سنة 296هـ<sup>(1)</sup>، لكن سقوط هذه الدولة لايعني سقوط المذهب الخارجي في بلاد المغرب فقد استمر وجود هذا المذهب هناك حتى بعد سقوط تلك الدولة<sup>(2)</sup>.

### 3- الاتجاه الرافضي وتمثله دولة العبيديين:

وهذا الاتجاه كان آخر المذاهب الفكرية دخولاً لبلاد المغرب إذ أن الدولة العبيدية التي نشرت هذا المذهب هناك، لم تقم في بلاد المغرب الأدنى إلا في سنة 296هـ. وبالرغم من كون الدولة العبيدية قد تمكنت من القضاء على الأغلبية، والرسّامين، والمدراريين، والادارسة فاستطاعت بذلك - إلى حد ما - أن تبسط سلطانها السياسي على معظم أقاليم بلاد المغرب، إلا أنها لم تتمكن من فرض مذهبها الديني على أهالي تلك الديار، وذلك لأن الناس لم يتقبلوا أفكار العبيديين لما فيها من غلو وشطط لم يألفه سكان تلك الديار، بل انهم تطلّعوا إلى خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس هي الخلافة الأموية بالأندلس<sup>(3)</sup> كما أن أهل السنة قاموا بمقاومة المد الرافضي العبيدي بكل ما يملكون وهذا مما جعل الروافض يرحلون إلى مصر عام 362هـ.

(1) انظر: المغرب الكبير (565/2).

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د. احمد العبادي ص48.

(3) المصدر السابق: ص55.

### 4- الاتجاه الاعتزالي: ويمثله دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى

(172-313هـ)

أقام هذه الدولة ادريس بن عبدالله بن الحسن سنة 172هـ، وذلك حينما أوته قبيلة أوربة البربرية، حيث امتدت حدود دولة الأدارسة من المحيط الأطلسي غرباً إلى تلمسان ووهران شرقاً<sup>(1)</sup>. ولما توفي ادريس بن عبدالله سنة 177هـ بقي الأمر في سلالة حتى قضى على دولتهم العبيديون عام 313هـ<sup>(2)</sup> وكان الأدارسة يطمحون إلى توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم مستندين في ذلك إلى أصلهم الشريف<sup>(3)</sup>، وقرب نسبهم للرسول صلى الله عليه وسلم ولكنهم لم يظهروا شيئاً من التشيع كما يبدو هذا من خلال استقرار تاريخ تلك الدولة.

أما تبني دولة الأدارسة للمذهب الاعتزالي، فالذي يبدو هو أن زعماء هذه الدولة لاسيما القدماء منهم وجدوا أن هذا المذهب قد انتشر في بلاد المغرب الأقصى خاصة بين أفراد قبيلة أوربة التي ساعدت ادريس

الأول في اقامة دولته، ولهذا لم يجدوا مناصاً من إظهار موافقتهم الظاهرية لهذا الفكر ليبقى في دولتهم بعد قيامها مراعاة منهم لزعماء قبيلة أوربة الذين تبوؤوا وعملوا على نشره، لكن الإدارة لم يظهرها حماساً وجعله مذهباً رسمياً لدولتهم(4).

سنلاحظ من خلال دراستنا التحليلية أن محمد بن تومرت استفاد من جميع \_\_\_\_\_

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب ص 50.

(2) تاريخ المغرب الكبير (486/2).

(3) دراسات في تاريخ المغرب والاندلس للعبادي ص 51.

(4) مجلة جامعة الامام محمد بن سعود ص 546 - العدد السادس.

المذاهب السابقة وزاد عليها مما يخدم ميوله ويحقق أهدافه ولذلك جاءت الأسس الفكرية لدعوته خليطاً مضطرباً ونسيجاً فكرياً متبايناً.

إن ابن تومرت لم يكن صاحب مدرسة فكرية تعرف به، لها فلسفتها وأفكارها وقضاياها التي تطرحها وتناقشها وتعمل على تثبيتها ونشرها. ولم يكن ابن تومرت رجل فكر بحت فقط، ولا كان رجل سياسة فقط. بل انه في الحقيقة جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة. فهو في دينه، ذهب في عبادته وتشفه إلى درجة التصوف وهو في علمه، متبحر ودفع بالعلم وتشجيع العلماء والحركة العلمية في عهد الدولة الموحدية وأتى هذا الغرس نتاجه في عهد يوسف بن عبدالمؤمن، ويعقوب بن يوسف ويعتبر رجل السياسة لأنه هو الأول والوحيد الذي خطط لقيام دولة الموحدين ومهد لها سبيل القيام ووضع لها الأسس التي قامت عليها(1).

إن ابن تومرت لم يتأثر بمدرسة واحدة من مدارس الفكر التي كانت تعيش في زمانه، بل تأثر بمدارس فكرية متعددة واخذ من المذاهب الفقهية والفكرية ما يتواءم مع شخصيته ومعتقداته ويحقق اهدافه وسنرى ذلك في مبحث مستقل بإذن الله تعالى.

---

(1) انظر : سقوط دولة الموحدين ص 38.

## المبحث الثالث

### مسيرة العودة وخطواته الحركية

في عام 510هـ<sup>(1)</sup> شرع محمد بن تومرت في رحلته للعودة إلى الشمال الافريقي واستغرقت مدة عودته حتى وصل إلى مسقط رأسه أربع سنوات، وكان خلالها يتوقف بكل القرى والمدن التي يمر بها وينشط في نشر العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتحمل المصاعب والمشاق ويشكل خلايا تابعة له في بعض المدن، فتحرك من مكة إلى مصر ومكث في الاسكندرية واخرج منها بسبب امره بالمعروف ونهيه عن المنكر وقصد طرابلس بحراً حيث بقي مدة يعلم الناس العقيدة على الطريقة الأشعرية ثم انتقل إلى المهديّة بتونس واتخذ أحد مساجدها مقراً يدرس به العلم مركزاً على علم الأصول وحدث اضطراباً في المدينة بسبب أسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم اضطر للخروج إلى المنستير ثم إلى مدينة تونس وكان في الطريق يختار بعض رفقائه المخلصين وتوجه بهم نحو القسطنطينية، ثم بجاية التي وصلها سنة 511هـ واقام بها مدة واشتهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وناظر الفقهاء بها وظهر عليهم<sup>(2)</sup>.

وفي مدينة ملالة التقى ابن تومرت بعبدا المؤمن بن علي الذي كان متجهاً إلى الشرق لطلب العلم برفقة عمه يعلو فاستطاع أن يصرفه عن وجهته ويقنعه بملازمته وقد لمح ابن تومرت في عبدا المؤمن بن علي علامات الذكاء \_\_\_\_\_

(1) روض القرطاس ص120.

(2) انظر: تجربة الاصلاح في تجربة المهدي بن تومرت ص63.

وصفات النبوغ وملاحم الفطنة وأخبر بن تومرت تلميذه بحقيقة ماينوي القيام به<sup>(1)</sup> فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والأمن والخوف والعسر واليسر والمنشط والمكروه.

لقد نسجت حول لقاء الرجلين رواية يغلب عليها طابع الخيال والدعاية من أجل ترسيخ مكانتهما في نفوس الاتباع، فالرواية تقول أن الدلائل والإشارات كانت تبشر بقرب ظهور عبدا المؤمن الذي على يديه يتحقق النصر، وان صفاته موجودة في كتاب يمتلكه ابن تومرت يسمى الجفر وأنه رأى فيه أنه لا يتم هذا الأمر إلا على يد رجل هجاء اسمه (ع بدم و م ن) ويجاوز وقته المائة الخامسة وتستمر الرواية في سرد قصة اللقاء الأسطورية بينهما وكيف استطاع ابن تومرت أن يتعرف على عبدا المؤمن ويبشر به قبل قدومه.

وكتاب الجفر هذا: يقصد به جلد المعز الذي كتب فيه، وهذا الكتاب يزعم الإمامية أن جعفر الصادق

رحمه الله كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إليه، وكل ما سيقع ويكون إلى يوم القيامة، وكان مكتوباً عنده في جلد ماعز، فكتبه عنه هارون بن سعيد العجلي رأس الزيدية، وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب فيه، وهذا زعم باطل، فإن جعفر الصادق كجده أمير المؤمنين لا يعلم الغيب قال تعالى: [ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون إيان يبعثون ] (سورة النمل، آية: 65).

وقال تعالى: [ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ] (سورة الانعام ، آية: 59).

(1) انظر : المغرب الكبير (774،775/2).

إن كتاب الجفر لا تصح نسبته إلى جعفر الصادق رحمه الله، والذين نسبوه إليه من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار، والتميز بين صحيحها وضعيفها، وعمدتهم في المنقولات التواريخ المنقطعة الإسناد، وكثير منها من وضع من عرف بالكذب والاختلاف، كأبي مخنف لوط، وهشام بن محمد السائب، وأمثالهما، وغير خاف على طلبة العلم أن ما لا يعلم إلا من طريق النقل لا يمكن الحكم بثبوتها إلا بالرواية الصحيحة السند، فإذا لم توجد، فلا يسوغ لنا شرعاً وعقلاً أن نقول بثبوتها(1).

إن ابن تومرت لم يكن أول من قام بعملية الاستدلال بالحروف، ويظهر للباحث أنه أخذها من بعض الفرق الباطنية خلال اقامته بالمشرق، فقد كانت الباطنية تهتم اهتماماً كبيراً في هذه الأمور(2). لقد تقاربت افكار عبدالمؤمن مع شيخه وخصوصاً ما يتعلق بالخروج على السلطان ونضجت أفكاره بعد أن لازم ابن تومرت، وأخذوا يعملان سوياً من أجل تقويض دولة المرابطين(3).

ومن الذين انضموا إلى ابن تومرت ولعبوا دوراً هاماً في دعوته عبدالله الونشريشي الذي كان على درجة كبيرة من الثقافة. وقد اتفق معه ابن تومرت على أن يتستر على ما هو عليه من العلم والفصاحة عن الناس، ويظهر العجز والغباء والتعري من الفضائل مما يشتهر به عند الناس على أن يداوم على أخذ العلم في السر ثم يفصح عن ذلك دفعة واحدة عندما يطلب منه بن تومرت ذلك \_\_\_\_\_

(1) انظر: مجلة المنار (60/4) لمحمد رشيد رضا

(2) انظر: دولة المرابطين ص(101).

(3) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامه محمد ص(102)

فيكون بمثابة المعجزة فيصدقها الناس ويزداد إيمانهم بدعوته، فقام الونشريشي بذلك واتقن الخداع والمكر والحيل والكذب والدجل على الناس(1).

واستمر بن تومرت في تنقله الى المدن ووصل الى فاس ، واستمر في إلقاء دروسه فيها حتى عام 514هـ وكان خلال هذه المدة ملتزماً ببرنامج الذي وضعه لنفسه والذي كان من ضمن اهدافه العمل على تقريب أشخاص من ذوي القوة الجسمانية قليلة التجربة، اضافة لاستمراره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما أفضى الى طرده من فاس، فتوجه الى مراكش<sup>(2)</sup> مقرر حكم المرابطين. وخلال رحلته اليها كان ينبه عبدالؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية<sup>(3)</sup> ويبدل ذلك على انه كان يخطط لحرب طويلة الأمد ضد المرابطين.

ودخل ابن تومرت مدينة مراكش في عام 514هـ في زي الزهاد وعلى عادته خرج مع تلاميذه إلى أسواق مراكش يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون إذن أمير المسلمين أو إذن أحد قضاة أو وزرائه، لأنه شاهد من مراكش من المفسد ما لم يره في مدينة ثانية<sup>(4)</sup> وصدف أن رأى أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها فوبخها فشكته إلى أخيه ثم توجه بن تومرت إلى مسجد علي بن يوسف في صلاة الجمعة فوجد أمير المسلمين جالساً وحوله الوزراء وقوفاً فاستتكر عليهم ذلك وعاب عليهم لبس النقاب، وخاطب علياً قائلاً "الخلافة لله \_\_\_\_\_"

(1) انظر: ابن خلكان (48/5)

(2) انظر: البيهقي أخبار المهدي بن تومرت ص(21-26)

(3) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (103)

(4) تاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم حسن ص (282/4)

وليس لك يا علي بن يوسف<sup>(1)</sup>.

ولما كثر نشاط بن تومرت في مدينة مراكش خاصة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطعن في أمير المسلمين علي بن يوسف استدعاه علي للاطلاع على حقيقة امره، فلما حضر بين يديه استطاع ابن تومرت أن يقنعه بأنه زاهد وليس له أي مطمع دنيوي، وإنما يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفشي المفسد والبدع في ملك أمير المسلمين الذي هو مكلف بإزالتها، والعمل على إحياء السنة، وكان يتحدث بأسلوب مؤثر وقع في نفس أمير المسلمين فذرفت دموعه على وجنتيه<sup>(2)</sup>.

ولم تعم فصاحة وأسلوب ابن تومرت المؤثر أمير المسلمين علي بن يوسف عن خطورة دعوته فدعا العلماء من كل صوب لمناظرته لمعرفة حقيقة هذا الرجل، فإن كان علي حق اتبع وإن كان على جهل أدب<sup>(3)</sup>.

وكانت المناظرة فرصة لاتعوض لابن تومرت، لأنها ستنجح له إبراز مآلديه من علم، وإظهار علماء

مراكش بمظهر العاجزين أمام سطوع حجته وفصاحته. وهي أيضاً وسيلة دعائية ممتازة لدعوته لأن ماستسفر عنه ستتناقله الألسن، وستطير أخبار هذه المناظرة ونتيجتها في الآفاق، فهي بحق بطاقة تعريف جيدة لداعية مغمور.

وسيدفع الفضول كثيرين من الحضور وأفراد الرعية إلى مقابلة الداعية الجديد للاستفسار عن حقيقة دعوته، وعن بعض القضايا التي أثيرت في المناقشة مما يتيح له فرصة ممتازة لتوضيح فكره، وهذا ما يسعى إليه لضم

(1) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (103).

(2) انظر: دولة المرابطين لسلامة محمد سليمان ص (104).

(3) انظر: دولة المرابطين لسلامة محمد ص (104).

أعداد جديدة الى صفوفه.

وقبل بدء المناظرة في مجلس أمير المسلمين علي الغاص بالعلماء والأعيان، قدم علماء الدولة المرابطية - الذين كانوا يجهلون علم الأصول والجدل - عنهم قاضي المرية محمد بن أسود ليمثلهم في هذه المناظرة. وأخذ ابن تومرت يسخر كل كلمة في المناظرة لتصوير فساد الأوضاع في الدولة المرابطية، فأوضح أن الخمر تباع جهاراً نهاراً، وأن الخنازير تمشي في الشوارع وأن أموال اليتامى تؤكل، ويبين أن الذي يتحمل المسؤولية هم حاشية أمير المسلمين لآخفائهم تلك الأوضاع عنه<sup>(1)</sup>.

وبعد أن كشف عن سوء الأوضاع أراد ان يثبت عجز العلماء مراكش عن مجاراته في العلم، فطرح عليهما بعض الاسئلة التي لم يستطيعوا الإجابة عليها. فلما رأى عجزهم عن الإجابة بدأ يوضح ما عجزوا عنه بأسلوب أخذ، يسخر له كل ثقافته وفصاحته، وهكذا انتهت المناظرة لصالح ابن تومرت<sup>(2)</sup>.

لقد تنبه الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي إلى أن بن تومرت ليس طالب آخره وإنما هو طالب سلطان، وأشار على الأمير علي بن يوسف بقتله ليكتفي شره، لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة ألهم على المرابطين. ولكن وزير علي بن يوسف ينتان بن عمر، وسير بن ورييل، أقنعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك بن وهيب.

وألح مالك بن وهيب على أمير المسلمين بتخليده في السجن اذا لم يقتله، وقال له: "اجعل عليه كبلأ كي

لاتسمع له طبعاً" فوافقه على ذلك<sup>(3)</sup>. وحال

(1) انظر: بن خلكان (5/)

(2) انظر: دولة المرابطين تأليف سلامة محمد ص (105)

(3) انظر: وفيات الأعيان (49،50/5)

ينتان مرة ثانية دون الأخذ برأي مالك بن وهيب والذي خاطب أمير المسلمين قائلاً: "يا أمير المسلمين هذا وهن في حق الملك أن تلتفت لهذا الرجل الضعيف فخلّ سبيله انه رجل لايملك سد جوعه"<sup>(1)</sup>. لقد أصابت كلمات الوزير ينتان عزة نفس أمير المسلمين فاستصغر شأنه وأمر بإطلاق سراحه على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين (2).

وتوجه ابن تومرت إلى مقبرة ابن حيدروس، بالقرب من مراکش وبنى فيها خيمته وكان ذلك الاختيار يدل على ذكاء خارق، فهو إيماءة لأمير المسلمين بأنه رجل يريد الآخرة فيقطع بذلك دابر كل وشاية عليه من قبل المناوئين له. كما ان اختيار هذا المكان سيدفع الكثير من الفضوليين الى القدوم إليه للاستفسار عن أحوال هذا العابد الذي نبذ الحياة وزخرفها وارتضى الحياة بين الأموات فيبث أفكاره بينهم فمن اقتنع ضمه اليه. والمقبرة من ناحية اخرى مكان مناسب وهادئ، وبعيد عن الأعين، فيتحدث هناك بما يشاء إلى تلاميذه، وفعلاً توافد عليه الطلاب حتى كثر جمعه.

إن ابن تومرت لكي يضمن لدعوته النجاح والانتشار سلك الخطوات التالية:-

1- اظهار للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقصصه لأساليب وشخصيات المصلحين، فقد انتحل ابن تومرت صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ بهذا النهج منذ وقت مبكر وذلك حينما كان بمكة بعد عودته من العراق حيث استغل تجمع المسلمين فيها، فأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن

(1) انظر: دولة المرابطين ص (106)

(2) انظر: وفيات الأعيان (49،50/5)

المنكر حتى ناله شيء من الأذى بسبب ذلك (1).

ويبدو أن ابن تومرت كان يهدف من وراء اظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى تحقيق غرضين: الأول منهما هو لفت انظار الناس إليه من البلاد التي مر بها حتى يعد من المصلحين، أما الثاني فهو تكوين بعض الخلايا السرية في تلك البلاد من الأفراد الذين يعجبون بمنهجه، وذلك ليكونوا دعاة إلى أفكاره ومبادئه، وقد نجح في ذلك حيث يذكر البيهقي أنه كان لابن تومرت بمصر واحد وخمسون رجلاً من أهلها "وكانوا له مثل أعضائه وجسده سامعين لقوله مجيبين لأمره مؤمنين به. ولما تبين حالهم بذلك اختار لهم الإقامة هناك..." (2).

ان ابن تومرت لما وصل إلى بلاد المغرب انتقل من الجانب التطويري في دعوته، الى الجانب العملي حيث جد في تكوين قاعدة لدعوته، وكانت وسيلته المعلنة في ذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حلقات للتدريس ينشر من خلالها افكاره ليستقطب بعد ذلك من يتقبلها من تلاميذه.

ويبدو أن جرأة ابن تومرت في الكلام، وتظاهره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب كونه يتوجه في دعوته إلى التجمعات الشعبية العامة كانت من العوامل القوية لنجاح دعوته في هذه المرحلة (3) حيث يذكر تلميذه البيذق، أنه ما أن حل ببلاد المغرب الأدنى حتى كثر حوله المؤيدون والأنصار، فاختر بعضهم ممن يتوسم فيهم القبول المطلق لدعوته ومخايل

(1) انظر: وفيات الأعيان (46/5)

(2) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (549)

(3) انظر: الدعوة الموحدية بالمغرب عبدالله علام ص (85)

الذكاء والنجابة، وتوجه بهم إلى بلاد المغرب الأقصى.

كانت هذه الخطوة الأولى التي نهجها ابن تومرت لنشر دعوته، ومن خلال تتبعنا لهذه الخطوة ندرك أن ابن تومرت قد نهج عدد من السبل حتى يظهر دعوته للناس، ويجمع حوله المؤيدين والأنصار ومن هذه السبل مايلي:

أ- أنه تدرج في اظهار دعوته، كما البسها الصبغة الاصلاحية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ب- أنه خاطب بها الجهال والسذج من الناس الذين لا يدركون حقيقة ما فيها من انحراف عن منهج أهل السنة والجماعة، حيث توجه بها إلى قوم صيام عن جميع العلوم كما يقول المراكشي (1).

ج- أنه كان يباليغ في انكار المنكر على الحكام الذي يمر بديارهم كما فعل مع العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد صاحب بجاية(2)، ومع علي بن يوسف بن تاشفين زعيم دولة المرابطين وذلك لكي يكسب بهذه الجرأة مكانة عند الناس.

د- مما يلحظ على ابن تومرت أثناء هذه المرحلة من دعوته أنه بالرغم من تظاهره بالتقى والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه كان لايتورع عن الكذب حتى أثناء قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يذكر البيذق أنه كان إذا خشي بطشاً وهو يأمر بالمعروف خلط في كلامه حتى ينسب إلى الجنون(3) وهذا النهج منهج كثير من الفرق الباطنية حيث

(1) المعجب ص (270)

(2) ابن خلدون (227/6)

(3) اخبار المهدي بن تومرت ص 22

يلجأون إلى الكذب وإلى العبارات الموهمة حتى لا تتكشف حقائقهم(1).

يقول ابن العماد: (جره اقدمه وجرأته على حب الرياسة والظهور وارتكاب المحذور ودعوى الكذب والزور

من أنه حسني وهو هرغي بربري وانه معصوم وهو بالاجماع مخضوم...)(2).

2- وكانت الخطوة الثانية التي نهجها ابن تومرت في بداية دعوته، أنه جدّ في تكوين قاعدة قوية مؤمنة بالمبادئ التي يدعو إليها، حيث أعد أفرادها اعداداً خاصاً، وذلك لكي يكونوا قاعدة شعبية لدعوته ثم لدولته، وقد بدأ بهذا النهج منذ مستهل دعوته حيث تمكن من تكوين خلية في بلاد مصر قوامها واحد وخمسون رجلاً<sup>(3)</sup>، ولما انتقل إلى المغرب زاد من جهوده في هذا الميدان حيث انشأ حلقات للتدريس كان يبيث أفكاره من خلالها ولكي يؤصل تلك الأفكار في أذهان أتباعه ألف لهم كتاباً في العقيدة يتضمن الخطوط العريضة لأصول دعوته حيث طالبهم بحفظه<sup>(4)</sup>.

وإلى جانب اهتمامه بتكوين القاعدة الشعبية، فإنه كان يحتمي بشوكة بعض القبائل البربرية حتى يضمن لنفسه الأمان، ولدعوته الانتشار في ظل حماية تلك القبائل، فهو حينما وصل إلى بجاية بعد عودته من مصر خشى من بطش الحماديين فلجأ إلى قبيلة بنورياكل - إحدى قبائل صنهاجة - فأووه واجاروه ومنعوا الحماديين من النيل منه<sup>(5)</sup>، ولما انتقل إلى بلاد المغرب الأقصى وخاف

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (550)

(2) شذرات الذهب (70/4)

(3) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص 549

(4) ابن القطان نظم الجهات ص (46)

(5) ابن خلدون (227/6)

من سطوة المرابطين ذهب إلى بلاد هرغة حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة فاحتفى بشوكتيهما من المرابطين، كما توفر له عندهم الجو المناسب لمواصلة الدعوة.

هكذا تمكن ابن تومرت من تكوين قاعدة شعبية قوية لدعوته وقد كانت هذه القاعدة في غاية التلاحم والتفاهم مع القيادة مما أدى إلى اعجاب الناس بها ومن ثم تقبلهم لمبادئها<sup>(1)</sup>.

3- ومن الخطوات التي سلكها ابن تومرت تحديد موقفه من دولة المرابطين والتي كانت تبسط سلطانها السياسي على بلاد المغرب، وقد جاء عمله بهذه الخطوة اذا ما قورن بالخطوتين السابقتين، وذلك لأن ابن تومرت لم يرد أن يحدد موقفه من دولة المرابطين، إلا بعد أن يشيع بين الناس ذكره، ويكون قاعدة شعبية يتكى عليها في ساعات الخطر، فلما أطمأن إلى وجود هذه القاعدة، وإلى أنه لم يصبح نكرة عند كثير من الناس، أعلن رأيه في دولة المرابطين، متخذاً الأمر بالمعروف سِتاراً لتحقيق غايته وطريقاً لاطهار مفاصد دولة المرابطين فبدأ بالطعن في عقيدة المرابطين ووصفهم بالتجسيم والكفر والنفاق كما قال لاتباعه بأن غزوه

ومقاومتهم أوجب من حرب النصارى والمجوس (2).

وعندما أدرك ابن تومرت المخاطر التي تهدده من قبل المرابطين، لاسيما أن دعوته قد وصلت إلى مرحلة الظهور والجهر بالأهداف، فقرر الانتقال إلى بلاد السوس مسقط رأسه حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة سنة 515هـ \_\_\_\_\_

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (551)

(2) البيهقي: أخبار المهدي بن تومرت ص (9)

وذلك لضمان الحماية اللازمة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث التفت حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختر منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين (1).

وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث التف حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختر منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته حيث شرع في تدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة، وكان يؤصل في نفوس أتباعه موقفه من دولة المرابطين من خلال تلك الحلقات والدروس وبهذا استطاع أن يوجد حاجزاً نفسياً قوياً بين كثير من تلاميذه ودولة المرابطين، وهذا بلا شك مما يساعد على تهيئة كثير من الموحدين للتصدي للمرابطين، ومقاومتهم وهو ما كان يهدف إليه ابن تومرت.

ولما شعر ابن تومرت بقبول دعوته في أوساط الهرغيين اراد توسيع نفوذه على القبائل المجاورة، فانتدب مجموعة من تلاميذه لدعوتهم وأوصاهم باتباع أسلوب اللين والمداراة مع من سيدعونه، لأن أسلوب العنف الذي كان مجدياً في الحواضر الكبرى أمثال: فاس، ومراكش، والمهدية، لايجدي عند القبائل ذات الأنفة وعزة النفس، والتي لا تبالي بمقابلة العنف بالعنف، فهم بحاجة لمداراة ورفق لكسبهم وهذه الخطوة تدل على دهاء ومقدرة ابن تومرت الذي كان خبيراً بطبائع الجماعات التي يبيت بينها دعوته، فكان يتخذ لكل فئة أسلوباً مناسباً لها، لعلمه أن الأمزجة والعادات تختلف باختلاف البيئات وهذا لايفطن اليه إلا من أوتي حظاً وافراً من

الفطنة والدهاء ونجح دعاة ابن تومرت في \_\_\_\_\_

(1) انظر: ابن خلدون (228/6)

تشويق الكثير من أفراد القبائل للرحيل الى ابن تومرت عن طريق وصفهم لأخلاقه وسجاياه فكان ينتلقهم ابن تومرت ويضمهم الى صفوفه (1).

ورسخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل بأن الفساد والظلم والجور، لاتزال الا بالمهدي لذا فالإيمان به واجب، ومن يشك فيه فهو كافر، وأن هذا الوقت وقته وأنه سيفتح المشرق والمغرب، ويملاً الأرض عدلاً كما

ملئت جوراً<sup>(2)</sup>.

ولما اقتنع ابن تومرت بأن جهوده قد أثمرت، وأن نفوس أتباعه قد تشربت بفكرة المهديّة، قرر أن يعلن بأنه هو المهدي المنتظر. فبعد أن جمع أصحابه قام فيهم خطيباً موضحاً لهم أن جميع صفات المهدي متوفرة فيه، فبادر إليه العشرة الملازمين له فبايعوه على الوقوف بجانبه في العسر واليسر، وتتابع بعد ذلك عليه البربر مبايعين على نصرته وبذل مهجتهم دونه ولما كملت بيعته لقبوه المهدي القائم بأمر الله، وكان قبل ذلك يلقب بالإمام<sup>(3)</sup> وكان تاريخ هذه البيعة على الراجح في جبل ايجليز<sup>(4)</sup> في عام 518هـ/1124م وهو العام الذي انتقل فيه إلى تينمل، لأنه لا يعقل أن يعلن مهديته الكاذبة فور وصوله إلى ايجليز بل الأمر كان يحتاج إلى وقت، وهذا ما حدث فعلاً إذ استمر يروج هو ودعاته لهذه الفكرة فلما تقبلها القوم أعلن مهديته الزائفة.

لقد كان على مقدرة عظيمة من القدرة على التخطيط وكانت خطواته محكمة نحو تأسيس قواعد دولة الموحدين وساعده على نجاحه ما كان يتسم به كثير

(1) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (109)

(2) انظر: الكامل لابن الأثير (562/6)

(3) ابن خلدون (228/6)

(4) انظر: دولة المرابطين ص (111)

من أفراد القبائل البربرية من سذاجة وجهالة، فضلاً عما كان يتمتع به ابن تومرت من ذكاء، وعلم وقدرة فائقة على التنظيم والتأثير<sup>(1)</sup>.

لقد ركب الحرام، فسفك الدماء، وهتك الأعراض، وغصب الأموال من أجل أهدافه المنحرفة وكان من شعره الذي يردده على أصحابه قبل خروجه بالمغرب:

إلي وفي النفس أشياء مخبأة

لألبس لها درعاً وجلباباً

كيما اطهر دين الله من دنس

وأوجب الفضل للسادات ايجاباً (2)

تالله لو ظفرت كفي بمطلبها

ماكنت عن ضرب اعناق الورى آبي (3)

إن ابن تومرت بعد مبايعته بالمهديّة نظم جبهته الداخلية بعناية فائقة، فقسم أتباعه إلى طبقات حسب أسبقيتهم إلى بيعته، وسمي الأتباع بشكل عام بالموحدين تعريضاً بالمرابطين واتهمهم بالتجسيم وهم براء منه

وبعد ان فرغ من تثبيت ركائزه اللازمة لدولته المستقبلية رأى أنه من غير المناسب بقاءه في جبل ايجليز لقربه من العاصمة المرابطية فانقل الى تينمل<sup>(4)</sup> في قلب جبال الأطلسي الكبير عام 518هـ/1124م واتخذه قاعدة لدولته الناشئة، وقد بقي فيها حتى وفاته عام 524هـ/1129م<sup>(5)</sup>.

---

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (554)

(2) انظر: الذهبي (سير أعلام النبلاء (552/19))

(3) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (111)

(4) نفس المصدر السابق ص (112)

(5) نفس المصدر ص (112)

## المبحث الرابع

### الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت

إن الأسس الفكرية والعقدية لحركة ابن تومرت بعيدة عن الإسلام الصحيح ولا تتفق مع منهج أهل السنة والجماعة الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن أظهر الانحرافات الفكرية في دعوة ابن تومرت:

أولاً: أنه ادعى المهديّة وقال بأنه هو المهدي الذي وعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بخروجه في آخر الزمان، حيث قال في خطبته حين مبايعته اماماً للموحدين سنة 515هـ: (الحمد لله الفعل لما يريد القاضي بما يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور مكانه بالمغرب الأقصى واسمه اسم النبي ونسبه نسب النبي...<sup>(1)</sup>). ولم يكتف ابن تومرت بهذا الاجراء بل انه أكد لهم هذا الاتجاه الفكري في مؤلفاته التي طالب اتباعه بحفظها، والعمل بما جاء بها، ومما جاء بها عن قضية المهدي قوله: (ان العدل ارتفع، وان الجور عم وان الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا، وان الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا، وان الدجالين استولوا على الدنيا، وان الباطل لا يرفعه إلا المهدي، وان الحق لا يقوم إلا بالمهدي، وأن المهدي معلوم في العرب، والعجم، والبدو والحضر، وان العلم به ثابت في كل مكان وفي كل أوان وأن...<sup>(2)</sup>).

(1) نظم الجمان لابن القطان ص (75)

(2) انظر: اعز ما يطلب لابن تومرت ص (257)

وبعد أن قرر ابن تومرت مبدأ ظهور المهدي، عدد صفاته بقوله: (انه فرد زمانه صادق في قوله، وأنه يملأها بالعدل - يعني الأرض - ثم ذكر بعد ذلك المهام التي سيقوم بها المهدي حيث بينها بقوله: "وأنه يعني المهدي - معصوم فيما دعا إليه من الحق لاجوز عليها الخطأ وأنه لا يكابر، ولا يضاد، ولا يدافع ولا يعاند، ولا يخالف ولا ينازع... وأنه صادق في قوله، وأنه يقطع الجبابة والدجاجلة، وانه يفتح الدنيا شرقها وغربها، وأنه يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور...") (1).

هكذا كان رأي ابن تومرت في المهدي، كما يصور ذلك تراثه الفكري، ويلاحظ هنا كيف تجرأ ابن تومرت فكذب على الله ورسوله حينما حدد مكان ظهور المهدي بالمغرب الأقصى مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لم تشر إلى ذلك.

إن الأحاديث الصحيحة بينت أنه يخرج في آخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً كما ملئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتُخرج الأرض نباتها، وتُمطر السماء مطرها، ويُعطي المال بغير عدد.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: "في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزرع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم والخير أيامه دائم" (2).

لقد بينت الأحاديث الصحيحة اسمه وصفته ومكان خروجه:

---

(1) ابن تومرت أعز ما يطلب ص (256، 257)

(2) النهاية، الفتن والملاحم (31/1) تحقيق د. طه زيني

#### أ- اسمه وصفته:

وهذا الرجل اسمه كأسم رسول الله صلى الله عليه وسلم -، وإسم أبيه، كأسم النبي - صلى الله عليه وسلم - فيكون اسمه محمد أو أحمد بن عبدالله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم من ولد الحسن بن علي رضي الله عنهم.

قال ابن كثير - رحمه الله في المهدي: "وهو محمد بن عبدالله العلوي الفاطمي الحسني رضي الله عنه" (1).

وصفته الواردة: "أنه أجلى الجبهة، أفتى الأنف" (2).

## ب- مكان خروجه:

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقتل عند كنزكم ثلاثة. كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم.. (ثم ذكر شيئاً لا احفظه فقال... ) فإذا رأيتموه، فبايعوه، ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي..."(3).

قال ابن كثير - رحمه الله -: (والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق "لا من سرداب سامراء" كما \_\_\_\_\_

(1) النهاية، الفتن والملاحم (29/1)

(2) الأجل: الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته

(3) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي (1367/2)

يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان لا من كتاب، ولا من سنة، ولا معقول صحيح ولا استحسان.. إلى أن قال "ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سود "أيضاً" وهو زيّ عليه الوقار " لأن راية رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت سوداء يقال لها : العقاب" إلى أن قال: (والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث...)(1).

2- وذكر الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإماكم منكم؟!)(2).

3- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تزال طائفة من أمتي يقاثلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة" إلى أن قال: (فينزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، فيقول أميرهم، تعال صلّ بنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمه الله هذه الأمة"(3).

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين:

(1) النهاية الفتن والملاحم (31/1)

(2) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الانبياء، نزول عيسى، (491/6) مع الفتح

(3) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى (193/2)

أحدهما: أنه عند نزول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح هذا الأمير وهُداه.

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمّى: محمد بن عبدالله، ويقال له المهدي، والسنة يفسر بعضها بعضاً.

1- فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (منا الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه)(1).

2- وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صل بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة)(2).

3- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المهدي منّي أجلي الجبهة، أفنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين.."(3).

ولقد تكلم العلماء في احاديث المهدي وقالوا:

1- قال الشوكاني: (الأحاديث في تواتر ماجاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها

خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف \_\_\_\_\_

(1) رواه أبو نعيم في "اخبار المهدي" صححه الالباني صحيح الجامع الصغير (7170/5)

(2) المنار المنيف لابن القيم ص (147-148)

(3) سنن أبي داود، كتاب المهدي (375/11) رقم 4265

والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرفة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً لها حكم الرفع وإذ لاجمال للاجتهاد في مثل ذلك..(1).

2- وقال صديق حسن خان: (الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ حد التواتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام ومن المعاجم والمسانيد)(2).

3- وقال الشيخ محمد جعفر الكتاني: (والحاصل ان الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال وفي نزول سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام)(3).

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسنن الأربعة، والمسانيد، مسند أحمد، مسند البزار، ومسند أبي يعلى، ومسند الحارث بن أبي أسامة، ومستدرک الحاكم، ومصنف بن أبي شيبة، وصحيح بن خزيمة، وغيرها من المصنفات<sup>(4)</sup> التي ذكرت فيها أحاديث المهدي فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه. ومما يؤسف له أن طائفة من الكتاب من أمثال الشيخ الكريم محمد رشيد رضا في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت \_\_\_\_\_

(1) التوضيح في تواتر ماجاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح

(2) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ص (112)

(3) نظم المتناثر في الحديث المتواتر ص (147)

(4) انظر: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ص (168/166)

كتب أهل السنة<sup>(1)</sup> وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب "دائرة معارف القرن العشرين"<sup>(2)</sup> محمد فريد وجدي وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام.

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التضعيف والتصحيح، ومع هذا فقد قال بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها: "فهذه جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي - كما رأيت - لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو القليل أو الأقل منه"<sup>(3)</sup>.

قال يوسف الوابل في اشراط الساعة تعليقاً على قول ابن خلدون: ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة"<sup>(4)</sup>.

قال الشيخ احمد شاکر رداً على ابن خلدون: (إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين "الجرح مقدم على التعديل ولو اطلع على اقوالهم وفقهها، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ وعرف ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره"<sup>(5)</sup> ثم بين أن ماكتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العدل، واعتذر عنه \_\_\_\_\_

(1) تفسير المنار (499/9 - 504)

(2) دائرة معارف القرن العشرين (480/10)

(3) مقدمة ابن خلدون (574/1)

(4) اشراط الساعة للوابل ص (267)

(5) تعليق أحمد شاکر علی مسند الإمام أحمد (197/5 - 198)

بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد رحمهم الله ليس صواباً وإنما الحجة في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة تواتراً معنوياً وهذا يكفي وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الاسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبية، فهذا صحيح ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه فإذا عين إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ماجاء من الأحاديث الصحيحة فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث ثم إن المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله.

وأيضاً، فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لأعتدّ به، والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمده يُردّ بها ما ثبت من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(1)</sup>.

(1) انظر: اشراط الساعة ص (267)

قال العلامة ابن القيم في كلامه عن المهدي: "وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع، وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يُحسّ فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يامولانا! اخرج يامولانا! ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد احسن من قال:

ما آن للسرداب أن تلد الذي  
كلمتموه بجهلكم ما أنا؟

فعلى عقولكم العفاء فإنكم

تلتئم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل... (1).  
وبذلك يتضح لطالب الحق حقيقة المهدي المنتظر ويعرف الميزان الصحيح لكل من يدعى المهديّة.  
إن ابن تومرت في دعواه بأنه المهدي المنتظر انحرف عن المنهج الإسلامي الصحيح.  
لقد جعل ابن تومرت من المهديّة عقيدة الزم بها اتباعه واطاف إلى هذا المعتقد الذي ادّعاها لنفسه امر  
العصمة حيث قال عن نفسه: بأنه المهدي \_\_\_\_\_

(1) انظر: المنار المنيف ص (152 - 153)

المعصوم، ثم أشاع ذلك بين اتباعه حتى أصبحوا يطلقون عليه لفظ المعصوم، دون حرج أو تردد، وقد أكد  
هذا الأمر في مؤلفاته التي انتشرت بينهم إذ جاء فيها: "ويجب أن يكون الإمام معصوماً من الباطل ليهدم  
الباطل، كما يجب أن يكون معصوماً من الضلال.. ولا بد أن يكون الإمام معصوماً من هذه الفتن وأن يكون  
معصوماً من الجور لأن الجائر لايهدم الجور بل يثبتته... وأن يكون معصوماً من الكذب لأن الكذب لايهدم  
الكذب بل يثبتته، وأن يكون معصوماً من الباطل.. ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولي الأمر وهو  
الإمام المعصوم من الباطل والظلم" (1).

كما قال بعصمة الامام من الزلل والفساد حيث قال: "لايقوم بحقوق الله إلا العدل الرضا المعصوم من  
الفساد" (2) وهكذا نرى كيف أن القول بالعصمة للأئمة أصبحت اتجاهاً قوياً من اتجاهات دعوة ابن تومرت  
الفكرية، وقد تمكن من تأصيل هذا الأمر عند اتباعه حتى اطلقوا عليه لقب المعصوم، وأصبح هذا اللقب من  
أشهر القاب ابن تومرت لدرجة أنهم كانوا يطلقونه عليه دون ذكر لاسمه بسبب اشتهاه به (3).

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في اظهار هذا الأمر في بادئ أمره، فبدأ أولاً بالتلميح لهم، ثم صرح  
بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروي في ذلك أحاديث كثيرة ولم يتورع عن الكذب في دعواه  
انها تتمثل فيه، لقد سلك مع اتباعه مسلك التدرج فأقنعهم بنسبه العربي الهاشمي ثم بالمهديّة ثم

(1) انظر: اعز ما يطلب ص (245 - 246)

(2) اعز ما يطلب ص (246)

والعصمة عند أهل السنة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء والرسول - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله من شرع ولم يقولوا بها لسواهم حتى لكبار الصحابة الذين خصهم الله بالفضل كأبي بكر، وعمر، وعثمان وعلي وغيرهم<sup>(1)</sup>.

إن ابن تومرت بهذا النهج يكون وافق الرافضة الاثنى عشرية الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم حيث يقولون بوجود عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان<sup>(2)</sup> كما قالوا: إن الامام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة الى الموت عمداً وسهواً، كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان<sup>(3)</sup> وهكذا نرى كيف غالى ابن تومرت في القول بالعصمة لنفسه، وهذا بلا شك انحراف عقدي خطير "لأن من جعل بعد الرسول معصوماً يجب الإيمان بكل مايقوله فقد أعطاه معنى النبوة وأن لم يعطه لفظها"<sup>(4)</sup> بل لم يكتف بهذا الأمر حيث كان يأمر بقتل كل من يشك في عصمته. ولكي يؤصل هذا الادعاء الكاذب عند اتباعه ألف لهم كتاب أعز ما يطلب<sup>(5)</sup> وأمرهم بقراءته بل حفظه، وهذا بلاشك مما أصل فكر ابن تومرت ومحبته في نفوس أصحابه.

(1) انظر: النبوة الانبياء للصابوني ص (55-56)

(2) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (1/195)

(3) انظر: عقائد الإمامية محمد رضا ظافر ص (72)

(4) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص (560)

(5) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود (ص 560)

ولقد أخطأ الدكتور عبدالمجيد النجار عندما قال (وما قال به - أي محمد بن تومرت - من عصمة الامام يخالف أيضاً العصمة عند الشيعة، بل هو أقرب إلى أن يكون صيغة مبالغاً فيها للشروط التي يشترطها أهل السنة في الإمام<sup>(1)</sup>) ولقد ذكرت شروط أهل السنة في الإمامة في الكتاب الثاني من (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الافريقي).

إن عقيدة العصمة والمهدية التي غرسها ابن تومرت في اصحابه سهلت له القضاء على خصومه ودفع قبائل المصامدة ومن حالفها إلى مقاتلة المرابطين.

ثانياً: لقد تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة حيث قال ببعض آرائهم كقوله: حيث سمى مرتكب الكبيرة

بالفاسق ولم يسمه بالمؤمن أو الكافر، وهذا قريب من مذهب المعتزلة (2).

كما وافقهم في نفي الصفات عن الله - سبحانه - حيث قال حينما تحدث عن صفات الله: "واشتغلوا بتعليم التوحيد فانه اساس دينكم، حتى تتفوا عن الخالق التشبيه، والشريك، والنقائص، والآفاق، والحدود والجهات، ولا تجعلوه سبحانه في مكان ولا في جهة فانه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقاً ومن جعله مخلوقاً فهو كعابد وثن" (3) لقد تبني ابن تومرت مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات حيث نفي كل ما عساه أن يوهم الشبه والمثلية لله سبحانه حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة، ولهذا سمي \_\_\_\_\_

(1) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت ص (127)

(2) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (548/19)

(3) انظر: أعز ما يطلب ص (204)

أصحابه بالموحدين (1)، لانهم في رأيه هم الذين يوحدون الله لنفهم الصفات عن الله سبحانه وتعالى كما كان يسمى أتباعه بالمؤمنين ويقول لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم" (2).

كما نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله - سبحانه وتعالى - حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد، كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمّن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل، حيث كان " ... جُل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية... " (3) أما المقرئ فيرى أن ابن تومرت تعلم المذهب الأشعري أثناء وجوده في بلاد العراق، فلما عاد إلى بلاد المغرب، وأخذ بتعليم أصحابه علمهم المذهب الأشعري فكان ذلك سبباً في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب (4).

إن ابن تومرت من كبار الدعاة إلى المذهب الأشعري بل أخذ منهم أكثر المسائل إلا أنه في اثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها (5).

لقد وظّف ابن تومرت المدارس الكلامية في العقائد لخدمة أهدافه السياسية \_\_\_\_\_

(1) انظر: عقد بيعة بولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مجلد 12 سنة 1950

ص 49 حسين مؤنس .

(2) انظر: المراكشي المعجب ص (276)

(3) نفس المصدر ص (276)

(4) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (564)

(5) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (39)

ولذلك نجده يهاجم المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة واتهمهم بالتجسيم والكفر لانهم في زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية على ذات الله.

واستطاع ابن تومرت عن طريق هذا المنفذ، أن يظهر المرابطين كمجسمة كفار في أعين رعيته، مما دفع الكثيرين من هذه الرعية لأن تنفض يدها منهم وتبتعد عنهم، كما أنه اتهم من يخضع لهم ويدين بالطاعة لهم بموافقتهم على الكفر، ومن ثم يحل للموحدين قتاله ومعاملته معاملة الكافر كما وأن هذا المبدأ جعل الموحدون يؤمنون بأنهم يعملون على نشر مبدأ حق ويكافحون الكفر وطواغيته، وأن معتقدتهم يبيح لهم دماء أعدائهم وأموالهم، وأن الموت في سبيل الله ذلك شهادة ترفع شهيدهم إلى جنان الله الخالدة. فاجتمعت للموحدين قوتان دافعتان، هما الروح المعنوية العالية والدافع المادي. فانطلقوا كالأعصار يحطمون أعدائهم وينشرون مبادئهم<sup>(1)</sup>.

إن الدكتور عبدالمجيد النجار في كتابه تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت والذي نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي والذي قدم له الدكتور طه العلواني يثني على المنهج العقدي لابن تومرت ويلمز من طرف خفي منهج المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة حيث يقول: (وفي المجال العقدي حققت دعوة المهدي الهدف المرسوم، حيث ألق أهل المغرب عن الفهم الذي كان يعتمد إمرار النصوص على ظواهرها، واعتنقوا فهماً جديداً يقوم على تأويل تلك النصوص بما يحقق التنزيه الكامل لله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك وجدت الأشعرية طريقها إلى السيطرة المطلقة \_\_\_\_\_

(1) انظر: سقوط دولة الموحدون ص (39،40)

على المغرب منذ قيام الدولة الموحدية بسبب موافقته التقرير العقدي لابن تومرت في أغلبه للمذهب الأشعري، وقد قامت رسائله المبسطة الموجزة في العقيدة وخاصة رسالة المرشدة بالدور الكبير في ذلك حيث أصبحت مقرأً للحفظ والدراسة في كثير من مناطق المغرب على مر الأيام<sup>(1)</sup>.

لقد استعمل الموحدون القوة في فرض عقائدهم المختلطة على الشمال الافريقي واقتدوا بالمعتزلة في زمن المأمون العباسي في فرضهم على الناس عقائدهم تحت شعار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد سئل ابن تيمية عن المرشده كيف كان اصلها وتأليفها؟ وهل تجوز قراءتها أم لا؟

فقال: (الحمد لله رب العالمين. أصل هذه: انه وضعها ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن تومرت: الذي لقب بالمهدي، وكان قد ظهر في المغرب في اوائل المائة الخامسة من نحو مائتي سنة، وكان قد دخل إلى بلاد العراق، وتعلم طرفاً من العلم. وكان فيه طرف من الزهد والعبادة.

ولما رجع الى المغرب صعد الى جبال المغرب، إلى قوم من البربر وغيرهم: جهالا لايعرفون من دين

الإسلام إلا ماشاء فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام واستجاز ان يظهر لهم أنواعاً من المخاريف، ليدعوهم بها الى الدين، فصار يجئ الى المقابر يدفن بها أقواماً ويواطئهم على ان يكلموه اذا دعاهم، ويشهدوا له بما طلبه منهم، مثل ان يشهدوا له بأنه المهدي، الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يواطئ اسمه اسمه، واسم ابيه وانه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً \_\_\_\_\_  
(1) تجربة الاصلاح عند بن تومرت ص (138)

وظلماً. وان من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر، ونحو ذلك من الكلام. فاذا اعتقد اولئك البربر ان الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك، عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره.

ثم أن اولئك المغمورين يهدم عليهم القبور ليموتوا، ولا يظهروا امره، واعتقد ان دماء اولئك مباحة بدون هذا، وانه يجوز له اظهار هذا الباطل ليقوم اولئك الجهال بنصره واتباعه. وقد ذكر عنه أهل المغرب واهل المشرق الذين ذكروا اخباره من هذه الحكايات انواعاً وهي مشهورة عند من يعرف حاله عنه... (1). واستحل دماء الوف مؤلفة من اهل المغرب المالكية، الذين كانوا من اهل الكتاب والسنة على مذهب مالك واهل المدينة. يقرؤون القرآن والحديث: كالصحيحين، والموطأ وغير ذلك والفقهاء على مذهب اهل المدينة فزعم انهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولا يعرف عن احد من اصحاب مالك القول بالتشبيه والتجسيم.

واستحل أيضاً اموالهم وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه من جنس ماكانت تستحلها الجهمية المعطلة - كالفلاسفة والمعتزلة وسائر نفاة الصفات - من أهل السنة والجماعة...

ومذهب السلف وأتمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فلا ينفون عن الله ما أثبتته لنفسه، ولا يمثّلون صفاته بصفات خلقه، بل يعلمون أن الله ليس كمثله شيء. لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في افعاله فكما أن ذاته لاتشبه الذوات، فصفاته لاتشبه الصفات.

(1) انظر: الفتاوى (477/11).

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه باثبات مفصل، ونفي مجمل، واعداء الرسل: الجهمية الفلاسفة ونحوهم ووصفوه بنفي مفصل واثبات مجمل. فان الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بأنه: بكل شيء عليم وانه على كل شيء قدير وانه حي قيوم، وانه عزيز حكيم، وانه غفور رحيم، وانه سميع بصير. وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين وانه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وانه رضى عن المؤمنين ورضوا عنه، وانه

يغضب على الكفار ويلعنهم، وأنه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه. وأنه كلم موسى تكليماً، وإن القرآن نزل به الروح الأمين من الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. كما قال: "نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين" وقال تعالى: [وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة].

وقد ثبت في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى ناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكوه: فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار، قال فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة" وقد استفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح أنه قال: "انكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لاتضامون في رؤيته" و "ان الناس قالوا: يارسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضامون في رؤية الشمس صحواً ليس دونها حجاب؟ قالوا: لا. قال: فانكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر" فشبه صلى الله عليه وسلم الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي فإن العباد لا يحيطون بالله علماً، ولا تدرکه ابصارهم. كما قال تعالى: [لاتدرکه الأبصار وهو يدرك الأبصار].

وقد قال غير واحد: من السلف والعلماء إن "الادراك" هو الاحاطة فالعباد يرون الله تعالى عياناً ولا يحيطون به. فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله.

وقال تعالى في النفي: [ليس كمثله شيء] [فلا تجعلوا لله أنداداً] [هل تعلم له سمياً] [ولم يكن له كفواً أحد] فيبين في هذه الآيات أن الله لا كفو له، ولا ند له، ولا مثل له ولا سمي له، فمن قال: إن علم الله كعلمي، أو قدرته كقدرتي أو كلامه مثل كلامي، أو ارادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضائي وغضبي، أو استواءه على العرش كاستوائي، أو نزوله كنزولي، أو اتيانه كأتياني، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه. تعالى الله عما يقولون، وهو ضال خبيث مبطل بل كافر.

ومن قال: إن الله ليس له علم، ولا قدرة ولا كلام، ولا مشيئة، ولا سمع ولا بصر، ولا محبة ولا رضى، ولا غضب، ولا استواء ولا اتيان ولا نزل فقد عطل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وألحد في أسماء الله وآياته وهو ضال خبيث مبطل بل كافر، بل مذهب الأئمة والسلف اثبات الصفات ونفي التشبيه بالمخلوقات اثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، كما قال نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيهاً.

ومما يبين ذلك. ان الله تعالى اخبرنا ان في الجنة ماءً ولبناً وخمراً وعسلاً ولحمأً وفاكهةً وحريراً وذهباً وفضةً وغير ذلك. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فإذا كانت المخلوقات في الجنة توافق المخلوقات في الدنيا في الاسماء، والحقائق ليست مثل الحقائق، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق اذا وافقه في الاسم؟!

والله تعالى قد اخبر انه سميع بصير. واخبر عن الإنسان انه سميع بصير، وليس هذا مثل هذا، واخبر انه حي، وعن بعض عبادته انه حي، وليس هذا مثل هذا. وأخبر انه رؤوف رحيم، واخبر عن نبيه أنه رؤوف رحيم، وليس هذا مثل هذا. واخبر انه عليم حلیم، واخبر عن بعض عبادته بأنه عليم حلیم، وليس هذا مثل هذا. وسمى نفسه الملك، وسمى بعض عبادته الملك، وليس هذا مثل هذا. وهذا كثير في الكتاب والسنة، فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي واحمد وغيرهم. على هذا إثبات بلا تشبيه وتثنيه بلا تعطيل لايقولون بقول أهل التعطيل، نفاة الصفات، ولايقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوق، فهذه طريقة الرسل ومن آمن بهم وأما المخالفون للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من المتفلسفة وأشباههم - فيصفون الرب تعالى "بالصفات السلبية" ليس كذا، ليس كذا، ولا يصفونه بشيء من صفات الاثبات، بل بالسلب الذي يوصف به المعدوم فيبقى مذكروه مطابقاً للمعدوم، فلا يبقى فرق بين مايبثونه وبين المعدوم وهم يقولون: إنه موجود ليس بمعدوم، فيناقفون يثبتونه من وجه، ولايجحدونه من وجه آخر. ويقولون: إنه وجود مطلق، لا يتميز بصفة.

وقد علم الناس ان المطلق لا يكون موجوداً، فانه ليس في الأمور الموجودة ما هو مطلق لايتعين، ولا يتميز عن غيره، وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه، فيقدر امراً مطلقاً، وان كان لاحقيقة له في الخارج، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لايجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجوداً مباحيناً لخلقهم، بل إما أن يجعلوه مطلقاً في ذهن الناس، او يجعلوه حالاً في المخلوقات، أو يقولون هو وجود المخلوقات ومعلوم أن الله كان قبل ان يخلق المخلوقات، وخلقها فلم يدخل فيها، فليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولافي ذاته شيء من مخلوقاته، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم - الذين امتحنوا المسلمين، كما تقدم - كانوا على هذا الضلال، فلما أظهر الله تعالى أهل السنة والجماعة، ونصرهم. بقي هذا النفي في نفوس كثير من اتباعهم، فصاروا يظهرن تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية، وتارة مع الجهمية الاتحادية وتارة يوافقونهم على انه وجود مطلق، ولايزيدون على ذلك.

وصاحب المرشدة كانت هذه عقيدته كما صرح بذلك في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك ذكر فيه

ان الله تعالى وجود مطلق، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم.  
ولهذا لم يذكر في "مرشدته" الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث  
والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من اتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية  
والحنبلية، وأهل الكلام! من الكلايبية والأشعرية والكرامية وغيرهم، ومشائخ التصوف والزهد، وعلماء أهل  
الحديث فان هؤلاء كلهم متفقون على ان الله تعالى حي عالم بعلم، قادر بقدرة. كما قال تعالى: [ولا يحيطون  
بشيء من علمه إلا بما شاء] وقال تعالى: [ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء] وقال تعالى: [لكن  
الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه] . [ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة].

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما  
يعلمهم السورة من القرآن يقول: "إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة. ثم ليقل: اللهم إني  
استخبرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك واسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا اعلم، وأنت علام  
الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة امري،  
فأقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وان كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة امري  
فاصرفه عني واصرفني عنه. واقدر لي الخير حيث كان. ثم ارضني به" .

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على ان الله تعالى يرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله.  
فصاحب "المرشدة" لم يذكر فيها شيئاً من الاثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة، ولاذكر فيها  
الايمان برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا باليوم الآخر وما اخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من امر  
الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاععة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر. فإن  
هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة. ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد  
المختصرة. بل اقتصر فيها على ما يوافق اصله وهو القول بأن الله وجود مطلق، وهو قول المتفلسفة والجهمية  
والشيعة ونحوهم ممن اتفقت طوائف اهل السنة والجماعة. أهل المذاهب الأربعة وغيرهم على ابطال قوله.  
فذكر فيها ماتقوله نفاة الصفات. ولم يذكر فيها صفة واحدة لله تعالى ثبوتية، وزعم في اولها انه قد وجب  
على كل مكلف ان يعلم ذلك، وقد اتفقت الأئمة على ان الواجب على المسلمين ما اوجبه الله ورسوله وليس  
لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجبه الله ورسوله والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله فيجب  
التصديق به، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا احد من السلف والأئمة فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم  
يوجب الله قوله عليهم. وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقا، لكن لا يجب على كل الناس ان يقولوها، وليس له

ان يوجب على الناس ان يقولوها فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً؟

وماذكره من النفي يتضمن حقاً وباطلاً، فالحق يجب اتباعه والباطل يجب اجتنابه، وقد بسطنا الكلام<sup>(1)</sup> على ذلك في كتاب كبير وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين، فإن هذا مما انكره المسلمون إذ جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم موحدون، ولا يخلد في النار من أهل التوحيد احد و (التوحيد) هو ما بينه الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. كقوله تعالى: [ قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً احد ] وهذه السورة تعدل ثلث القرآن. وقوله: [ قل يا أيها الكافرون. لا اعبد ما تعبدون ولا انتم عابدون ما اعبد لكم دينكم ولي دين ] وقال تعالى: [ فاعلم انه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ] وقال تعالى: [ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون ].

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيداً فمن قال ان القرآن كلام الله وليس بمخلوق. أو قال: ان الله يرى في الآخرة او قال: "استخيرك بعلمك. واستقدرك بقدرتك" لم يكن موحداً عندهم، بل يسمونه مشبهاً مجسماً، وصاحب "المرشدة" لقب اصحابه موحدين، اتباعا لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيداً ما أنزل الله به من سلطان، وألحدوا في التوحيد الذي انزل الله به القرآن.

وقال أيضاً في قدرة الله تعالى: انه قادر على ما يشاء وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلي الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون: انه لا يقدر على غير ما فعل، ومذهب المسلمين أن الله على كل شيء قدير. سواء شاءه او لم

(1) الذي بسط الكلام العلامة ابن تيمية

يشأه. كما قال تعالى: [ قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم. ومن تحت ارجلكم أو يلبسكم شيعاً ].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم "انه لما نزل قوله تعالى: [ قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم ] قال اعوذ بوجهك [ او من تحت ارجلكم ] قال: اعوذ بوجهك [ او يلبسكم شيعاً ] ويذيق بعضكم بأس بعض ] قال: هاتان اهون.

قالوا فهو يقدر الله عليهما وهو لا يشاء ان يفعلهما، بل قد أجاز الله هذه الأمة على لسان نبيها ان لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيحتاجهم، او يهلكهم بسنة عامة. وقد قال تعالى: [ أبحسب الإنسان ان لن نجوع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه ] فالله قادر على ذلك، وهو لا يشأه، وقال تعالى: [ ولو شئنا لآتينا

كل نفس هداها.. [ وقال تعالى: [ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة] فالله قادر على ذلك، فلو شاءه لفعله بقدرته، وهو لا يشاؤه وقد شرحنا ما ذكره فيها كلمة كلمة وبيننا ما فيها من صواب وخطأ ولفظ مجمل في كتاب آخر.

فالعالم الذي يعلم حقائق ما فيها ويعرف ما جاء به الكتاب والسنة لا يضره ذلك، فانه يعطي كل ذي حق حقه، ولا حاجة لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها الى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك، او يوقع الناس في خلاف ذلك، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده، بل عليه ان يتبع ولا يبتدع، ويقتدى ولا يبتدي، فان الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً. وقال له: [قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني] وقال تعالى: [اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً] والنبى صلى الله عليه وسلم علم المسلمين ما يحتاجون إليه في دينهم.

فياخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والاجماع باطل، ولكن فيه الفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلاً، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة، فإن الله تعالى قال: [وانزلنا إليك الكتاب تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين]<sup>(1)</sup> وهذا رد علمي رصين على المرشده التي وضعها ابن تومرت لأصحابه تبين للقارئ فساد بن تومرت في منهج العقائد وبعده عن القرآن والسنة واعتماده لمنهج المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة وكان رد العلامة بن تيمية مليئاً بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الدامغة كيف لا وهو ينهل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وطريق السلف الصالح إن فحول علماء الكلام وأئمة هذه المناهج من أمثال أبي الحسن الأشعري (330 هـ) ، (وأبي حامد الغزالي (505 هـ) والفخر الرازي (606 هـ) ، وإمام الح

رمين (478ت هـ) رجعوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة في آخر حياتهم ونبذوا علم الكلام وراء ظهورهم.

أ- أبو الحسن الأشعري: وهذا العالم الجليل ترك منهج الاعتزال وشرع في الرد على باطله يقول في كتابه الإبانة: (فإن قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة \_\_\_\_\_  
(1) انظر: الفتاوى (476/11 الى 491)

والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون، قيل له قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عزوجل وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نصر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته نحن قائلون، ولما خالف قوله مجانبون<sup>(1)</sup>.

**ب- إمام الحرمين الجويني:** (لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمة...)<sup>(2)</sup>.

**ج- الإمام الغزالي:** (إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وماركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية، وترتيب المقدمات كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن، ومنبع التشويش، ومن لا يقنعه أدلة القرآن، لا يقمعه إلا السيف والسنان فما بعد بيان الله ببيان)<sup>(3)</sup>.

**د- وإما الفخر الرازي** فقد قال في وصيته: (ولقد اختبرت الطرق الكلامية،

(1) الإبانة لأبي الحسن الأشعري ص (17)

(2) انظر: الحموية لابن تيمية ص (7)

(3) إجماع العوام عن علم الكلام ص (89 ، 90)

والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع في التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات... فلماذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجود وجوده، ووحدته وبراعته عن الشركاء في القدم والأزلية، والتدبير والفعالية، فذاك هو الذي أقول به وألقى الله تعالى به.. والذي لم يكن كذلك أقول ديني متابعة محمد سيد المرسلين...)<sup>(1)</sup>.

وقد أملى الرازي في هذه المرحلة من حياته، والتي أحس فيها بالندم والتوبة:

نهاية إقدام العقول عقال

وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسمنا

وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستقد من بحثنا طول عمرنا

سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا(2)

كذلك قال:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها

وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر

على ذقن أو قارعاً سن نادماً(3)

(1) انظر: عن القائد لتصحيح العقائد ص (74)

(2) انظر: إيثار الحق على الخلق ص (8)

(3) المصدر السابق نفسه.

إن ابن تومرت استخدم في حربه ضد المرابطين أساليب متعددة منها رميهم ظلماً وزوراً بالتجسيم وجعل عقائد مختلطة من الاعتزال والأشاعرة، والرافضة أساساً لعقيدة دولة الموحدين الجديدة، وأصبح فيما بعد من اعلام مدرسة الأشاعرة لسببين:

1- لأنه هو الذي فتح الباب في بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامي، ولم يقتصر الأمر على هذا بل تبنى - بصفته إماماً مطاعاً - هذا الجانب فكان لسلطته الدور الأكبر في انحسار مذهب أهل السنة، وفتشوا مذاهب المتكلمين.

2- تأليفه للمرشده، وقد تكلمنا عنها وهي مستقاة من مذهب الأشاعرة، ولم يقتصر الأمر على هذا بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس، بحيث تدرس للعوام، مما جعلها تشتهر بسرعة. وفيما عدا ذلك فإن تومرت يبدوا أقرب ما يكون إلى مذهب المعتزلة، ومذهب الشيعة وقد كان أحد اتباعه لما كتب تاريخ ابن تومرت لاسميه إلا الإمام المعصوم، وليس قربه من هؤلاء بأقل قربة من الأشاعرة بل أخذ شيئاً من الخوارج لاسميا في التساهل في الدماء ومقاومة السلطان الجائر حتى جعله ضرباً من الجهاد في سبيل الله، كما أخذ برأيهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها، وقد أدرك هذا التأثير علماء المرابطين كما يذكر ابن الخطيب(1).

إن دعوة ابن تومرت قد تأثرت بآراء كثير من الفرق والمذاهب فهي ليست أشعرية بحتة، وليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها، وليست خارجية كما ظنها علماء المرابطين، وهي أيضاً ليست رافضية في

كل اتجاهاتها، بل \_\_\_\_\_

(1) انظر: الدعوة الموحدية لعبدالله علام ص (151)

هي مزيج مضطرب من أغلب الفرق والمذاهب الإسلامية ولهذا فإنه يبدو من المقبول أن يطلق عليها العقيدة التومرتية، وذلك لتميزها عن كل المذاهب السابقة بمنهج مستقل<sup>(1)</sup>.

ومما لا شك فيه أن الخليط التومرتي في الأفكار والعقائد كان له أثره بعد ذلك على بلاد المغرب، وخصوصاً بعد أن أصبح لهذه الأفكار كيان سياسي يحميها وأصبح له نفوذه على معظم بلاد المغرب. وقد تحدث المؤرخ المغربي السلوي عن هذا الأمر بقوله: "... وأما حالهم - يعني أهل المغرب - في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولاً والرافضية ثانياً أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف - رضي الله عنهم - في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر ... واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة"<sup>(2)</sup>.

لقد اشتط ابن تومرت وانحرف عن المنهج الصحيح من أجل تحقيق اهدافه ولذلك نجده كفر من لم يؤمن بما يقول، ويعتق ما يدعو إليه، واستباح دمه حتى ولو كان من أتباعه كما قال بكفر دولة المرابطين ووجوب جهادها، ولتأصيل هذا المبدأ في نفوس أصحابه فقد صرح به في أكثر من مناسبة، كما ضمنه كتبه التي ألفها لهم، ورسائله التي كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا، حيث جاء في إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا "... على اهلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم، \_\_\_\_\_

(1) الدعوة الموحدية بالمغرب لعبدالله علام ص (151)

(2) السلوي (126/1 - 127)

وسفك دماءهم واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وأخذ أموال اليتامى والأرامل..."<sup>(1)</sup>.

ويذكر المراكشي أنه لما توجه جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة 517 هـ أوصى أفراد ذلك الجيش بقوله: "اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين فادعوهم إلى أماتة المنكر واحياء المعروف وإزالة البدع والاضرار بالإمام المهدي المعصوم، فان اجابوكم فهم اخوانكم، وان لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم..."<sup>(2)</sup>.

وبالإضافة إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التي قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين، فإن القارئ لكتاب أعز ما يطلب يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات والدعاوي الباطلة ضدهم، بل انه قد أفرد

فصلاً خاصة منه لهذا الغرض (3).

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم فأخذوا بالتصدي لها حيث بينوا للناس كذب تلك التهم التي الصقها بهم ابن تومرت، وأنها مخالفة للحقيقة، ولكن هذا العمل لم يثن ابن تومرت عن حربه الدعاية بل انه كثف جهوده في هذا الميدان، ومما جاء في احدى رسائله التي وجهها لهذا الغرض "واعلموا وفقكم - يعني أتباعه - ان المجسمين والمكابرين وكل من نسب إلى العلم، أشد في الصد عن سبيل الله من ابليس اللعين فلا تلتفوا إلى ما يقولونه فإنه كذب وبهتان واقتراء على الله ورسوله".

(1) أعز ما يطلب ص (26)

(2) المعجب ص (282)

(3) من هذه الفصول على سبيل المثال (باب في بيان طوائف المثلثين والمجسمين)

كان هذا هو توجيه ابن تومرت لأتباعه في حملته الاعلامية الكاذبة ضد دولة المرابطين السنية التي أقامت كيائها على مذهب أهل السنة والجماعة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله على هدى من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقد طعن في عقيدتهم ووصفهم بأنهم مجسمون وكفار لاتجوز طاعتهم، ولا الولاء لهم، بل يجب جهادهم، ولهذا قاتل الموحدون المرابطين، قاتل المسلمين للكفار حسب اعتقادهم، وما ذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نحى في حربه للمرابطين منحى فكريا عقديا غالى فيه حتى أصبح العداء للمرابطين اتجاها فكريا واضحا عند ابن تومرت وأتباعه المخلصين لدعوته. ومما لاشك فيه أن هذا الاتجاه الذي حدده ابن تومرت من دولة المرابطين، قد أثر على معنوياتها، ثم على كيائها السياسي وذلك لأن كثيراً من الناس قد تبنوه، ومن ثم انبروا للعمل على حرب هذه الدولة، والسعي الى اسقاطها لتقوم دولة ابن تومرت على انقاضها(1).

وتساهل ابن تومرت في اراقة الدماء دونما مسوغ شرعي، حيث كان لا يتردد في ذلك، حينما يرى أنه يخدم دعوته، أو يحقق شيئاً من مطامحه مهما كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض، وقد تأصل هذا العمل عند ابن تومرت حيث البسه لباساً دينياً حتى أصبح اتجاهاً دعويّاً واضحاً في دعوته، ومن نماذج عمله في هذا الميدان ما ذكره ابن القطان - أحد تلاميذ بن تومرت - أنه كان يعظ تلاميذه وانصاره في كل وقت "... ومن لم يحظر أدب فان تمادى قتل، وكل من لم يحفظ حزيه عزز بالسياط، وكل من لم يتأدب بما أدب به ضرب بالسوط بالمرّة والمرتين فان ظهر منه عناد وترك امتثال الأوامر قتل

(1) انظر: الدعوة الموحدية بالمغرب ص (181)

ومن داهن.. قتل".

كما ذكر كل من البيدق<sup>(1)</sup> وابن القطان<sup>(2)</sup>، وغيرهما من المؤرخين<sup>(3)</sup> أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمى بعملية التمييز لأتباعه حيث يقتل كل من يشك في ولائه لدعوته، وقد ذكر لنا البيدق وصفاً لعملية التمييز التي قام بها ابن تومرت قبل موقعة البحيرة سنة 524هـ حيث قال: "فأمر بالميز فكان البشير<sup>(4)</sup> يخرج بالمخالفين المنافيين والخبثاء من الموحدين، حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عياناً، وازداد الذين آمنوا إيماناً وذاق الظالمون النار، فظنوا مواقعوها، ومالهم عنها من محيص... فمات يومئذ من الناس خمس قبائل..."<sup>(5)</sup>.

وكانت مخادعة ابن تومرت للناس في قضية التمييز بإتفاق مع الونشريسي حيث طلب منه بن تومرت أن يخفي علمه وحفظه للقرآن ويظهر امام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه.

قال الذهبي: (فلما كان عام تسعة عشر وخمس مئة، خرج يوماً فقال: تعلمون أن البشير - يريد الونشريسي - رجل أُمي، ولا يثبت على دابة، فقد جعله الله مبشراً لكم، مطلعاً على أسراركم، وهو آية لكم، قد حفظ القرآن، وتعلم الركوب، وقال: اقرأ، فقرأ الختمة في أربعة أيام، وركب حصاناً وساقه، فبهتوا، وعدوها آية لغباوتهم، فقام خطيباً، وتلا: [ليميز الله الخبيث من \_\_\_\_\_

(1) انظر: اخبار المهدي (تحقيق عبدالحميد حاجيان ص 71-72)

(2) نظم الجمان ص (102-104)

(3) كآبن الاثير ، وابن خلدون، وابن العماد، والسلاوي

(4) هو ابو عبدالله بن محسن الونشريسي

(5) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (568)

الطيب]، وتلا: [منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون]، فهذا البشير مطلع على الأنفس، مُلهمم، ونبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: (إنّ في هذه الأمة محدثين، وإنّ عمر منهم)<sup>(1)</sup> وقد صحبنا أقوام أطلعهم الله على سرهم، ولأبدٍ من النظر في أمرهم، وتيمم العدل فيهم، ثم نودي في جبال المصامدة: من كان مطيعاً للإمام، فليأت، فأقبلوا يُهْرَعُونَ، فكانوا يُعرضون على البشير، فيُخرج قوماً على يمينه ويعدّهم من أهل الجنة، وقوماً على يساره، فيقول هؤلاء شاكون في الأمر، وكان يوتى بالرجل منهم، فيقول: هذا تائب رُدُّه على اليمين تاب البارحة، فيعترف بما قال، واتفقت له فيهم عجائب، حتى كان يُطلق أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل، فلا يفرُّ منهم أحد، وإذا تجمع منهم عدة، قتلهم قراباتهم حتى يقتل الأخ أخاه...<sup>(2)</sup>.

قال شعيب الأرنؤوط في استدلال ابن تومرت بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنّ في هذه الأمة

محدثين، وإن عمر منهم) في الونشريسي بأنه ملهم: (واستشهاد ابن تومرت بالحديث في غير محله، وهو دال على سوء طوبيته، وجرأته على الله ورسوله، فإن البشير الونشريسي قد باع نفسه من الشيطان، وصار يستلهم منه الحيل الماكرة، والأساليب الخبيثة لإضلال الناس وإفسادهم إرضاءً لسيدة ابن تومرت الذي اتخذه مطية لأطماعه، وتحصيل مرامه، فهو من أبعد الناس عن منزلة التحديث الجليلة التي اختص بها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه...)(3).

---

(1) البخاري (42/7) رقم 3689

(2) سير أعلام النبلاء (546/19)

(3) الذهبي سير أعلام النبلاء (546/19)

ويبدو أن الذي دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التمييز هو تراجع عدد كبير من الداخلين في دعوته عنها، وذلك بسبب ماتحملة من غلو وشطط، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في اخلاصهم خشية أن يقوى رد الفعل المضاد لدعوته<sup>(1)</sup> ولما حل ابن تومرت تينمل، أوأه أهلها وأعلنوا طاعتهم له، لكنهم كانوا كثيري العدد وافري العدة، وفي منعة بسبب حصانة مدينتهم، فأمرهم ابن تومرت بأن يحضروا إلى المسجد بغير سلاح فلما فعلوا ذلك عدة مرات أمر بعض أتباعه المقربين أن يقتلوهم ففعلوا، ثم دخلوا المدينة وقتلوا منها عدداً كبيراً من الرجال حتى بلغ عدد الذين قتلوا بهذه الحادثة خمسة عشر ألف رجل<sup>(2)</sup> ولكي لاتحدث هذه الأعمال رد فعل عند اتباعه، أو تلقى معارضة عند الناس، فإنه كان يظهر بشيء من الخوارق والمعجزات حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية مايقوم، ويدعو إليه، فقد ذكر المؤرخون انه كان يتواطأ مع بعض أصحابه على أن يدفنهم في المقابر وهم أحياء حيث يترك لهم مكاناً للتنفس، ويأمرهم بأن يكلموه إذا دعاهم، وليشهدوا له بما يطلبه منهم كأن يشهدوا بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنه هو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وأن من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر، وحينما يسمع أتباعه أن الموتى يكلمونه، ويشهدون له بصحة مايدعوا إليه ويعظم اعتقادهم فيه، وتتأكد طاعتهم له، أما أولئك المقبورون فإنه بعد أن ينهوا المهمة التي من أجلها قبوروا يستبيح دمائهم حيث يهدم عليهم قبورهم حتى يموتوا لكي لايفشوا سره بعد ذلك<sup>(3)</sup>.

---

(1) انظر: الدعوة الموحدية لعبدالله علام ص (191،192)

(2) انظر: الكامل في التاريخ لابن الاثير (563/6)

(3) انظر: الفتاوى (477/11)

هذه صورة وأمثلة للأعمال التي قام بها ابن تومرت واستحل بها دماء الناس المعصومة بغير حقها، حتى ولو كانوا من أنصاره أو المقرين اليه، ولاشك أن هذا العمل يعد في نظر الإسلام كبيرة من كبائر الذنوب حتى ولو كان المقتول شخصاً واحداً، فكيف يجوز لابن تومرت أن يقدم على هذه الأعمال المتنافية مع الشرع الحنيف وهو يحسب نفسه داعية إلى الله بل مهدياً معصوماً؟! (1).

وإني لأستغرب من الدكتور عبدالمجيد النجار في تسمية كتابه "تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت" وكان الأولى به أن يسميها تجربة الإفساد والتدمير في حركة المهدي بن تومرت ومن العجب أن المعهد العالمي للفكر الإسلامي جعل كتاب الدكتور عبدالمجيد النجار من ضمن سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير وهذا يدل على غياب المنهج الصحيح لتقويم أعمال القادة والدول والشعوب والحركات.

---

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (569) لقد استفدت من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس في مبحث الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت .

## المبحث الخامس

### المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت

#### أولاً: المنهج التربوي:

جعل ابن تومرت منهجية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً في دعوته، ولذلك اجتهد في محاربة المنكرات التي انتشرت بين عوام الناس بكل ما يملك من قوة ووجه سهامه نحو الفقهاء والعلماء للتقليل من

هبيتهم، واضعافهم ليتسنى له أن ينشر عقيدته المختلطة، ويوصل مايريد من الأحكام والأقوال على النهج الذي يخدم اهدافه ولذلك نجده عندما استقر في منطقة السوس ينهج وجهتين رئيسيتين:

### 1- التربية العقيدية الروحية:

استغل بن تومرت جعل اتباعه من البدو والأميين الذين لا يستطيعون أن يفهموا الشريعة من اصولها المعتمدة وكتب لهم شيئاً في العقائد والعبادات بعضها باللسان البربري وبنى مكاناً للعبادة ولتعليم الطلبة على منهجه الذي رسمه وتربيتهم عليه.

قال ابن خلدون: (فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة، وبنى رابطة للعبادة، فاجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري)<sup>(1)</sup>.

وألزم أتباعه بحفظ شيء من القرآن والحديث النبوي وتعلم المرشدة \_\_\_\_\_  
(1) ابن خلدون (227،228/6)

واستيعاب حقائق التوحيد بمذهب علم الكلام، وتحقيق احكام العبادة وكان يوزع اصحابه في حلقات كل عشرة يكون مسؤولاً عليهم أحد الطلبة النابهين، ونهج منهج الشدة في التعليم والتربية واحداث أحكاماً تبلغ إلى الضرب بالسياط لمن يظهر منه التهاون في حضور الأوقات أو في حفظ ما يطلب منه حفظه<sup>(1)</sup>.

وكان هذا المنهج يسود جميع أفراد المجتمع الجديد أما من برز في العلم من أصحابه فالف لهم كتباً ورسائل خاصة وهي كتب ورسائل خصص معظمها للاستدلال العقلي على العقيدة التي جمعها من مذاهب شتى وفرق عدة.

واهتم بالجانب الروحي واعتمد في تربيته لأصحابه على التزهد في متاع الدنيا، والترغيب في الآخرة، والإعداد للجهاد في سبيل الله طلباً للشهادة، ومما خاطب به أتباعه في ذلك قوله: "ولاتنازعو ولا تغتروا بالدنيا فإنها وكل من عليها فان واحذروا من مكرها وتقلب احوالها.. وتزودوا منها إلى دار الآخرة واستعدوا منها بالعمل الصالح تفوزوا بذلك عند الله فوزاً عظيماً..."<sup>(2)</sup>.

### 2- التربية الاجتماعية:

وبعد أن حرص على بناء الأفراد علمياً وروحياً شرع في بناء المجتمع الجديد على أسس من التعاون والتناصر والتآخي وجعل أهل جبال أطلس في تينمل الانصار ومن جاءهم من غيرهم المهاجرين وقعد قواعد في هذا المجتمع للتآخي والتعاون وإغاثة المظلوم، واحترام الممتلكات، حمل عليها الكافة ووضع تعازير قاسية

لعقاب من يتعدّاهما وربط المجتمع الجديد بوشائج القرى بين —————

(1) انظر: نظم الجمان لابن القطان ص (26٠27)

(2) ابن تومرت: رسالة إلى الموحدين ص (9) نقلا عن كتاب عبدالمجيد النجار ص (116)

القبائل المختلفة بطريق المؤاخاة بينها أو بطريق المصاهرة المتبادلة وخاطب قيادة مجتمعه الجديد بقوله: (مافي الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة الذين عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "لايزال أهل المغرب ظاهرين"<sup>(1)</sup>) وأنتم تفتحون الروم وتقتلون الدجال، ومنكم الذي يؤمُّ بعيسى، وحدّثهم بجزئيات انفق وقوع أكثرها، فعظمت فتنة القوم به..<sup>(2)</sup> .

ويصف الأمير عزيز في كتابه (أخبار القيروان) المجتمع الموحدى (لهم تودّد وأدب وبشاشة، ويلبسون الثياب القصيرة الرخيصة ولايخلون يوماً من طرادٍ ومثاقفة ونضال...)<sup>(3)</sup>.

ويصف بن خلکان محمد بن تومرت فيقول: (قبره بالجبل معظم، مات كهلاً، وكان أسمر ربعةً، عظيم الهامة، حديد النظر مهيباً، وآثاره تغني عن أخباره، قدم في الثرى، وهامة في الثريا، ونفسُ ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا، أغفل المرابطون ربطه وحلّه، حتى دبّ دبيب الفلق في الغسق، وكان قوته من غزل أخته رغيفاً بزيت، أو قليل سمن، لم ينتقل عن ذلك حين كثرت عليه الدنيا، رأى أصحابه يوماً، وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ماغنموه، فأمر بإحراق جميعه، وقال: من أراد الدنيا، فهذا له عندي، ومن كان يبغى الآخرة، فجزاؤه عند الله، وكان يتمثل كثيراً:

تجرد من الدنيا فإنك إنما

خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد (4)

---

(1) انظر: فتح الباري (295/13) الطبعة السلفية

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (549/19)

(3) الذهبي سير أعلام النبلاء (549/19)

(4) وفيات الأعيان (54/5)

### ثانياً: المنهج السياسي:

حرص بن تومرت بعد رجوعه أن يسلك طريق النصح والإرشاد والوعظ، ولذلك اتصل بالامراء وولات الأمر في المدن والعواصم يعظهم ويرشدهم ويبين لهم مواقع الانحراف والفساد ويحمّلهم المسؤولية في ذلك، ويحثهم على القيام بالأمر الواجب من محاربة المنكر ونشر المعروف وتوجّ أمره بنصح أمير المسلمين علي بن يوسف ونبيه إلى انتشار المنكرات ووعظه وأغلظ له القول وقال له (إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة

ولست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها، غير أنني أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك، فإنك المسئول عنه، وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة، وقد ظهرت بمملكته المنكرات، وفشت البدع، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها إذ لك القدرة على ذلك وأنت المأخوذ به والمسئول عنه<sup>(1)</sup>. وبعد أن غادر مراكش بمدة يسيرة بادر بأن "خلع مبايعة علي بن يوسف من أعناق تابعيه وأصحابه، وأعلن الجميع بخلعه"<sup>(2)</sup> وانتهج ابن تومرت سياسة واضحة المعالم للقضاء على النظام القائم وبناء نظام جديد وكانت خطته تسير في سبل ثلاثة، حملة نقدية للمرابطين، وإقامة تنظيم سياسي، وتعبئة نفسية للأنصار:

### 1- الحملة النقدية ضد المرابطين:

جعل ابن تومرت من أهدافه شن هجوم على حكام المرابطين، ومحاولاً فسخ ولاء القبائل للمرابطين فسحاً نهائياً وترسيخ ولائهم له: "فكل من اطاعهم

(1) تاريخ الدولتين للزركشي ص (121)

(2) نظم الجمان لابن القطان ص (29)

في معصية الله وأعانهم على ظلمهم في سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم، وكل من أعانهم من القبائل فادعوهم إلى التوبة والانابة والرجوع إلى الكتاب والسنة وترك معونة المجسمين والمرتدين والمعتدين، فإن قبلوا منكم ورجعوا إلى السنة وأعانوهم على جهاد الكفرة فخلوا سبيلهم وهم إخوانكم في دين الله وسنة رسوله، وإن عاندوا الحق وأصروا على معونة أهل الباطل والفساد فاقتلوهم حيث وجدتموهم"<sup>(1)</sup> وشن حرباً نفسية على حكام وامراء واتباع المرابطين في رسالته إليهم "إلى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمان، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية لمتونة، أما بعد قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم، ولزوم طاعته، وإن الدنيا مخلوقة للفناء والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن ادبتموها كنتم في عافية، وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم، ونكدر دياركم، ويرجع العامر خالياً، والجديد بالياً، وكتبنا هذا إليكم إذاراً وإنذاراً، وقد أعذر من أنذر، والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضى"<sup>(2)</sup>.

وهكذا شرع بن تومرت في توجيه حملة نقدية إلى دولة المرابطين ووسع نطاقها واستهدف بها كافة الناس من اهل المغرب مواليين او معادين وحاول أن يعزل الحكام عن عامة الناس بفضح سياستهم، وتضخيم أخطائهم، تنفيراً للنفوس منهم وتمهيداً لنزع ولائهم ثم لمعاداتهم وإمعاناً منه في تهجينهم وتشويه صورتهم اخترع الألقاب المشينة ورماهم بها كا (المجسمون) و (الزراجنة) تشبيهاً لهم بطائر أسود البطن أبيض الريش

يسمى الزرجان لأنهم بيض الثياب \_\_\_\_\_

(1) رسالة إلى الاتباع لابن تومرت ص2.

(2) رسالة لابن تومرت ضمن الحل الموشية لابن الخط

سود القلوب، و (الحشم) لاتخاذهم اللثام كما يتخذ الحشم<sup>(1)</sup>.

## 2- التنظيم السياسي:

وضع ابن تومرت لدولته الجديدة تشكياً سياسياً بحيث يضم وينظم ويرتب جميع افراد الدولة حتى يضمن ويعمق ولائهم للدعوة ويمكن مراقبتهم والاشراف عليهم ولذلك نظم ابن تومرت أتباعه في طبقات متباينة في عددها، مختلفة في واجباتها الملقاة على عاتقها. وقد بلغت طبقات الموحديين التي صنفوا بموجبها أربع عشرة طبقة. كانت الطبقات الثلاثة الأولى، أهم هذه الطبقات، من حيث انتماء أكبر رجال الموحديين إليها، من مشائخ القبائل وزعماء المصامدة وكبار الشخصيات، الذين تتوفر لهم الكفاءات العقلية والقدرات العسكرية، وكانت أهم واجبات هذه الطبقات هي معالجة أمور الموحديين وتسيير دفة الحكم. أما الطبقات الأخرى فكانت واجباتها عسكرية وعلمية ودينية<sup>(2)</sup>. وقد جعل الدكتور عبدالمجيد النجار هذه الطبقات في أربعة أجهزة أساسية وبين مهماتها التي انيطت بعهدتها:

الجهاز الأول: جهاز سياسي، ويشتمل على المجالس الثلاثة المتقدمة الذكر: مجلس العشرة، ومجلس الخمسين، ومجلس السبعين.

الجهاز الثاني: جهاز علمي ثقافي، ويشتمل على طبقة الطلبة، وهم الذين بلغوا درجة مرموقة من العلم، وطبقة الحفاظ وهم صغار الطلبة.

الجهاز الثالث: جهاز عسكري، ويشتمل على طبقة الجند وطبقة الرماة \_\_\_\_\_

(1) انظر: نظم الجمان لابن القطان ص (85)

(2) انظر: سقوط دولة الموحديين ص (40)

والغزاة.

والجهاز الرابع: جهاز شعبي، يضم مجموعة من القبائل وهي: هرغة، وأهل تينمل، وجدميوه، وجنفيسة، وهنناتة، وأهل القبائل<sup>(1)</sup> قال ابن الخطيب: (لكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لا في سفر ولا في حضر، لا ينزل كل صنف إلا في موضعه لا يتعداه، فانضبط مراده<sup>(2)</sup>).

لقد عالجت هذه الأجهزة المشاكل المطروحة على الجماعة الجديدة معالجة تقوم على التخصص ضماناً

للمزيد من النجاح واجتئابا للعفوية والفوضى، وقد كانت المهام الكبرى المطروحة على هذه الجماعة مهام ثلاثة: مهمة سياسية تتعلق برسم المسار السياسي للجماعة الناشئة، وهي التي تكفل بها الجهاز الأول. ومهمة تربوية تتعلق بنشر المبادئ العقيدية التي قامت عليها الدعوة، وهي التي تكفل بها الجهاز الثاني، ومهمة دفاعية تتعلق بحماية الجماعة والعمل على نموها وامتدادها وهي التي تكفل بها الجهاز الثالث. أما الجهاز الرابع فيبدو أنه وضع لحصص الأتباع وإحكام ارتباطهم، وربما قام بمهمة دفاعية أو دعائية، فيكون بدور مانسميه بالمنظمات الشعبية المرتبطة بالدولة. وقد لخص ابن الخطيب هذه الأدوار والمهام المتكاملة في قوله: "أهل الجماعة للتفاوض والمشورة.. وأهل خمسين وسبعين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي، وسائر القبائل لمداغة العدو"(3).

لقد كانت الآفاق السياسية واضحة المعالم في فكر محمد بن تومرت ولذلك \_\_\_\_\_

(1) انظر: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت ص (120 ، 121)

(2) الحلل الموشية لابن الخطيب ص (80)

(3) نفس المصدر ..... ص (122)

أسس بديلاً سياسياً اجتماعياً تربوياً ليحل محل النظام السياسي والاجتماعي والتربوي في دولة المرابطين(1). لقد اظهر ابن تومرت في منهجه السياسي ملكة تنظيمية كبرى، وقبض بيد من حديد على انصاره، فأعطى مجلس العشرة سلطاناً كبيراً وحكمهم في الناس، وجعل مجلس الخمسين كلهم رؤساء القبائل، وسيطر بواسطتهم على القبائل، وجعل الجميع عيوناً له بعضهم على بعض، يوافونه بكل صغيرة او كبيرة مما يقع حوله أو يصلهم من أبناء مما جعل ابن تومرت مطلعاً على أمور مجتمعه الجديد وأصبح مطاعاً ومرهوباً في جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء حقاً، وتخاف منه خوفاً شديداً...)(2).

### 3- تعبئة الأنصار:

كانت مهمة بن تومرت صعبة جداً حيث أنه استهدف دولة عرفت بجهادها في الصحراء الكبرى وفي اسبانيا وكان لها الفضل بعد الله في توحيد المغرب الأقصى مع الأندلس واشتهر حكامها بالصلاح والعدل والجهاد وحب الخير لعموم الأمة ولذلك حرص على تعبئة انصاره واقناعهم أنهم على درب الحق، وأن خصمهم على درب الباطل واعتمد في تعبئته لأنصاره على:

أ- غرس الثقة في نفوسهم وبأنهم على الحق:

ولذلك خاطبهم بقوله: (ماعلى وجه الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم

(1) انظر: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت ص (122)

(2) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس ص (181)

العصاة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: لاتزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم، ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم، ولا يزال الأمير فيكم إلى قيام الساعة... (1).

وحرص بن تومرت على رد كل ما يوقع في نفوس أصحابه من الوهن من طعون المرابطين الموجهة إلى هذه الدعوة التي أصبحوا من أنصارها، فكان لا يكل ولا يمل في تنفيذ كل ماوجه المرابطون من حملة مضادة ضد دعوته البدعية وقاد بن تومرت حملة دعائية مضادة، ومن ذلك ماخاطب به أصحابه قائلاً: "واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكّارين وكل من نسب إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين، فلا تلتفتوا إلى مايقولونه، فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله، ومانسبوكم إليه من الخلاف لله والرسول فذلك خب وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله... فانتهبوا وفقكم الله لهذه الحيل التي يحتالون بها على عيشتهم وديناهم حتى حملهم ذلك على الافتراء على الله ورسوله حتى عكسوا الحقائق وقلبوا الكلام عن مواضعه. ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد واتباع السنة إلى الخلاف وسموه مخالفاً ببغيتهم.. (2).

لقد استطاع بن تومرت أن يقنع اتباعه وانصاره بأنهم الطائفة المنصورة والتي تقيم أمر الله وتجاهد في سبيله وشحن بذلك النفوس، واقنع العقول، وأخذ خطوة أخرى لتعزيز مكانته وبسط هيمنته على اتباعه وزعم بأنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم.

(1) المعجب للمراكشي ص (256 ، 257)

(2) رسالة إلى الاتباع ص (4) وأيضاً الرسالة المنظمة ص (108)

### ب- الثقة بالإمام:

وسلك مسالك متعددة من أجل اقناع أصحابه واتباعه بأنه المهدي المعصوم، فحرص على الظهور بمظهر الاستقامة والتدين والإخلاص، فزهّد في متاع الدنيا من مأكلاً وملبساً ومسكناً، ثم جعل ثقة انصاره به ذات اتجاه عقدي بحيث تمنع نفوس الاتباع من الضعف والتراجع امام أوامره وتوجيهاته، فأقنعهم بأنه الإمام المنتظر والمهدي المعصوم وبأن نسبه يرجع ضارب في اعماقه في آل البيت المطهر، وبذلك استطاع بهذه التعاليم المتعلّقة بالإمامة أن يرشح ثقة اتباعه به، وأن يضمن ولائهم الدائم، وطاعتهم المطلقة (1) ، ولم ينسى

أن يحرك نفوس المصامدة للتطلع إلى انشاء دولة لهم، فهم معظم سكان المغرب الأقصى، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد، تمتد من شمال المغرب الأقصى الى جنوبه، ولاينقصها الا توحيد الصفوف والقيادة السليمة. واقنعهم بأنه القيادة المثلى لهذه القبائل(2).

#### 4- المنهج العسكري:

وبعد أن نظم صفوفه واحكم تنظيمه، اصد انذاره وتهديده إلى المرابطين: "قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أدبتموها كنتم في عافية، وإلا فاستعين بالله على قتلكم..."(3). وكانت هذه الخطوة تمهيداً منه نحو قتال المرابطين، وحرص

(1) تجربة الإصلاح في حركة بن تومرت ص (127)

(2) انظر: معالم في تاريخ المغرب د. حسين مؤنس ص (177)

(3) الحل لابن الخطيب ص (81)

على ترسيخ عقيدة الجهاد وحببه لجنوده، واقنعهم بأن جهاد المرابطين فرض عليهم، كما فرض علنا لصحابة جهاد الكفرة "فالدين الذي جاهدوا عليه هو الدين لا يحول ولا يزول، حتى ينفخ في الصور، والسنة التي قاتلوا عليها هي هذه لا تتبدل ولا تتغير حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. فجهاد الكفرة المثلثين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر لا عذر لأحد في تركه ولا حجة له عند الله، فإنهم سعوا في هدم الدين، وإماتة السنة"(1).

ولما بذل بن تومرت جهده في اعداد أصحابه اعداداً عقدياً جعل يعد العدة المادية، فجعل يجمع المقاتلين متخيراً الأقوياء الصادقين وتخلص من كل من شك فيه في صفوفه ومن أعالي جبال الأطلس واصل بن تومرت حملته الاعلامية التشويحية على المرابطين واصفاً إياهم بأقذع الأوصاف فاضطر الأمير علي بن يوسف أن يسلم الحسام لأخمد تلك الفتنة، فوجه إليه وزيره ينتان بن عمر على رأس جيش كبير للقضاء عليه إلا أن ذلك الجيش رجع بدون قتال واستغل بن تومرت ذلك وجعلها منة من الله عليهم وما فعله ينتان في حقيقته هروباً وخوفاً من لقاء الموحدين وتعاضم خطر بن تومرت واستمر علي بن يوسف في ارسال الحملات تلو الحملات لاستئصال شأفته ولكن جميعها كان مصيرها الفشل والهزيمة ومن هذه الحملات حملة أبي اسحاق ابراهيم الذي وجهه إليه على رأس جيش كبير ولكنه انهزم أمام بن تومرت دون قتال وتعقبته القوات الموحدية وقتلت أعداد كبيرة منهم وغنموا حملتهم. وقد اغتم أمير المسلمين لهزيمة جيشه، وبادر بإرسال حملة

أخرى بقيادة الأمير سير بن مزدلي اللمتوني الذي أضاف هو أيضاً هزيمة إلى سجل الهزائم —————  
(1) الرسالة المنظمة ص (105)

المرابطية على يد الموحدين<sup>(1)</sup>، وكان بن تومرت يبشر أصحابه بالغنائم والنصر قبل نشوب المعارك فيقول لهم: "انظروا إلى أعدائكم، واعلموا أن كل ماجأوا به من خيل وعدة، إنما هو هدية من الله تعالى لكم، على غريبتكم وفقركم، فأعطاكم وأغناكم"<sup>(2)</sup> وكان ينزل في المعارك بنفسه ويبدو أن بن تومرت لم تكن تعوزه الخبرة العسكرية، فقد تمرس بالقتال في الميدان وتعرض في كثير من الأحيان إلى السقوط في خضم المعركة، كما تعرض إلى جراحات السيوف وكثيراً ما كان يشير على عسكره بقواعد حربية ناجحة مثل سلوك المراقبي العالية، وحمل العدو على الصعود دون أن يهبط عسكره إلى الوطاء، والأمر باتخاذ الأبراج العالية للمراقبة. ولكي يكون بن تومرت وعسكره في منعة من مباغته الجيش المرابطي اتخذ عاصمة له مقراً منبعاً هو مدينة تينملل التي قال ابن الخطيب في وصف منعتها: "لا يعلم مدينة احصن منها، لا يدخلها الفارس إلا من شرقها، وهو الطريق إليها من مراكش، المصنوعة في نفس الجبل، تحت راكلها حافات وفوقه حافات، وفيها مواضع مصنوعة من الخشب، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد"<sup>(3)</sup>.

لقد كانت لتلك الانتصارات المتوالية التي حققها الموحدون أثرها الكبير في ذبوع عقيدة المهدي وظن كثير من الناس بأنه بن تومرت وبذلك كثر أتباعه، وعظم ثقته بنفسه وقوته، فأرسل الى علي بن يوسف أمير المسلمين رسالة كلها —————

(1) انظر دولة المرابطين تأليف سلامة محمد سلمان ص (113)

(2) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين د. حمدي عبدالمنعم ص (101)

(3) انظر: تجربة الإصلاح في حركة بن تومرت ص (129)

تهديد ووعيد، فيما يلي نصها: "من القائم بدين الله العامل بسنة رسول الله محمد بن عبدالله وفقه الله، إلى المغرور بدنياه علي بن يوسف، أما بعد فأنا ما وجدنا لأكثركم من عهد، وان وجدنا أكثركم لفاسقين، لم تخشوا عقوبة رب العالمين، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين، الذي غووا فأصبحوا نادمين، فتبعهم الناس اجمعين، فإذا هم أخسر الخاسرين، وقد أمرني الله بادحاض حجة الظالمين، ودعاء الناس الى اليقين، ونسأل من الله أجر المحسنين لاتغثروا فان المسلمين إليكم قادمون، لقتال من زاغ وجنف وكفر بنعمة الله، وقد جاء في التنزيل أنكم لستم بمؤمنين ولا تؤمنون بلا اله إلا الله، وانها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها، ومن أجل ذلك دماؤكم حلال ومالكم فيء وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام على من اتبع الهدى

وخشى الرحمن<sup>(1)</sup> لقد كانت هذه الرسالة بمثابة اعلان حرب بين الموحدين والمرابطين.

إن الذي يستوقف الباحث هو كثرة هزائم المرابطين على يد الموحدين على الرغم من أن قادة جيوش المرابطين كانوا من أفضل قادة الدولة، وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرابطية تصد أعتى وأقوى الجيوش النصرانية في الأندلس، وتعبث بين الفينة والفينة في أحواز طليطلة وتتجاوزها في بعض الأحيان نحو الشمال والشرق والغرب.

يبدو أن هناك عدة عوامل اسهمت في صنع هذه الهزائم، منها الاستراتيجية العسكرية التي اتبعتها ابن تومرت في قتاله مع المرابطين، وقد ساعدته وعورة \_\_\_\_\_

(1) اخبار المهدي بن تومرت للبيذق ص (11)

أرضه على عدم مواجهة أعداد كبيرة من جيوش المرابطين دفعة واحدة. كما أن الجيوش المهاجمة عادة تحتاج إلى وقت للتأقلم على ساحة المعركة الجديدة، بينما كان ابن تومرت واتباعه يقاتلون على أرض خبروها وعرفوا مسالكها، وهذا عامل مهم من عوامل نصر الجيوش، والأهم من ذلك أن اتباع ابن تومرت كانوا يقاتلون بمعنويات عالية بعد أن بايعوا ابن تومرت على أنه المهدي في الوقت الذي كانت فيه معنويات الجند المرابطي منهارة، فكانوا ينهزمون دون قتال لغلبة التردد عليهم وعدم وضوح الهدف فالجندي المرابطي كان في حيرة فهو يقاتل مسلمين من أبناء جلدته، وهو يسمع كل يوم بأن القبائل تتوافد على ابن تومرت وتبايعه، بعد ماشاعت الأخبار عما يتمتع به من علم وزهد وتقشف وانه هو المهدي. كل هذه الأمور كانت تجعل من الجندي المرابطي مضطرب النفس متردداً في إقدامه على قتال ابن تومرت ولذلك كان يفضل الفرار على الصدام<sup>(1)</sup>.

وزادت ثقة بن تومرت بنفسه بعد تحقيقه تلك الانتصارات، فبادر بإرسال رسالة إلى المرابطين يعرض عليهم الدخول في طاعته واما القتال مهدداً ومتوعداً من عدم الانقياد له، ومما جاء فيها: "الى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشردمة الطاغية للمتونية أما بعد: فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة فان اديتموها كنتم في عافية وإلا فنستعين بالله عليكم على قتالكم حتى نمحو آثاركم ونهدم دياركم، وحتى يرجع العامر خاليا \_\_\_\_\_

(1) انظر: دولة المرابطين ص (114)

والجديد باليا، وكتابنا هذا اليكم اعدار وانذار، وقد اعذر من أنذر والسلام عليكم سلام السنة لاسلام الرضى<sup>(1)</sup>.

وتعتبر هذه الرسالة مؤشراً على انتقال ابن تومرت من دور الدفاع الى دور الهجوم، وقد ارتكزت استراتيجية في هذه المرحلة على استنزاف قوى الدولة المرابطية باستخدام اسلوب حرب العصابات وتجنب الدخول معها في معارك فاصلة.

فأخذت جيوش ابن تومرت تروح وتغدو على محلات المرابطين القريبة من مقره مكبدة إياها خسائر فادحة.

وقبل أن يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالإقراض على المرابطين للاستيلاء على عاصمتهم مراكش أراد أن يظهر صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك في ولائهم له فأوعز في عام 519هـ/1125م لصديقه الحميم الونشريشي - الذي كان يظهر البلاهة بينما هو عالم أن يظهر مالدیه من علم دفعة واحدة ليكون ذلك بمثابة المعجزة لابن تومرت وكان الونشريشي باتفاق مع ابن تومرت قد حفظ أسماء من شعر أنهم يشكون في مهديّة بن تومرت، وكان أيضاً ابن تومرت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين فدفعها الى الونشريشي فحفظها. وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريشي (الكاذب) وأعلن أنه جاءه البارحة ملكان وشقا قلبه وغسله وحشواه علماً وحكمة، فاختره القوم فعجبوا من شدة حفظه ثم شهد لابن تومرت بالمهديّة. ثم قال اعرض عليّ اصحابك حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، وقد أنزل الله تعالى ملائكته الى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي، وكان المهدي قد وضع فيها \_\_\_\_\_

(1) انظر: دولة المرابطين ص (115)

رجالاً لهذا الغرض فسار المهدي وأتباعه الى ذلك البئر، وبعد ان وهل على رأسها قال: "ياملائكة الله ان عبدالله الونشريشي قد زعم كيت وكيت" فقال من فيها صدق، فصدقه الناس، ثم أمر بطمر البئر بحجة أنها مقدسة. وواضح ان طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره مما سيكون له أسوأ الأثر على دعوته وكشف زيفها.

ونادى ابن تومرت في أهل الجبل للحضور للتمييز، وأخذ الونشريشي يعمد إلى الرجال الذين يخاف من ناحيتهم ويضعهم على يساره فيقول هؤلاء من أهل النار ويضع إلى يمينه الغمر<sup>(1)</sup>، فيقول هذا من أهل الجنة. ثم أمر القبائل بقتل الأفراد الذين قيل انهم من أهل النار وكان عددهم حسب بعض الروايات سبعين ألفاً، فلما فرغ من ذلك أمن ابن تومرت على نفسه وأصحابه واستقام أمره<sup>(2)</sup>.

وعلم ابن تومرت ان الباقيين من أهل وأقارب المقتولين لاتطيب قلوبهم بذلك، فجمعهم وبشرهم بانتقال مراكش اليهم واغتنام أموال المرابطين، فسرههم ذلك وسلاهم على أهلهم، ثم ندبهم إلى قتال المرابطين وتحول موقف الموحيدين من الدفاع الى الهجوم وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التي قام بها ابن تومرت على

معاقل المرابطين أراد أن يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش. وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ هذا الزحف، وسبب ذلك يعود أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية. فالوصول إلى أسوار مراكش لم يتم بسهولة بل كلف الموحيدين اختراق كل الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطون وحصنوها بالقلع، على أي حال صمم ابن \_\_\_\_\_

(1) الغمر: هو الغير المجرب

(2) انظر ابن خلكان (52/6 - 53)

تومرت على القضاء على المرابطين بإسقاط عاصمتهم مراكش، فأخذ يستدعي القبائل الى تينملل ليحشدهم ويوجههم الى ذلك الهدف المنشود.

وتوافدت القبائل على ابن تومرت وقد استعدت للقتال وتجمع منهم نحو أربعين ألفاً منهم الفرسان والغالب منهم رجالة وقدم عليهم الونشريشي ووجههم نحو مراكش فبدأوا بالزحف نحوها عام 521هـ/1127م. وقبل وصولهم إلى أسوار مراكش خاضوا معارك عديدة مع المرابطين كانت جميعها لصالحهم.

وضرب الموحدون الحصار حول مدينة مراكش مدة أربعين يوماً على أرجح الروايات<sup>(1)</sup>. وطوال فترة الحصار كانت تدور رحى معارك ضارية بين المرابطين المدافعين عن عاصمتهم والموحيدين الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية لكثرة انتصاراتهم على المرابطين.

ومن المعارك الحاسمة التي دارت خلال فترة الحصار الواقعة التي خرج فيها أمير المسلمين علي يوسف لفك الحصار عن عاصمته ولكنه لم يوفق وتشتت شمل جيشه، وفرت مجموعة من جنده عندما لم تسعها أبواب مراكش لشدة مطاردة الموحيدين لها حتى وصلوا وادي أم الربيع. لقد أخذت الغيرة القائد عبدالله بن همشك الذي كان مع أصحابه الأندلسيين المئة محصوراً داخل المدينة، فخاطب أمير المسلمين قائلاً: (مانعير إلا بالمقام تحت الحصار). فأوضح اليه أمير المسلمين ان قتال المصامدة ليس مثل قتال النصارى، فأكد اليه ابن همشك بأنه يعرفهم لوجود نخبة منهم في الأندلس، وبين لأمير المسلمين أنه مازال يملك العدد الكافي من الجند وخاصة الرماة، وان البقاء على هذا الحال لا يكون إلا مع قلة العدد، ثم عرض رغبته عليه بأن يعطيه \_\_\_\_\_

(1) انظر: دولة المرابطين ص (118)

ثلاثمائة فارس ليخرج بهم فسمح له. وقبل خوضه للمعركة أراد أن يعدل أسلحة جنده لتلائم مع طبيعة المعركة المقبلة، فرأى أن يقصروا رماحهم، ثم برز للموحيدين فما انتصف النهار حتى دخل بثلاثمائة رأس من رؤوس المصامدة فارتفعت معنويات الجند وصمموا على تخليص مدينتهم من الحصار<sup>(1)</sup> وأرسل أمير

المسلمين علي بن يوسف رسائله الى سائر ولاته وقواده طالبا المدد والعون، فجاءت اليه النجيدات من كل صوب، وكان أعظمها القادم من سلجاسة بقيادة واليها وانودين بن سير. وخرج علي بن يوسف من المدينة وانضمت اليه النجيدات، وقدم أبو محمد بن سير قائداً عاماً للقوات المرابطية، وقيل قدم الزبير بن علي بن يوسف (2).

وقبل بدء القتال دارت أحاديث بين الطرفين الغرض الأساسي منها تحطيم نفسية الخصم قبل مقارعتة بالسنان. فبادر الموحدون بإرسال رسالة الى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت والانصياع اليه، فرد امير المسلمين عليهم محذراً إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة، وهكذا لم يستجيب أي طرف للآخر. وأخذ الونشريشي القائد العام للقوات الموحدية وعبدالمؤمن امام الصلاة لهم بتنظيم القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة. وماهي إلا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان في معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب قتل فيها في بداية النهار الونشريشي، فخلفه عبدالمؤمن في قيادة الجيش. ولما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم اسندوا ظهورهم الى بستان هناك،

(1) انظر: دولة المرابطين ص (119)

(2) انظر: عصر المرابطين والموحدين لعنان ص (188)

والبستان عندهم يسمى البحيرة<sup>(1)</sup> وما أن جن الليل حتى قتل معظم المصامدة ففر عبدالمؤمن بنفر يسير لايتجاوز الاربعمائة مابين فارس وراجل. وبعد انتهاء المعركة بحث الموحدون عن جثة الونشريشي بين جثث القتلى فلم يعثروا عليها لأن عبدالمؤمن كان قد واراها فوراً فأشاعوا فيما بينهم أنه رفع إلى السماء<sup>(2)</sup>.

وتابع عبدالمؤمن مع من نجا من القتل سيره نحو تينمل. وعندما وصل إلى هيلانة<sup>(3)</sup> استعاد أنفاسه وحشد جنوده وأعاد الكرة على مراكش فهزم أيضاً وقتل من اتباعه نحواً من اثني عشر ألفاً فعاد أدراجه مع خمسين رجلاً من أتباعه إلى تينمل وكان البيدق قد سبق عبدالمؤمن الى ابن تومرت وأخبره بخبر الفاجعة التي حلت بهم في البحيرة، فسأله ابن تومرت عن عبدالمؤمن فقال هو حي، فرد معزياً الأمر باق، وأوصاهم بعدم الجزع.

واستثمر المرابطون فوزهم في البحيرة وأسرعوا بإرسال أربعة جيوش بقيادة أربعة من مشاهير قوادهم وهم: سير بن وراييل، ومسعود بن وزتيغ، ويحيى بن سير ويحيى بن كانجان الى تينمل للقضاء على الموحدين في معقلهم الحصين. وتقابل الطرفان بموقع يقال له ابكر متاع بني كوربيت، إلا أنه لم يحدث قتال بينهما. ويعلل البيدق<sup>(4)</sup> ذلك بأن المرابطين قد حلت في قلوبهم الرهبة من جموع الموحدين التي تدفقت عليهم النجيدات من هنتانة وكنفيسة ومزلة فرجعوا إلى مراكش.

(1) انظر: الكامل في التاريخ (565/6)

(2) ابن خلكان (53/5)

(3) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن في القرب من مراكش

(4) اخبار المهدي بن تومرت ص (39-41)

وعلى الرغم من ذلك فقد ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين فزلزلت ثقتهم بآبن تومرت، فالمهدي مؤيد من السماء فكيف يهزم من كان حليفه الله... وترتب على هذا التساؤل إعادة النظر في عقيدة المهدي وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها آبن تومرت لاقتناعهم بأن قتلاهم في الجنة، فقد بقيت رواسب الشك في مهديته تساور نفوسهم. عندها لجأ آبن تومرت إلى أسلوب المكر والخداع حتى يعيد الثقة بدعوته وقيادته ومهديته. فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره وأوصاهم بأن يقولوا إذا سئلوا: "قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة فجدوا في قتال عدوكم فإن مادعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق"، ووعدهم إذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم ويجعل لهم منزلة رفيعة. ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين وأوضح لهم بأنهم حزب الله وأنصار دينه وطالبهم بالجد في قتال أعدائهم، وطلب منهم ان كانوا في شك مما يقول أن يذهبوا سوياً إلى قبول قتلاهم في معاركهم مع المرابطين ليحدثوهم بما لقوا من خير ونعيم، وذهب معهم الى مكان إحدى المعارك التي نشبت مع المرابطين وسقط فيها عدد كبير من الموحدين، والتي يوجد فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء ولقنهم ما يقولون. ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلاً: يامعشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله عزوجل. فقالوا: وجدنا مالا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر إضافة الى ما لقيتم إياه آبن تومرت، عندها ذهل الناس وعادت ثقتهم بالمهدي، وبدلاً من أن يخرج المدفونين قام باغلاق المنافس التي كان قد تركها لهم فماتوا من فورهم، لأنه خشي أن يخرجوا فيذيعون سره فيفتضح أمره فتكون كارثة عليه<sup>(1)</sup>.

ورأى آبن تومرت في قرارة نفسه ان الهزائم التي منيت بها قواته ماهي إلا نذير شؤم للاطاحة بكل مخططاته التي سخر حياته من أجلها ليقيم دولته المنشودة، فتفاعلت هذه الأحداث في نفسه لتورثه المرض الذي أودى بحياته بعد فترة وجيزة.

وتكاد تجمع معظم المصادر على ان وفاته كانت عام 524هـ ، 1130م<sup>(2)</sup> وتذكر المصادر الموحدية انه

لما شعر بدنو أجله استدعى أصحابه المسمين بالجماعة، وأهل الخمسين، فلما حضروا أخذ يعظهم واعدأ إياهم بالنصر على المرابطين، ومحذراً إياهم من الفرقة والتناحر، وأمر عليهم عبدالمؤمن، وطلب منهم السمع والطاعة له مادام مطيعاً لربه(3).

وبهذه المواعظ ودع ابن تومرت أصحابه معلماً إياهم بأنه راحل الى ربه في هذه السنة. ولما اشتد عليه مرضه قدم عبدالمؤمن بن علي للصلاة وأمره بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير، وأن يتكفل بغسله ودفنه بجامع تينمل.

وعندما توفي ابن تومرت كفنه عبدالمؤمن بن علي وصلى عليه، ودفنه سراً بمسجده كما أوصاه، وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام ولم يعلنوها إلا في عام 527هـ/ 1132م بعد أن انفقت كلمتهم على عبدالمؤمن بن علي(4).

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول بسبب ما حاق

(1) انظر: دولة المرابطين ص (122)

(2) انظر: نفس المصدر ص (122)

(3) نفس المصدر ص (122)

(4) انظر: المعرب الكبير (781/2)

بأتباعه من هزيمة نكراء في موقعة البحيرة، ولكنه قد نجح في ترسيخ دعوته في قلوب أتباعه حتى صدقوه وآمنوا بمهديته، وأطاعوه ولو في قتل ابنائهم، وهذا ما حصل فعلاً في عملية التمييز التي تقشع لهولها الأبدان حيث قتلت كل قبيلة بعض فلذات أكبادها دون تردد أو حيرة.

لقد كان ابن تومرت شخصية فريدة في التاريخ لما امتاز به من صفات المكر والدهاء واستغلاله كل الفرص، واستخدامه كل الأساليب من أجل تحقيق حلمه بإقامة دولة يكون هو زعيماً ومرشداً روحياً لها، وليدفع بقبيلته مضمودة الى مركز الصدارة بعد أن سلبتها لمتونة ذلك الشرف.

واجتمعت في شخصية ابن تومرت صفات قلما تجتمع في شخصية قيادة في ذلك الوقت. فقد كان على قسط وافر من العلم، وقد ساعده ذلك على الاستفادة من كل الأفكار المطروحة في العالم الإسلامي لينتقي منها ما يلائم دعوته الجديدة ويساعد على تقوية مركزه بين أتباعه. كما مكنه تكوينه العلمي من أن يرد على أي انتقاد او اتهام يوجه ضده من قبل الخصوم، فيساعده في ذلك فصاحة لسان وسحر بيان وضعف حجج الخصوم، لقد استطاع أن يجمع القلوب حوله وأملى عليها مايريد فانفادت له مبهورة.

لقد ساعد ابن تومرت في تحقيق اهدافه سذاجة المجتمع وجهله وما عشعشت في ذهنه من الأساطير

وانحرافات حتى عاد غريباً عن منهل الإسلام الصافي، فعلى الرغم من الجهود الكبيرة للمرابطين لإفهام هؤلاء أمور دينهم فقد بقي قطاع كبير منهم متمسكاً بعلائق الجاهلية مما أوقعه فريسة سهلة لمخططات ابن تومرت فأملى عليهم تعاليمه البعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة فتقبلوها دون نقد أو تمحيص، وقدموا أرواحهم دفاعاً عنها بعد أن أوهمهم أنه المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ما ملئت جوراً.

ومن افتراءات ابن تومرت انه ادعى انه مأمور بنوع من الوحي والإلهام وإن من لا يؤمن بمهديته فهو كافر وألف عقيدة أوجب حفظها على أتباعه<sup>(1)</sup>، وأحدث في آذان الصبح (أصبح والله الحمد) ، وتناول وادعى أنه يعلم الغيب<sup>(2)</sup>.

إن دعوة تقوم على الخداع والزيف وتذكيها العصبية القبلية لا يمكن أن تستمر فترة طويلة دون اكتشاف حقيقتها لقد وصفه بحق لفيف من المؤرخين بأنه منتحل ومبتدع، وانبرى له شيخ الإسلام ابن تيمية بهدم عقيدته بمعاول الحق والحجج والبراهين وقد بينت ذلك<sup>(3)</sup>.

وأكبر دليل على فساد عقيدته وزيف مهديته انه ماكاد يمضي على وفاته قرن من الزمان حتى خرج أحد خلفائه الملقب بالمأمون على الملأ معلناً في مدينة مراکش من فوق منبر مسجدنا بطلان عقيدة المهدي بن تومرت لارتكازها على الزيف والخداع، كما أسقط من السكة ومن الخطبة، وقال لاندعوه بالمهدي، وكتب بذلك إلى الآفاق<sup>(4)</sup> وبناء على هذا الاعلان حذف اسم "المهدي" من السكة الموحدية واستعيض عنه بـ "القرآن حجة الله" في المركز، وفي الهامش نقش اسم "خليفة الموحدين المأمون"<sup>(5)</sup> إن عقيدة أهل السنة والجماعة الضاربة في أعماق أهالي الشمال الافريقي حطمت كل الأفكار الخارجية والرافضية والاعتزالية والتومرتية بصلابتها وقوتها [فأما الزيد

(1) انظر: دولة المرابطين ص (124)

(2) انظر: عصر المرابطين والموحدين لعنان ص (216)

(3) انظر: الفتاوى (492/11)

(4) انظر: دولة المرابطين ص (125)

(5) مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال افريقيا والأندلس ص (191) رسالة ماجستير

فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض...].

إن حركة بن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولة المرابطين، تلك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقية، واتخذت من جهاد النصارى في الأندلس هدفاً أسمى لوجودها، فما أفرزهم من مقر حكمهم في مراکش إلى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق

الفونسو السادس وبذلك أخرجوا الأندلس بيد النصارى عدة قرون.

ولكن ما إن بدأت ثورة المهدي بن تومرت حتى أخذت تشغلهم بعض الشيء عن واجبهم المقدس في الأندلس، فأخذ أمير المسلمين يستصرخ قواده العظام من الأندلس أمثال تاشفين بن علي لمقارعة الموحدين، وأدى ذلك إلى ازدياد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس، وبدأوا يلتهمون المدن الأندلسية الواحدة بعد الأخرى في هذا الوقت استطاع بن تومرت بواسطة المؤمنين بمهديته أن يطيحوا بدولة المرابطين، فأتلج ذلك قلوب النصارى الذين أدركوا أن الخلاص من الوجود الإسلامي في الأندلس أضحى وشيكاً<sup>(1)</sup>.

إن رجال الإصلاح في تاريخنا الإسلامي هم الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات أما الذين كذبوا وسفكوا الدماء وهتكوا الأعراض، وكفروا المسلمين الأولى بنا أن نطلق عليهم رجال التدمير والإفساد، وإنها لمغالطة تاريخية وخيانة للأمانة العلمية عندما \_\_\_\_\_  
(1) انظر: دولة المرابطين ص (126) لقد استقدت من كتاب تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت للأساتذ عبدالمجيد النجار ودولة المرابطين للأساتذ سلامة محمد سلمان الهرفي في مبحث المنهج التربوي والسياسي والعسكري عند بن تومرت وغيرها من المراجع وهذا للامانة العلمية .

نضفي على المفسدين ثوب الإصلاح ونجعلهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام إن حركات الإصلاح في التاريخ الإسلامي هي التي التزمت بكتاب ربها وسنة نبيها واستوعبت فقه التمكين واخذت بأسبابه وحرصت على تنفيذ شروطه جديرة بالدراسة الواعية من اجل اخراج فقهاً للعاملين في مجال الدعوة الإسلامية وانها لكفيلة بربط الحاضر بالماضي وجديرة بإثراء واقعنا بفقهاء بناء الدول وأسباب النهوض وعوامل السقوط وكيفية الأخذ بأسباب النجاح واتقاء المزالق.

## الفصل الثاني عبدالمؤمن بن علي وابناءه واحفاده

### المبحث الأول عبدالمؤمن بن علي

#### أولاً: اسمه ونسبه:

عبدالمؤمن بن علي بن عَلَوِي، سلطان المغرب الذي يلقب بأَمِير الْمُؤْمِنِينَ، الكومي، النفيسي، المغربي. ولد بأعمال تَلْمَسَانَ. وكان أبوه يصنع الفخار<sup>(1)</sup>. قيل: إنه قال: أعني عبدالمؤمن: إنما نحن من قيس بن غيلان بن مُضَرِّ بْنِ نَزَارٍ، ولكومية علينا حق الولادة، والمنشأ فيهم، وهم أخوالي<sup>(2)</sup>. وكان الخطباء إذا دَعَوْا له بعد بن تومرت، قالوا: قسيمُهُ في النسب الكريم، وكان مولده سنة سبع وثمانين وأربع مائة<sup>(3)</sup> وصفه الذهبي فقال: (وكان أبيض

(1) انظر: سير اعلام النبلاء (366/20)

(2) نفس المصدر ..... (366/20)

(3) نفس المصدر ..... (367/20)

جميلاً، ذا جسم عَمَمٍ<sup>(1)</sup>، تعلوه حمرة، أسود الشعر، معتدل القامة، جهوريّ الصوت، فصيحاً جَزَلُ المنطق،

لا يراه أحد إلا أحبه بديهية، وكان في كبره شيخاً وقوراً، أبيض الشعر، كث اللحية، واضح بياض الاسنان، وكان عظيم الهامة، طويل القعدة، شثن الكف، أشهل العين.

#### أ- لقاءه بمحمد بن تومرت :

عندما رجع ابن تومرت إلى إفريقية هو ورفيقه الشيخ عمر الهنتاني صادف عبدالمؤمن، فحدثه ووانسه، وقال: إلى أين تسافر؟ قال: أطلب العلم. قال: قد وجدت طلبتك. ففقهه، وصحبه، وأحبه، وأفضى إليه بأسراره لما رأى فيه من سمات الثبل<sup>(2)</sup> وكان بن تومرت يمدحه بهذه الأبيات:

تكاملت فيك أوصاف خُصِصت بها  
فكلنا بك مسرور ومغتبطُ  
السن ضاحكة والكف مانحة  
والنفس واسعة والوجه منسبط<sup>(3)</sup>

وكان بن تومرت يقول لأصحابه: صاحبكم هذا غلاب الدول لقد كان بن تومرت يعمل على أن يكون عبدالمؤمن صورة حقيقية له ولذلك أعده الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة وعلمه ودرجه وأمر أتباعه بإطاعة عبدالمؤمن في كل مايقول وأن يقتدوا به في كل ما يفعله وكان عبدالمؤمن له من الاستعداد الفطري بحيث يستطيع أن يتقن كل مايقال له من تعليم وتدريب، فعرف كيف \_\_\_\_\_

(1) عظم الخلق في الناس وغيرهم

(2) انظر: سير اعلام النبلاء (367،368/20)

(3) انظر: النجوم الزاهرة (363/5)

ينهض وينظم الدولة ويسير بها خطوات ناجحة لكي تتبوأ دولة الموحدين الزعامة والسياسة في عالم المغرب والأندلس<sup>(1)</sup>.

#### ب- بيعته:

بايع أصحاب ابن تومرت المقربين عبدالمؤمن بن علي في شهر رمضان 524هـ وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة الخاصة، لأن موت ابن تومرت ظل في طي الخفاء أكثر من سنتين ثم بايع الموحدون عبدالمؤمن البيعة العامة قيل في 20 ربيع الأول سنة 526هـ وقيل 527هـ وذلك بجامع تينملل. وقد اختار الموحدون عبدالمؤمن لزعامتهم لما عرفوه من اختصاص بن تومرت له وتقريبه إليه وإطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة إلى الممسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزمته وحسن سياسته ورجاحة عقله وشجاعته<sup>(2)</sup>.

وقد ذكر الذهبي خطبة ابن تومرت قبل وفاته اشار فيها إلى توليه عبدالمؤمن من بعده: (استدعى ابن تومرت قبل موته الرجال المسمين بالجماعة وأهل الخمسين والثلاثة عمر أرتاج، وعمر إينتي، وعبدالله بن سليمان، فحمد الله، ثم قال: إن الله - سبحانه، وله الحمد - منّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصّكم بحقيقة توحيدِهِ، وقبض لكم من أفاكم ضللاً لا تهتدون، وعمياً لا تبصرون قد فشت فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل، فهذاكم الله به ونصركم، وجمعكم بعد الفرقة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبت أيديهم، فجددوا لله خالص نياتكم، وأرؤهُ من الشكر قولاً وفعلاً مما \_\_\_\_\_

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي للغنيمي (203/3 ، 204)

(2) انظر: تاريخ الإسلام د. حسن ابراهيم (208/4)

يزكي به سعيكم واحذروا الفرقة وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم، وإن لم تفعلوا شملكم الذل، واحتقرتكم العامة وعليكم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً بعد أن بلواناه، فرأيناه ثبتاً في دينه، متبصراً في أمره، وهو هذا - وأشار إلى عبدالمؤمن - فاسمعوا له وأطيعوه ما أطاع ربه فإن بدل في الموحدين بركة وخير، والأمر أمرُ الله يقُلده من يشاء. فبايع القوم عبدالمؤمن، ودعا لهم ابن تومرت(1).

وقال بن خلكان(2): ماستخلفه بل أشار إليه وما قاله الذهبي نقله عن عبدالواحد المراكشي(3).

كما أن هناك سبباً آخر جعل زعماء الموحدين يبايعون عبدالمؤمن ألا وهو أن عبدالمؤمن، كومي وليس من المصامدة وهذا يجعل حداً لتطلع زعماء القبائل إلى هذه الخلافة، وبالتالي ستقضي على الخلافات التي كان وقعها محتملاً بين قبائل المصامدة في سبيل الزعامة.

وما أن أعلنت طبقة الجماعة، وفاة ابن تومرت وبيعته لعبدالمؤمن بن علي حتى قامت بقية الطبقات له بالبيعة ولم يكن له من خلافة الموحدين إلا الاسم، أما الإدارة الفعلية والإشراف الكامل، فقد كانت للطبقات المختلفة حسب اختصاص كل منها ولذلك لم يستطيع بادئ الأمر، أن يستبد بأمر من الأمور ولا أن يبيت في

حكم من الأحكام إلا بموافقة ذوي الشأن وكان الموحدون \_\_\_\_\_

(1) انظر: سير اعلام النبلاء (369/20)

(2) انظر: وفيات الأعيان (239/3)

(3) انظر: المعجب ص (285 ، 287)

الأولون يدركون ذلك ويحرصون عليه، فهم لم يتركوا لعبدالمؤمن العنان لأن يستبد بهم، ولا أتاحوا له الفرصة لأن ينفرد في قرارات الحكم بل نجدهم يناقشون وينتقدون اعمال عبدالمؤمن ويتجرؤون عليه وقد وصل الحال ببعضهم أن قتل أخا عبدالمؤمن، لما جاء لزيارة أخيه الخليفة وجلس في المكان المخصص له. فما كان منه

إلا أن غضب لنفسه واعتبر ذلك إهانة له، فثار بأخي عبدالمؤمن الخليفة وقتله. ولما غضب عبدالمؤمن وأراد الاقتصاص من قاتل أخيه، وقف الموحدون في وجهه ومنعوه من ذلك<sup>(1)</sup>. ويروي البيهقي هذا الحادث ضمن أخبار سنة ستة وثلاثين وخمسمائة (536هـ) فيقول: "وفيها جاء ابراهيم إلى الخليفة أمير المؤمنين بالتوحيد وأعطاه الخليفة الخيل والعبيد والخباء. وأنزله في موضع محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فتغابى ابراهيم أخو الخليفة مع محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فقتله محمد بن أبي بكر ابن بيكيت. فقام له أبو حفص وأبو الحسن يوكوت بن واكك وقالوا له: ألم يقل المهدي: بأن الجماعة وصبيانهم عبيدهم كل من في الدنيا. فصمت عند ذلك الخليفة.."<sup>(2)</sup>.

لقد أسرها عبدالمؤمن في نفسه وشرع في أخذ الخطوات التي آلت للقضاء على نظام الطبقات الذي وضعه ابن تومرت ووضع نظاماً جديداً يكرس الولاء لشخصه وأسرته وسنرى ذلك بإذن الله ويبدو أن عبدالمؤمن لا يعتقد اعتقاداً راسخاً في عصمة ابن تومرت ومهديته وإلا فكيف يتجرأ على نسف ما وضعه ابن تومرت بعد أن مهد لذلك وجعل الزمن جزءاً من هدفه.

لقد كان الظلم في تعاليم ابن تومرت واضحاً هذا خليفة الموحدين يقتل أخاه \_\_\_\_\_

(1) انظر: سقوط الموحدين ص (51،52)

(2) اخبار المهدي للبيهقي ص (93)

ويمنع الأخذ بالقصاص من القاتل بحجة أن القاتل من أهل الجماعة وكل من في الأرض عبيد لهم، لاشك أن ذلك الحدث أثر في عبدالمؤمن بن علي.

### ثانياً: قتال عبدالمؤمن للمرابطين وتوحيد المغرب:

في ظروف حالكة منذرة بالفتنة تولى عبدالمؤمن بن علي قيادة الموحدين وكانت مهمته عسيرة وصعبة، فقد كان عليه أن يعيد الثقة الى نفوس الموحدين وأن يعيد تنظيم صفوفهم تمهيداً للمعركة المقبلة الفاصلة، ولهذا السبب شغل طوال الشهور الأولى من خلافته في راب الصدع، وتأليف القلوب وتعبئتها لمداخلة المرابطين، فلما تم له ذلك اعتزم مواصلة الجهاد ضد المرابطين، فكانت أولى غزواته كخليفة على حد مارواه ابن أبي زرع موجهة إلى مدينة مراکش فقد هاجمها أياماً ثم ارتحل عنها<sup>(1)</sup>، غير أن ابن القطان<sup>(2)</sup> وابن خلدون يتفقان على أن أول غزواته هي غزوته لتادلة في وادي درعة، وفيها خرج عبدالمؤمن من تينملل في شهر ربيع الأول سنة 526هـ في جيش ضخم قوامه ثلاثون ألف مقاتل، فسار أولاً نحو حصن تازا جورت

وكانت تدافع عنه حامية مرابطية بقيادة يدر بن ولكوط وقيل يحيى بن مريم الزرجاني<sup>(3)</sup>، فتمكن عبدالمؤمن من اقتحام الحصن وقتل واليه وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المرابطين، وهو رقم مبالغ فيه فليس من المعقول أن يضم أحد الحصون المرابطية عدداً من المدافعين يتجاوز العشرين ألف مقاتل، وهذا الرقم من

---

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس د. مهدي عبدالمنعم ص (111)

(2) نفس المصدر ص (111)

(3) نفس المصدر ص (111)

الصعب تصديقه اذا أخذنا بالاعتبار كثرة عدد القلاع والحصون المرابطية في المغرب فضلاً عن انشغالهم بالجهاد ضد النصارى في الأندلس. رحل عبدالمؤمن عن تازجورت بعد أن سبى ميمونة بنت ينتان بن عمر أرملة والي الحصن المذكور وصحبها معه إلى تينملل، حيث ظلت أسيرة لديه حتى أفتديت فيما بعد، بمن كان في تلمسان من أسرى الموحدين، ثم سار عبدالمؤمن إلى درعة واستولى عليها، كما استولى في نفس العام - 526هـ على حصن هزرجة، فقد اقتحمه وأحرقه وقتل معظم حاميته، ومنها سار إلى بلدة جثجال وأضرم فيها النيران وقتل أهلها، ثم سار إلى بلدة أجلاحال، وكان أهلها قد قتلوا أحد أصحاب ابن تومرت وامراته في يوم العيد، فجمع عبدالمؤمن أهلها وقتل منهم ما يزيد على ثلاثمائة رجل، وفي نفس العام استولى الموحدون على حصن جلاوة افتتحه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب ابن تومرت العشرة ومعه بعض وجوه الموحدين، وكان أهل الحصن قد جرحوا ابن تومرت في إحدى غزواته، فدخله الموحدون عنوة وقتلوا كل من فيه، وفي هذا العام أيضاً افتتح الموحدون حصن تاسيغيموث أمنع حصون المرابطين وكان قد تولى بناءه ميمون بن ياسين، كما كانت تقوم على حراسته حامية، من هزرجة قوامها مائتي وخمسمائة رجل، فلما ينس الموحدون من فتحه لمناعته لجأوا إلى الحيلة فدخلوا بعض أفرادهم من حامية الحصن وتواطئوا معهم على فتحه، فأقتحموه ليلاً، وقتلوا أبو بكر بن واصول اللمطي واليه المرابطي ومن معه من المرابطين، ونقلوا أبواب الحصن الحديدية التي تينملل حيث ركبت على باب الفخارين<sup>(1)</sup> عاد عبدالمؤمن إلى

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ص (113 ، 114)

تينملل، وكانت قد وقعت خلال غيبته حادثة خطيرة، ان دلت على شيء فانما تدل على أن الطموح إلى الرئاسة كان ما يزال يضطرم في نفوس بعض منافسي عبدالمؤمن وأن الرغبة في القيادة والتطلع إلى الزعامة كانت لا تزال تلح في نفوس أقرب المقربين إلى عبدالمؤمن وأعني بهم أصحاب ابن تومرت العشرة وتتخلص

هذه الحادثة في اقدم عبدالله بن ملوية أحد أصحاب بن تومرت العشرة، على شق عصا الطاعة على عبدالمؤمن بن علي أثناء غيابه عن تينملل غازياً، وإعلانه الطاعة للأمير المسلمين علي بن يوسف الذي لم يتردد في اعلان رضاه عن ابن ملوية، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية مرابطية لمهاجمة تينملل، فسار ابن ملوية بتلك القوة الى موضع يسمى تامد غوست قاعدة قبيلة جنفيسة بهدف استمالتها الى جانبه ثم يزحف بقواته المجتمعة الى تينملل، غير أن عبدالله بن وسيدرن أحد زعماء جنفيسة المقيمين في تينملل جمع شيوخ جنفيسة وأعلنوا تمسكهم بالعهد الذي قطعوه لابن تومرت، ونعوا إلى ابن ملوية تلك الخيانة وفي الحال قام أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكي أحد أهل خمسين ومعه غلامه، وسارا الى محلة ابن ملوية وقتلاه، وحملا جثته الى تينملل حيث صلبت، ولما عاد عبدالمؤمن وعلم بما حدث شكر لجنفيسة اخلاصها وقسم الغنائم عليها(1).

ويبدو أن عبدالله بن ملوية لم يكن متطوعاً للزعامة وإنما أراد الرجوع إلى الحق والتوبة وخصوصاً وهو أحد العشرة الذين يعرفون الكثير من كذب وباطل وظلم وجور مارسه ابن تومرت بدون مسوغ شرعي ولذلك أعلن طاعته للأمير المسلمين علي بن يوسف.

---

(1) انظر: تاريخ المغرب في الأندلس ص (114)

وفي عام 526هـ حدث أمراً عظيماً يحمل في طياته مغزى عظيماً ومبشراً بقرب أفول عهد المرابطين، فقد انضم القائد المرابطي المشهور الفلاكي<sup>(1)</sup> ومعه طائفة من جنده الى الموحدين، وكان الفلاكي من أهل اشبيلية وكان في بداية أمره شقياً وقاطع طريق، ثم تاب فعفا عنه والي اشبيلية، وقدمه على الرماة والرجالة، ثم انتقل الى خدمة أمير المسلمين علي بن يوسف، الذي قدمه على فرقة من جند المرابطين ووجهه الى السوس لمداغة الموحدين، فجد في محاربتهم وأظهر بطولة وشجاعة نادرتين، ثم لم تلبث العلاقات بينه وبين أمير المسلمين أن ساءت فانضم الى الموحدين، وأخذ يهاجم الحصون المرابطية الواقعة في منطقة السوس، ويفعل بها مثلما كان يفعل في الحصون الموحدية من قبل، وظل في خدمة الموحدين الى أن ارتد بعد ذلك عن الطاعة وعاد إلى طاعة المرابطين وفي عام 528هـ قتل قائد المرابطين ابراهيم بن يوسف بن تاشفين واستطاع الموحدون فتح مدينة تارودنت أعظم معاقل المرابطين في بلاد السوس.

وفي عام 529هـ سار عبدالمؤمن لغزو بني بيغز وظل عبدالمؤمن يحاصرهم نحو أربعين يوماً، فلما يئس من اخضاعهم رفع الحصار وعاد الى تينملل واستمر الصراع من عام 531هـ، 532هـ وفي هذا العام 532هـ تحرك عبدالمؤمن من تينملل الى جبل غياثة، فعسكر بجرائده على مقربة من المقرمة عند وادي أبي حلوا،

كما انضمت اليه قوة عسكرية يتولى قيادتها عبدالله بن يحيى بن أبي بكر بن تيفلويت، فعسكرت بالقرب من محلة سير، وفي نفس الوقت حشدت زناتة الموالية للمرابطين خمسة آلاف فارس يتقدمهم يحيى بن

(1) انظر: دولة المرابطين ص (127)

فانو غير أن زيري بن ماخوخ أحد شيوخ زناتة لم يلبث أن أعلن انضمامه إلى الموحدين، وراسل عبدالمؤمن بن علي وطلب منه عسكرياً لمهاجمة عسكر المغرب الذي يقوده عبدالله بن يحيى بن أبي بكر، فأمدته بقوة موحدية، أغار بها على محلات عسكر المغرب، وألحق بهم خسائر فادحة. وفي نفس الوقت توفي القائد يحيى بن فانو قائد العسكر الزناتي الموالي للمرابطين، فأسند الأمير سير القيادة إلى القوة الزناتية لمحمد بن يحيى ابن القائد المتوفي، الذي واصل سيره بقوات أبيه حتى نزل على مقربة من وجده. وكانت الأنبياء قد وصلت إلى سير بن علي بأن عبدالمؤمن يريد بلاد غماره، فوضع له سير ألفي فارس في طريقه ليمنعه من تحقيق هدفه، واستمرت هذه القوات المرابطية مايقرب من الشهرين تتناوب حراسة الطريق ومراقبة تحركات عبدالمؤمن. وفي أثناء ذلك راسل زيري بن ماخوخ نويه من زناتة واتفق معهم على أن يخذلوا المرابطين في المعركة المقبلة بين المرابطين والموحدين فأرسل عبدالمؤمن سرية من جنده مع زيري بن ماخوخ، خرجت من جبل غياثة إلى محلة زناتة، وهاجمتها، ونشبت بين الفريقين معركة انهزمت فيها زناتة<sup>(1)</sup>.

وفي عام 533هـ تحرك عبدالمؤمن بن علي من تينملل، ونزل في بلد ملول من منانة في أراضي حاحة، فزحف إليه الامير تاشفين بن علي بن يوسف ولي عهد المرابطين من مراكش ومعه الروبرثير قائد فرقة الجند للمرابطين، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط في حاحة، وكان علي بن يوسف قد قتل عدداً من أعيان قبيلة منانة، وكان ذلك سبباً في دخولها في طاعة الموحدين ولكنها ارتدت عن الطاعة ثلاث مرات، فأقام عبدالمؤمن في بني ملول شهراً وثلاثة

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ص (117)

أيام، وهو يشن عليهم الغارات، ثم تركهم وسار بعد ذلك إلى قبيلة بني وجدزران ثم إلى بني سوار من منانة الجبل، وكان أبو بكر بن علي بن يوسف قد قتل أشياخهم وأعيانهم لدخولهم في طاعة الموحدين ثم سار عبدالمؤمن إلى أجر فرجان، فتبعه تاشفين بن علي في قواته وسد عليه الطريق، فنشبت في أجر فرجان معركة عنيفة بين الفريقين، هزم فيها تاشفين، وتكررت هزيمته ثلاث مرات إلى أن فر بنفسه إلى جهة الميزتانوت، فاستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد وفي هذه اللحظات وصلت قوة مرابطية من مراكش مدداً لتاشفين ولكنها وصلت بعد فوات الأوان أي بعد هزيمة تاشفين، فطمعوا في

انتزاع الغنائم من الموحدين، فلما علم عبدالمؤمن بذلك لجأ إلى الحيلة فأمر برصد الكمان في مضائق الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتذاباً للقوة المرابطية التي كانت من قبيلة جزولة وأمر الكمان بالاندفاع نحوهم اذا ماسمعو قرع الطبول. نجحت خطة عبدالمؤمن بن علي نجاحاً تجاوز كل تقدير في الحسان، فقد هاجمت جزولة ساقه الغنيمة وقتلت بعض حراسها، فلما توسطوا مواضع الكمان، دقت الطبول فجأة، فاندفعت الكمان صوب جزولة فأبادوهم عن آخرهم واستولوا على أسلحتهم ودوابهم وما إن تم لعبدالمؤمن ذلك حتى تراجع صوب بلاد جنفيسة.

وفي عام 534هـ ، خرج الأمير تاشفين بجيش ضخم من لمتونة وزناتة لقتال الموحدين وانضمت اليه فرقة بقيادة الروبرتير، وتمكن المرابطون من حصارهم في موقع يقال له تيزعور مايقرب من شهرين، وشددوا عليهم الحصار وقطعوا عنهم الميرة حتى اضطر الموحدون الى أكل حيواناتهم، ثم نشبت بين الفريقين معركة عنيفة رجحت في بدايتها كفة المرابطين ولكنها انتهت بهزيمتهم وانسحاب تاشفين الى مراكش حاملاً معه الروبرتير جريحاً.

وفي عام 535هـ (1140-1141م) ، خرج الجيش المرابطي من مراكش بقيادة الروبرتير، فاشتبك مع الموحدين بقيادة الخليفة عبدالمؤمن بن علي في مكان يسمى امسيميسي يقع في أرض كدميوه شمال تينملل وقيل ان اللقاء حدث بجبل خدميره، ولايذكر البيهقي، نشوب معركة بين الجانبين وانما يؤكد ان كل فريق عاد إلى بلاده، بينما يؤكد ابن عذارى حدوث قتال بين قوتي المرابطين والموحدين، وأن المعركة انتهت بهزيمة المرابطين وعودة الروبرتير جريحاً الى مراكش. ثم عاد الروبرتير الى الخروج بقوات لمتونة، واشتبكت قواته مع قوات عبدالمؤمن بموضع يسمى اكلظور، فهزم المرابطون، وارثد الروبرتير في فلوله جريحاً إلى مراكش، وعاد عبدالمؤمن الى تينملل(1).

واصل عبدالمؤمن بن علي صراعه ضد المرابطين، فخرج في قواته نفس العام - 535هـ - وحاصر حصن تينلين، وكان يدافع عنه واليه المرابطي يركين ابن ويدر، واستمر يحاصر الحصن ثلاثة أيام، اضطر بعدها إلى فك الحصار والاتجاه نحو بلاد السوس، وذلك عندما علم بتحرك قوات المرابطين بقيادة الروبرتير صوب تينلين، ومع ذلك فقد تمكن عبدالمؤمن من فتح بعض حصون المرابطين في السوس من بينها ايرمناد، وتاسلولت وتيونوين وابجلي وغيرهم وفي نفس الوقت هاجم الروبرتير محلة تيغيايين الموحدية، وسبى نساءها وأخذهن معه إلى مراكش. أما عبدالمؤمن فقد عاد من غزوته في أرض السوس وكان من جملة سباياها فيها " تما كونت " ابنة ينتان بن عمر أحد وزراء علي بن يوسف، التي رجته أن يعفو عنها ويطلق سراحها، وذكرته

بشفاعة أبيها ينتان بن عمر في ابن تومرت، عندما كان ماراً بمراكش، وحاول الفقهاء تحريض امير المسلمين على التنكيل به، فلم يتردد عبدالمؤمن في قبول رجائها وأمر على الفور باطلاق سراح جميع النساء وأرسلهن إلى مراكش معززات مكرمات، فأعجب علي بن يوسف بصنيع عبدالمؤمن وأمر بدوره باطلاق سراح سبانيا تيغيايين وأرسلهن آمنات مكرمات الى تينملل رأى عبدالمؤمن بعد تلك الانتصارات التي أحرزها الموحدون على المرابطين أن ينقل مسرح الصراع الى قلب دولة المرابطين مستهدفاً القضاء عليها واسقاطها، وشرع في تنفيذ تلك الخطة في بداية 535هـ ويورد البيهقي وكان شاهداً عياناً لاحداث هذه الفترة وصفاً دقيقاً لحملة عبدالمؤمن الكبرى ضد المرابطين فيذكر أنه خرج من تينملل في حشود ضخمة متجهاً نحو الشمال الشرقي، فنزل بموضع يسمى وانزال ثم زحف الى أشبار وتقع جنوب شرقي مراكش ثم غادرها الى تاساوات فدمنت بعد أن بلغه خروج تاشفين بن علي في أثره وأنه نزل بأشبار وتابع سيره نحو دمنات مروراً ببلدة يمللو القريبة منها، ثم تابع الموحدون زحفهم نحو "واويزغت" دون أن يشتبكوا مع المرابطين في معركة حاسمة باستثناء موقعة محلية حدثت في تيزي ودارت فيها الدائرة على المرابطين. ثم تقدم الموحدون الى "داي" فولى حاكمها المرابطي علي بن ساقطر الادبار وأرغم أهلها على بذل الطاعة للموحدون وواصل الموحدون زحفهم صوب "تازاكار" ولم تلبث هذه البلدة أن سقطت في أيديهم وتبعتها قلعة واوما، ثم آزرو التي تقاعس حاكمها في الدفاع عنها، فدخلها الموحدون، واتخذها عبدالمؤمن قاعدة لقيادته، وجه منها عدداً من الحملات لاختراع المناطق المجاورة، وفي نفس الوقت أرسل بعض أشياخ الموحدون الى تينملل يبشرون أهلها بانتصارات عبدالمؤمن. وهكذا دخل أهل فازاز جميعاً في طاعة الموحدون وأقام عبدالمؤمن فترة في أزرو حيث تزوج من إحدى نساءها. واصل عبدالمؤمن زحفه، فخرج من أزرو حيث اعترضته قوة مرابطية على طريق مكناسة، ففتك بها وأباد معظمها، واستولى على كميات كبيرة من المؤن والعتاد، ثم هاجم قواعد المرابطين في غريس الواقعة جنوبي أزرو، وتمكن من بسط نفوذه على جميع المناطق الواقعة جنوبي أزرو، وعندئذ اتجه نحو سلجماسة، فبادر واليها أبو بكر بن صارة بالدخول في طاعة الموحدون. وفي أوائل عام 536هـ قامت سرية موحدية على رأسها عبدالرحمن بن زكو بمهاجمة مدينة صفروي واقتحمها، وتابع ابن زكو زحفه الى الشمال الشرقي نحو الفلاج الواقعة شمال شرقي صفروي. وفي هذا الاثناء غادر تاشفين بن علي مدينة فاس الى جبل العرض فعسكر به، ثم بعث الروبرثير في قوة الى الفلاج لاستنقاذها، فخرج اليه الموحدون بقيادة يحيى آغوال، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم يحيى، واحتز رأسه وأرسل إلى فاس ثم تقدم الموحدون نحو أرض غياثة الواقعة شرقي فاس، وضربوا محلثهم على سفح جبل عفرا، بينما عسكر

المرابطون في موضع يسمى النواظر يقع على مقربة من جبل عفرا. ولم يمض وقت قصير حتى حل فصل الشتاء وكان شتاءً قاسياً تعرضت فيه المنطقة خلال أسابيع لعواصف عاتية وسيول مدمرة اكتسحت السهول والقرى والوديان وقاسى بسببها العسكران أيما عناء وشدة، إلا أن وقعها على المرابطين كان أشد وأنكى، حيث تساقطت الخيام، وعامت أوتادها لرخاوة الارض، وغرقت الدور وهلك عدد كبير من عسكر المرابطين بسبب البرد القارس وقلة الأقات والوقود في كل من المعسكرين وبلغ سعر الشعير في معسكر الموحديين وفقاً لقول البيهقي ثلاثة دنانير للسطل، وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل. ومع حلول فصل الربيع استأنف الموحدون زحفهم فكان أول موضع قصده عبدالمؤمن هو قلعة الولجة من حصون المنطقة المعروفة باسم لكاي وتقع الى الشمال الشرقي من فاس. وفي نفس الوقت تقدم تاشفين بن علي ومعه الروبرتيير في أثر الموحديين، فاضطر الموحدون الى ترك أرض لكاي الى أرض بني غمارة من بطون صنهاجة، وكانوا قد أظهروا ولاءهم للموحديين ودخلوا في طاعتهم. وعندئذ سار تاشفين والروبرتيير إلى أرض بني تاودا ونزلوا بها، وأصبح العسكران كفرنسي رهان، كلما تقدم الموحدون سار وراءهم المرابطون، ثم خرج الروبرتيير واشتبك مع الموحديين في معركة عنيفة في موضع يقال له "تازعدرا" أسفرت عن قتل عدد من القوتين، ارتد الروبرتيير على أثرها الى بني تاودا بينما سار الموحدون الى "تاغزوت" ومنها الى بني مزكلدة، ثم الى ايلانة ثم الى ايجن. وفي ايجن مرض الشيخ أبو حفص عمر بن علي أزناج أحد جماعة العشرة، فلما شعر بدنو أجله وعظ أشياخ الموحديين ونصحهم بالتمزام الصبر والتمسك والاحلاص لمبادئ ابن تومرت، وطاعة عبدالمؤمن، ثم توفي في مساء نفس اليوم ودفن في موضع يسمى "بجدار نمضى" ، ثم واصل الموحدون سيرهم في الريف، مروراً بتا مقريت ووادي لو أرض بني سعيد. ومن وراءهم الروبرتيير يتعقبهم الى أن وصل إلى مدينة تطوان، في الوقت الذي وصلت قوات الموحديين الى قلعة باديس المطللة على البحر المتوسط، ومكنت نفوذها في تلك النواحي، وواصلت من هنالك تقدمها الى ثغر المزمة ومنها الى جبل تمسامان، حيث وجه عبدالمؤمن قائده عبدالرحمن بن زكو في قوة من الموحديين لغزو مليلة، فاقتحمه وظفر بغنائم وفيرة ثم رحل الموحدون الى ندرومه من بلاد كوميه، قبيلة عبدالمؤمن ومنها واصلوا تقدمهم شرقاً إلى تاجرا مسقط رأس عبدالمؤمن وفي هذه البلدة وجه عبدالمؤمن ثلاث حملات الأولى بقيادة عبدالرحمن بن زكو، وجهتها ثغر وهران، تمكنت من اقتحامه والاستيلاء عليه، والثانية بقيادة الشيخ أبي ابراهيم اسماعيل، وكانت وجهتها قبائل بني وانوان، والثالثة بقيادة يوسف بن وانديين وسارت الى جبل مديونة من أحواز تلمسان، فخرج اليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهري، ومحمد بن يحيى بن فانو، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة في وادي الزينون، انهزم فيها المرابطون وقتل القائدان ابن الجوهري وابن فانو، وهكذا واصل الموحدون سلسلة انتصاراتهم، على

قوى المرابطين وان كانت كلفتهم كثيراً طوال حياة أمير المسلمين علي بن يوسف لمحبة الناس له وعظم هيئته في نفوس المرابطين، ثم جاءت وفاته سنة 537هـ بداية لنهاية دولة المرابطين<sup>(1)</sup> ، وتولى الحكم بعده تاشفين الذي كان متفرغاً في حياة والده لقتال الموحدين، لذلك خف الضغط على الموحدين لانشغال تاشفين عنهم بعض الوقت بشئون الحكم الداخلية وبالمحافظة على هيبة المرابطين في الأندلس ومما زاد الأمر سوءاً أن النورمان أدركوا حرج الدولة المرابطية في ذلك الوقت، وداهموا سبته بأسطول يتألف من نحو مائة وخمسين سفينة حربية في عام (538هـ) فتصدى لهم الأسطول المرابطي بقيادة علي بن ميمون وأنزل بهم هزيمة نكراء.

وفي هذا الوقت أيضاً حدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين فانضمت مسوفة الى الموحدين. وفي عام 539هـ/ 1144م تمكن عبدالمؤمن بن علي من قتل القائد المرابطي الريرتير ودخل تلمسان وفي 27 رمضان من نفس العام قتل تاشفين ودخل الموحدون وهران، وفي 14 ذي القعدة 540هـ/ دخل الموحدون فاس، وفي 18 شوال تمكنوا من دخول مراكش<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص (121 ، 122 ، 123 ، 124)

(2) انظر: المغرب الكبير (783/2 - 786)

وهكذا نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض.

ولكن خطط الموحدين كانت أحكم من خطط المرابطين، فقد اعتمد الموحدون أسلوب الحرب الطويلة مستخدمين أسلوب حرب العصابات ففضوا على اقتصاديات دولة المرابطين. كما شجع هذا الوضع الاسبان النصرارى على تشديد الضغط على المرابطين لتحويل المعركة لصالحهم وقد صور صاحب الحلل الموشية<sup>(1)</sup> ذلك بقوله: (وتأججت نار الفتنة بالمغرب، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحرب، وغلت الأسعار وتوالت الفتن، وعم الجذب وقلت المجابي وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين ووجه كثير من حماة الأندلس الى العودة ونقل اليها كثير من أسلحتها وعددها فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس واختل عليهم وألح النصرارى بالضرب على جهات بلاد الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع لما فيه من الفتن حتى تغلبوا على كثير من بلادها، وكان الإسلام بها عزيزاً والكفر مقهوراً والجزية مرتفعة منذ ملكها يوسف بن تاشفين إلى زمان خروج المهدي فساعت الأحوال وكثرت الشدائد والأهوال)<sup>(2)</sup>.

وبعد دخول الموحدين مراكش اصبح عبدالمؤمن سيد المغرب الأقصى كله، فكان لا بد من توطيد اركان

(1) مؤلفه مجهول .

(2) الحل الموشية ص (12) .

### ثالثاً: اهتمام الموحدين بالأندلس :

بعد أن احتل عبدالمؤمن بن علي مدينة فاس وحاصر مراكش تلقى من أهل سبتة بيعتهم له، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهنتاتي ولكن أهل سبتة انتقضوا على يوسف بن مخلوف وقتلوه هو ومن معه من الموحدين، وجاز القاضي عياض واليهم السابق الى يحيى بن علي بن غانية المسوفي والى الأندلس، فلقبه بالجزيرة الخضراء وطلب منه والياً على سبتة، فأرسل معه يحيى بن أبي بكر المعروف بالصحراوي، فقام بأمر سبتة وشكل حلفاً مع القبائل الخارجة عن الموحدين من أمثال برغواطة ودكالة، فاضطر عبدالمؤمن إلى قتال هؤلاء الخارجين عليه، فاستطاع أن ينكل فيهم بالقتل والأسر والسبي حتى انقادوا لطاعته، ثم عاد إلى مراكش وتقدم الصحراوي بطلب العفو عنه، فعفا عبدالمؤمن عنه، وراجع أهل سبتة طاعتهم، وكذلك أهل سلا الذين كانوا خرجوا عليه(1).

وبعد هذه المعارك الطاحنة في المغرب الأقصى واستتاب الأمر لعبدالمؤمن وجه نظره الى الأندلس وكانت كثير من مدنها قد استغلت الصراع بين المرابطين والموحدين فأعلنت ثوراتها وانفصالها عن المرابطين وزادت عنفاً هذه الثورات بعد وفاة تاشفين بن علي في عام 539هـ وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة 540هـ كذلك قام أحمد بن قيس الصوفي الثائر في مرتلة، فلما استولى أبو محمد سدراي على مرتلة أجاز ابن قيس إلى عبدالمؤمن بمراكش عام 541هـ ورغبه في احتلال الأندلس وضمها إلى دولة \_\_\_\_\_

(1) انظر: المغرب الكبير (788/2)

الموحدين فسير عبدالمؤمن معه جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفي، في شعبان 541هـ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وجيش آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. فلما عبروا الزقاق ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز بشريش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبلبة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها وافتتحوا بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدراي ابن وزير في طاعتهم، كما انضوت اشبيلية في سنة 541هـ تحت لوائهم بعد ان اقتحموها براً وبحراً، ثم دخلوا مالقة في هذه السنة. غير أن يوسف البطروجي لم يلبث ان نكث بطاعته للموحدين، وحول

الدعوة عنهم، كما ارتد عن طاعتهم ابن قيس في شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس، ومحمد بن علي بن الحجام في بطليوس، بينما بقى أبو القمر بن عزوز على طاعتهم في شريش ورندة. اضطرت أحداث الأندلس عبدالمؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان، فنزل يوسف باشبيلية التي اتخذها الموحدون حاضرة لهم في الأندلس، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية وقادس وشلب ولبلبة، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة 543هـ ولم تبدأ سنة 545هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين، واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا عبدالمؤمن بن علي وأعلنوا الدخول في طاعته وبذلك فرض الموحدون طاعتهم على قادس واشبيلية، وقرطبة، ومالقة، والجزيرة، ولبلبة، وشلب، وشريش، ومرتلة، فحاولوا استرجاع المرية في عام 546هـ وحاصروها، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به، ووصلوا إلى المسجد الجامع.

وفي سنة 549هـ تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون بن بدر اللمتوني، وتوطد نفوذهم في جنوب الأندلس. ثم تلقى السيد أبو سعيد عثمان بن عبدالمؤمن، والي الجزيرة ومالقة وغرناطة أمر أبيه بمحاصرة المرية براً وبحراً وتخليصها من النصارى، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخية أبي حفص، ونصب الموحدون المجانيق على القسبة بعد أن احتلوا المدينة وحاصروها حصاراً محكماً. وحاول الفونسو السابع الملقب بالسليطين أن ينقذ النصارى من هذا الحصار فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من 12 ألف مقاتل، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة من 6 آلاف مقاتل، اضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن، والي اشبيلية فزادت قوة الموحدين بقدمه واضطر ابن مردنيش أمام وخز الضمير ولوم النفس الشديد للرجوع من حيث أتى، إذ رأى "العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى فارتحل". وولى عسكر الفونسو الأدبار تاركين حامية قسبة المرية لمصيرها التعس، ومات الفونسو في طريقه إلى بياسة سنة 552هـ وخلا الجو للموحدين، فشددوا الحصار على القسبة، واستولوا عليها في سنة 552هـ وهكذا استرد الموحدون المرية، وقد تهدمت أبنيتها، وتغيرت محاسنها<sup>(1)</sup>.

وفي سنة 555هـ أمر عبدالمؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه، فتم بناؤه على يدي الحاج يعيش المهندس، وعلى أثر ذلك جاز

(1) انظر: المغرب الكبير (791/2)

عبدالمؤمن من طنجة إلى الأندلس، فنزل بجبل الفتح وأقام شهرين أشرف خلالهما على أحوال الأندلس، ووفد

إليه قوادها وأشياخها لتحتيته ثم أمر بغزو غرب الأندلس، فسير الشيخ أبا محمد عبدالله بن أبي حفص من قرطبة، ففتح حصن أطرافكمش من أحواز بطليوس، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر، ثم عاد عبدالمؤمن بعد ذلك إلى مراكش<sup>(1)</sup>.

#### رابعاً: فتح المغربيين الأدنى والأوسط:

تمت سيطرة الموحدين على الأندلس عام 556هـ وكانت أخبار المغرب الأوسط والأدنى تصل إلى خليفة الموحدين عبدالمؤمن من اختلاف الأمراء وتطاول العرب من بني سليم وهلال على إفريقية بالعبث والفساد، كما بلغه استيلاء النورمانديين على سواحل إفريقية، فزحف في سنة 546هـ من مراكش قاصداً مملكة يحيى بن عبدالعزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ببجاية، فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة، فخرج إليه الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم، وكان قد انتقل إليها بعد سقوط المهديّة في أيدي النورمان، فقدمه أهلها على أنفسهم، فلما علم بقدم عبدالمؤمن بن علي خرج للقائه فتلقاه بحفاوة بالغة وصحبه في غزو إفريقية ثم سار عبدالمؤمن نحو بجاية، فأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء جيوش عبدالمؤمن، فانهزم هزيمة نكراء، ودخل الموحدون بجاية ولما رأى يحيى ألا طاقه له بمحاربة عبدالمؤمن، هرب في البحر إلى صقلية لقصده الانتقال منها إلى بغداد، وحمل معه ما استطاع من الذخائر والجواهر والذهب والأموال، ثم عدل عن ذلك ونزل في بونة على

(1) انظر: المغرب الكبير (792/2)

أخيه الحارث، ثم رحل عنه إلى قسنطينة، فنزل على أخيه الحسن. أما عبدالمؤمن فقد قصد بجيوشه قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم، وحرزهم الأمنع، واقتحمها عنوة، فخرّبها، وأضرم النار في مساكنها، وقتل جوش بن العزيز ولما استولى عبدالمؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها، استعمل عليها ابنه عبدالله، ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها وكر عائداً إلى مراكش. وكان يحيى بن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبدالمؤمن على أن يؤمنه، فأمنه وأصحابه معه إلى مراكش في سنة 547هـ وأسكنه بها، ثم انتقل يحيى إلى سيلا سنة 558هـ فسكن قصر بن عشيرة إلى أن توفي في هذه السنة. أما الحسن بن علي فقد صحب عبدالمؤمن في غزواته الأولى إلى إفريقية، كما صحبه في سنة 554 في غزوته الثانية، فحاصر معه المهديّة، ثم دخلها وسكن بها ثمان سنوات إلى أن استدعاه أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن، فرحل بأهله إلى مراكش، وتوفي بتامسنا في سنة 563هـ. ثار عرب الأثيخ ورياح وزغبة في سطيف على عبدالله بن عبدالمؤمن بن علي من أجل إعادة دولة بني حماد، فأرسل عبدالمؤمن بن علي إلى ابنه مدداً، والتقى عبدالله

بن عبدالمؤمن بهم في سطيف، فانهزم العرب، وأعلنوا استسلامهم للموحدين، وقدم إليه وفد من كبارهم طائعين، فأكرمهم، ووصلهم وأعادهم إلى إفريقية معززين. وكان لذلك أكبر الأثر في دخول العرب في طاعته، فاتخذ منهم جنداً وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد ثم انه استتفرهم إلى الغزو بالأندلس، فاستجاب له منهم جمع عظيم. فلما اراد الجواز إلى الأندلس في سنة 555هـ أدخلهم بها، وجعل بعضهم في نواحي قرطبة، وبعضهم في إقليم إشبيلية، مما يلي شريش وأعمالها، وقد استكثر منهم أبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور، ويذكر المراكشي أن بالجزيرة في أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو من 5 آلاف فارس سوى الرجالة<sup>(1)</sup>. وفي هذه الأثناء كان عبدالله بن عبدالمؤمن قد خرج في جيش كبير من المصامدة والعرب ونزل على مدينة تونس سنة 552هـ، فحاصرها، وأخذ في قطع أشجارها وتغيير مياهها، وكان قد استقل بها عبدالله بن خراسان، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين، وانضم إليهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح هو وقومه من العرب فهزموا الموحدين<sup>(2)</sup>.

وتوفي عبدالله بن خراسان أثناء ذلك، فخلفه علي بن أحمد بن عبدالعزيز بن خراسان، وعاد عبدالله بفلول أصحابه إلى بجاية فكتب إلى أبيه بذلك. فخرج أبوه من مراكش في جيوش لاتحصى في 10 شوال سنة 553هـ بعد أن استخلف على مراكش أبا حفص بن يحيى، وترك معه ولده السيد أبا الحسن. ثم زحف إلى مدينة تونس ففتحها عنوة، ثم واصل زحفه إلى المهديّة، وضرب عليها الحصار. وكانت الإمدادات تأتي حاميتها من صقلية، ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر، ثم افتتحها عبدالمؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية، ودخلها في سنة 554هـ. وكان عبدالمؤمن أثناء حصاره للمهديّة قد بعث ابنه عبدالله لمحاصرة قابس، فاستولى عليها من بني كامل من رياح، المتغلبين عليها، كما استولى على قفصة من بني الورد، وعلى طبرقة من مدالع بني علال، وجبل زغوان من بني حماد بن خليفة، وشقنبارية من بني عماد بن نصر الله الكلاعي، والأريس من بني فنانة العرب ويذكر المراكشي أنه افتتح طرابلس الغرب أيضاً، وافتتح بلاد الجريد كلها<sup>(3)</sup>. وعاد \_\_\_\_\_

(1) المراكشي ص (226)

(2) انظر: المغرب الكبير (795/2)

(3) المراكشي، ص (230)

بعد ذلك إلى مراكش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلها وضمها إلى دولته، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقاً إلى السوس الأقصى غرباً، لأول مرة في تاريخ المغرب منذ عصر الولاة<sup>(1)</sup>.

## خامساً: سياسته مع النصارى واليهود وتخريجه للسياسة لضبط نظام الدولة:

أ- عندما استولى عبدالمؤمن على مراكش، قتل المقاتلة، وكفَّ عن الرعية، وأحضر اليهود والنصارى وقال: إن المهدي أمرني أن لا أقرَّ الناس إلا على ملة الإسلام، وأنا مُخيركم بين ثلاثٍ، إما أن تُسلموا، وإما أن تلحقوا بدار الحرب، وإما القتل. فأسلمت طائفة ولحقت أخرى بدار الحرب، وخزَّب كنائسهم، وعملها مساجد، وألغى الجزية، فعل ذلك في جميع مدائنه، وانفق بيوت الأموال، وصلى فيها اقتداءً بعليٍّ وليري الناس أنه لا يكثر المال، وأقام كثيراً من معالم الإسلام مع سياسة كاملة، ونادى: من ترك الصلاة ثلاثاً فاقتلوه، وأزال المنكر، وكان يؤمُّ بالناس، ويتلو في اليوم سبعا، ويلبس الصوف الفاخر، ويصوم الاثنين والخميس، ويقسم الفئ بالشعر فأحبهوه، وكان يأخذ الحق إذا وجب على ولده، ولم يدع مشركاً في بلاده لا يهودياً ولا نصرانياً، فجميع رعيته مسلمون (2).

ورأى عبدالمؤمن أنه من الحزم والفتنة أن يضع للدولة نظاماً موطدة الدعائم، فأطلق حرية العلوم والمعارف، وسارفي كل ذلك مع نهج الدين الحنيف، وبنى عدداً من المساجد والمدارس الفخمة التي غدت مراكز للعلوم

(1) انظر: المغرب الكبير (799/2)

(2) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (370/20 ، 371)

والآداب، وقرنها بالخدمة العسكرية دوماً، مع التمرين على فنون الحرب، ذلك أن عبدالمؤمن كان يخشى أن يؤدي الانقطاع الى العلم والدرس إلى اضعاف الهمم، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين.

كما أنشأ عبدالمؤمن مدرسة لتخريج رجال السياسة، وموظفي الحكومة، وقادة الجيش، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره، ويمتحنهم فيما درسوا، ويوجه إليهم الاسئلة بنفسه تشجيعاً لهم على الاجتهاد، ولكي يجعل منهم رجالاً أكفاء قادرين على نفع البلاد في السلم والحرب.

وفي أيام أخرى كان يمتحن تدرجاتهم العسكرية، فيختبرهم في الطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدّها ووضع فيها سفناً كبيرة وصغيرة ليتدرب الشباب على قتال البحر، وقيادة السفن، والوثب على سفن العدو، ويقدم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة بنفسه (1).

لقد استطاع عبدالمؤمن في نحو عشرين سنة أن ينشئ نظاماً جديداً للدولة، إذ لم يبقى من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوئته. وكان أشد مايعنى به عبدالمؤمن - وهو من أعظم قادة عصره - تنظيم شؤون الحرب والجهاد التي بث فيها بجهوده ومتابعته، نهضة إحياء شاملة وإليك وصفاً لنظام سير

الموحدين، وتقسيمات الجيش، كما كان عندما استولى على تونس والمهدية من النورمان الصقليين<sup>(2)</sup>.

كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس، وكانت علامة \_\_\_\_\_

(1) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين يوسف اشباخ (50/2)

(2) انظر: الأراك د. شوقي ابو خليل ص (29)

المسير ثلاثة قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعاً، مدهون بلون الموحدين الأخضر، ومحلّى بالذهب، وقد صنّع من خشب رنّان، فكان يُسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضُرب في مكان مرتفع في يوم ساكن لا ريح فيه، وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص، وهو يحمل مطوياً أثناء السير، ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق، وعليه هلال مذهب، وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب، هذا غير ما يتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام تسير تحت إشراف الرعاة، وتُخصّص لغذاء الجند، وكان جيش عبدالمؤمن النظامي يتألف - فضلاً عن الفرسان - من سبعين ألفاً من المشاة، وكان ينقسم إلى أربعة جيوش، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير مسيرة يوم، وذلك حتى لا يقع نقص في الماء، أو ضيق في المكان، وإذا كان معظم الجند مثقلاً بالسلاح فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر، حتى يتسنى للجند أن يبدأوا السير في اليوم التالي بقوى مجددة، وترتب على هذا التمهّل في مسير الجيش أن اقتفى عبدالمؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس، وهي مسافة كانت تقطعها فرقة الفرسان الخفيفة في نحو شهرين فقط. وكان عبدالمؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة، وأدوا معه الصلاة، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه، وإلى قيادة الجند التابعين له، وكان يتقدمه مائة شيخ وقائد، يمتطون جياداً مطهّمة وينقلدون أسلحة فاخرة، ويرتدون ثياباً فخمة، وكان يحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذي غنمه الموحدون من قرطبة، تبرّكاً وتيمناً، وقد وضع في - صندوق - بديع الصنع، محلّى بصفائح الذهب: مرصع بأروع اللآلئ والاحجار الكريمة، حتى إنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين، وبني عباد ملوك اشبيلية، وبني هود ملوك سرقسطة، والمرابطين، قد اجتمعت فيها جميعاً وتكدّست. وهذا الصندوق يحمل في هودج ثمين، وعلى جوانبه الأربعة أربعة أعلام، ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبدالمؤمن، والى جانبه ولده وكاتب سره السيد أبو حفص والى تلمسان، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف، ويتبعه على قيد مسافة قصيرة الأمراء وأبناؤه الآخرون<sup>(1)</sup> الذين يرافقون الجيش، ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها، وعدد من قارعي الطبول على خيول عالية، والنافخون في الأبواق والقرون<sup>(2)</sup> وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية، ثم الولاة والقضاء والوزراء والكتاب، وبعد ذلك يأتي الجند متعاقبين في نظام محكم، فإذا حل الوقت الذي ينتظم

فيه المعسكر، أفرد لكل قسم مكانه المعين ولاسمح لانسان أن يترك المعسكر دون اذن القائد المختص، ثم توزع الأوقات التي يحمل الجيش منها مقادير وافرة، على الجند بأنصبة متساوية، فلا يُقْتَر على أحد منهم. يستنتج من هذه النظم الصارمة، ومن المثابرة على التمارين الحربية، ومن دراسة حياة الموحدين:

- 1- ان عبدالمؤمن كان يعتني عناية خاصة باختيار مواقع القتال.
- 2- كان يتولى القيادة بنفسه في كل الأمور الحاسمة الهامة.
- 3- وكان يتبع نظاماً جديداً في منتهى البساطة، ولكنه جم الفوائد.
- 4- وأن قيمة الجيش ليست في عدده، إنما هي قبل كل شيء في مقدرته وكفاءته ومعنوياته وإيمانه، وكان عبدالمؤمن يرى أن القوة الرئيسية يجب أن \_\_\_\_\_

(1) كان لعبدالمؤمن ثلاثة عشر ولداً

(2) القرن هنا: آلة موسيقية تعتمد على النفخ، تشبه تماماً القرن المعروف على رأس البقر أو غيره.

تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب، حسنة التسليح، فهي العامل الحاسم في مصير المواقع وفي اقتحام المدن، مع وجود جيش ضخم من الفرسان لا يستغني عنه في المعارك.

ومن أعمال عبدالمؤمن: مسح جميع أراضي مملكته، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية، وعن خواصها وثروتها وغلاتها. وكان يرمي من ذلك إلى تقرير الضرائب من ناحية، وأن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه من ناحية أخرى، فسكان الثغور في المغرب والأندلس يقدمون البحارة والسفن، والمناطق الصحراوية والفنية بالخيال تقدم الفرسان ودواب الحمل والجمال، وعلى الولايات الأخرى في المدن الداخلية مثلاً - تقديم الجند المشاة والسلاح، كل بنسبة سكانها.

وكان عبدالمؤمن يحتفظ بالسلاح بكميات وافرة، وبمقادير جيدة في المخازن المعدة له. وأنشأ مصانع السلاح في كثير من قواعد مملكته تعطي القسيّ والنُشَاب والخوذات والدروع والسهام.. وآلات الرمي والمنجنيقات التي تستخدم في الحصار<sup>(1)</sup> وعزم عبدالمؤمن على تغيير نظام الطبقات ولذلك قام بحركة واسعة للقضاء على كل العناصر الغير موالية له وتخلص من كل العناصر التي لم يكن ولاؤها له غير مؤكد. ومشاغبتها عليه محتمل وقوعه وخافه الموحدون خوفاً عظيماً وأرعبت النفوس منه وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه الشخصية وطموحه الذاتي، فمن هذه الظروف أن طبقة الجماعة قد تناقص عددها تناقصاً كبيراً. فقد قتل خمسة أفراد من أعضاء هذه الطبقة في موقعة البحيرة سنة 524هـ التي هزم فيها

الموحدون من قبل القوات \_\_\_\_\_

(1) انظر: معركة الأراك ص (32)

المرابطية. وهؤلاء هم: أبو محمد عبدالله بن محسن الوانشرشي وسليمان بن مخلوف الحضرمي، وأبو عمران موسى بن تماري الكدميوي وأبو يحيى ابن بيكيت وأبو عبدالله بن سليمان. أما أبو حفص عمر بن علي أصناك، فقد توفي سنة 536هـ وقتل عبدالله يعلي بن ملوية سنة 527هـ بعد أن خرج على الخليفة عبدالمؤمن. إذ أنه حقد على الموحدين بيعتهم له أما أبو الحسن بن واكك، فقد قتله طلحة غلام أبي اسحاق أمير المسلمين المرابطي سنة 541هـ.

وإذن فقد توفي في طبقة الجماعة، المكونة من عشرة أشخاص، ثمانية أفراد، ولم يعد باقياً على قيد الحياة منهم إلا أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وعبدالمؤمن بن علي وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لطبقة الجماعة، فإنه من المؤكد أن الكثيرين من أعضاء طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين، وغيرها من الطبقات قد تناقص بسبب الحروب المستمرة التي خاضها الموحدون. ولذلك أتيحت وفاة الكثيرين من أعضاء طبقات الموحدين، فرصة طيبة لعبدالمؤمن بن علي لأن يجري تعديلاً في نظام الطبقات<sup>(1)</sup> وبعد أن تخلص من أكثر من (32080) شرع لتنفيذ المخطط الهادف لتغيير نظام الطبقات فأصدر أوامره لجميع الموحدين من المصامدة وغيرهم بالحضور إلى حضرته في مراكش فحضرها والرعب يملأ جوانحهم والخوف يملأ قلوبهم، خوفاً ورهبة مما يخبئه لهم الخليفة. لقد رسم عبدالمؤمن خطته في اناة وروية، ونفذها على خطوات وعلى مهل وفي غير استعجال، حتى إذا ما استوفى ربط الحلقات واحكامها، جاءت نتيجة خطته محققة لما وضعها من أجله. وهي أن يكون له في الدولة كل شيء ولا يكون للموحدين أي شيء. هكذا أصبح عبدالمؤمن خليفة الموحدين

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (58)

اسماً وفعلاً.

ولما أن أصبحت الحال تلك، وأحضر الموحدين إلى حاضرة مراكش، أعلن فيهم تغيير نظامهم الطبقي وأعلن عليهم النظام الجديد وحدد فيه مكان كل منهم وتغيرت الطبقات من أربعة عشرة طبقة إلى ثلاث طبقات: (فالطبقة الأولى: هم السابقون الأولون الذين بايعوا بن تومرت، وصحبوه وغزوا معه وصلوا خلفه، والذين شاهدوا البحيرة وباعوا بفضلها واشتملوا بردة شرفها وارتقوا إلى ذروة الحظوة بها، وشهد لهم بالفضل الذي لا يوازي والرتبة التي لا تعادل. ويتلو هذه الطبقة: من آمن بهذا الأمر ودخل في هذا الحزب وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران. والطبقة الثانية من فتح وهران إلى هلم جرا. من النظر إلى التنظيم الجديد لطبقات الموحدين، يتبين أن عبدالمؤمن ألغى طبقة الجماعة الغاء نهائياً، وهي الطبقة التي كان لها الحق الأول في إدارة شئون الموحدين ومراقبة الخليفة. هذا بالإضافة إلى أنه ألغى طبقتي أهل

خمسين وأهل سبعين وهما الطبقتان التاليتان لطبقة الجماعة في النفوذ والسيطرة. وهكذا أزاح عبدالمؤمن من أمامه الطبقات ذات الشأن في نظام ابن تومرت. بل إن عبدالمؤمن ألغى الطبقات الأربعة عشر، وجمعها كلها في طبقة واحدة، وهي الطبقة الأولى في نظامه. وهو قد ذهب إلى مدى أبعد، إذ جعل في هذه الطبقات كل من رأى بن تومرت وبايعه وصلى خلفه واشترك معه في حروبه. ليس هذا فقط، بل وكل من اشترك في غزوة البحيرة التي هزم فيها الموحدون عند أحواز مراكش من قبل المرابطين، يوم الثاني عشر من جمادى الثانية من سنة خمس مائة وأربعة وعشرين هجرية الموافق الثالث عشر من مايو سنة 1130م.

ومعنى هذا أن عبدالمؤمن حطم نفوذ الطبقات المتنفذة الأولى في نظام بن تومرت ثم انه ساوى بين أعضاء الطبقات الأخرى والطبقات الثلاثة الأولى، وجعل مكانة الجميع على قدم المساواة. وهذه المساواة بين أفراد الطبقات أتاحت لأفراد الطبقات الاحدى عشر الأخيرة في النظام الملغي، كسباً معنوياً كبيراً وفائدة مادية جلية. وبهذا استطاع أن يكسب ود وإخلاص وتأييد أفراد هؤلاء الجماعة لاتاحت له هذه الفرصة الذهبية. كما وأن التنظيم الجديد أتاح للكثيرين ممن كانوا خارج الطبقات الموحدية، فرصة الانتماء للنظام الموحدى واكتسابهم شرف الانضواء تحت رايته.

أما الطبقة الثانية، فهي تشمل كل الذين دخلوا في حركة الموحدين، منذ موقعة البحيرة سنة 524هـ وحتى فتح وهران سنة 538هـ وهذا يعني أن النظام الجديد أتاح الفرصة للجماعات والقبائل المختلفة التي دخلت في طاعة الموحدين بعد سنة 524هـ وحتى سنة 538هـ. سواء كانت هذه الطاعة قد جاءت طواعية واختياراً أو اجباراً وقسراً بحد السيف. وهكذا استطاع عبدالمؤمن بحركة بارعة أن يستل الضغينة من نفوس الذين فرضت عليهم طاعة الموحدين بعد عام البحيرة وحتى فتح وهران. وذلك بمساواتهم بغيرهم من الموحدين الأولين، وادراجهم في الطبقة الثانية من النظام الجديد. وهذا بطبيعة الحال أدى إلى انتشار الرضى بينهم واطمئنانهم إلى مستقبلهم الذي يبشر به انضواؤهم في النظام الطبقي للموحدين. وهي إلى جانب الكسب المعنوي والسياسي، قد أتاحت لهم فرصة الاستفادة المادية إلى أبعد مدى.

وهذه الطبقة سوف تنظر بعين الرضى والتأييد للخليفة عبدالمؤمن بن علي، الذي أقدم بشجاعة فائقة على تغيير النظام القديم، وأتاح لأفرادها شرف الانتماء إلى النظام الموحدى، بل وفي الطبقة الثانية منه، وبهذا استطاع عبدالمؤمن أن يجعل أفراد هذه الطبقة من المخلصين له والمؤيدين لسياسته والدافعين لأعدائه.

والطبقة الثالثة، تضم من دخل حركة الموحدين منذ فتح وهران سنة 538هـ وإلى أي زمن تلا ذلك، فاتحاً الباب لكل من يطيع الموحدين لأن ينتظم في سلك الطبقة الثالثة.

ثم أن عبدالمؤمن لما أن افتتح المغرب الأوسط وأدخله في دولة الموحدين، بعد أن قضى على امارة بني

حماد فيه، قام بمحاربة قبائل بني هلال، الذي وقفوا في وجهه. وتمكن الموحدون من هزيمتهم في أكثر من موقعة وأرغموهم على الخضوع والطاعة. وبدلاً من أن يقوم عبدالمؤمن بالانتقام من هذه القبائل وزعمائها، نجده ينقل معه ألفاً من كل قبيلة منهم وينزلهم بالمغرب الأقصى كما قام في نفس الوقت برد الأموال والحرم التي غنمت من تلك القبائل ومنحهم جزييل العطاء. وعن هذه الأحداث يذكر البيهقي قائلاً: "وأما ما كان من أمر غنائم العرب وسببها، فترك منها أمير المؤمنين في فاس ومكناسة وفي سلا وحمل مع نفسه سلاطينهم إلى مراکش وعيالهم وهم: ديفل بن ميمون وحباس بن الرومية وابن الزحامس وابن زيان، وأبو قطران، وأبو عرفة، والقائد ابن معرف. فهؤلاء الملوك رد لهم الخليفة عيالهم وأعطاهم المال وصرفهم إلى بلادهم. فقالوا للخليفة تأمرنا بالرجوع إليك. فقال لهم الخليفة مجابواً لهم نحن نصل إليكم ورددكم كافة بنسائهم حملها لهم القبائل وكان ذلك في عام 547هـ"<sup>(1)</sup>.

هذا بالإضافة إلى أن الخليفة بعد غزوته للمغرب الأدنى، أحضر معه الكثير من قبائل العرب وأنزلهم بالمغرب الأقصى. وهو في الواقع قام بهذا العمل، ليبعد شر هذه القبائل عن أفريقية والمغرب الأوسط ويجعلها في متناول يده،

(1) البيهقي اخبار المهدي ص (116)

كما أنه كان يرمي إلى كسب ودها واستخلاص ولائها. كما وأن جلبه لتلك الآلاف منهم وانزالهم بالقرب منه، يخفي وراءه سياسته في أن يتقوى بهم ويجعلهم كعصبية له ضد ثورة المصامدة المحتملة<sup>(1)</sup>.

وحرص على ملاطفة العرب واستمالتهم وحرصهم على قتال النصارى ودخول الأندلس معه فقال:

أقيموا إلى العلياء هوج الرّواحل

وقودوا إلى الهيجاء جُرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة تائري

وشدوا على الأعداء شدة صائل

فما العز إلا ظهرُ اجرد سابع

وأبيض مآثور وليس سائل

بني العمّ من عليا هلال بن عامر

وما جمعت من باسل وابن باسل

تعالوا فقد شدّت إلى الغزو نية

عواقبها منصوره بالأوائل

هي الغروة الغراء والموعدُ الذي  
تنجّر من بعدِ المدى المتطاوَلِ  
بها نفتح الدنيا بها نبلغ المنى  
بها نُنصِفُ التَّحقيقَ من كلِّ باطلِ  
فلا تتوانوا فالبداءُ غنيمةٌ

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (57، 58، 59، 60)

وللمُدِّ لج السَّاري صفاء المناهلِ (1)

وكانت الشعراء تقصد عبدالمؤمن لمدحه، ولما قال فيه النَّفَّاسي قصيدته:

ماهرٌ عطفه بين البيض والأسلِ

مثل الخليفة عبدالمؤمن بن علي

أشار إليه أن يقتصر على هذا المطلع، وأمر له بألف دينار (2) ولما سار عبدالمؤمن بجيوشه ونزل جبل طارق، وسماه جبل الفتح، فأقام أشهراً، وبنى هناك قصوراً ومدينة، ووفد إليه كبراء الأندلس، وقام بعض الشعراء منشداً:

ماللعدى جُنَّةٌ أوقى من الهرب

أين المعزُّ وخيلُ الله في الطلب

وأين يذهب من في رأس شاهقة

وقد رمته سهامُ الله بالشهُبِ،

حدّث عن الروم في أقطار أندلسِ

والبحر قد ملأ البرين بالعربِ

فأعجب بها عبدالمؤمن وقال: بمثل هذا يمدح الخلفاء (3) وبعد أن أطمأن عبدالمؤمن إلى سلامة الخطوات التي اتخذها في سبيل أن تكون له السيادة الكاملة في الدولة، وضمن تحطم نفوذ الشخصيات البارزة في مجموعة الموحدين، وتأكد له ولاء أغلب الطبقات في النظام الجديد، وبعد أن ضمن حماية نفسه وأسرته بمجموع بني هلال وسليم التي أنزلها في أحواز مراكش،

(1) انظر: سير اعلام النبلاء (373/20)

(2) انظر: سير اعلام النبلاء (370/20)

(3) انظر: سير اعلام النبلاء (372/20)

أقدم على الخطوة الخطيرة التي مافتى يستعد لها ويمهد الطريق أمامها ألا وهي جعل الحكم في دولة الموحدين في عقبه، وتوليه أحد أبنائه ولياً لعهد<sup>(1)</sup>.

وفي عام 549هـ أعلن عبدالمؤمن للملأ من طبقات الموحدين والقبائل الداخلة في طاعتهم، من بني هلال وصنهاجة، توليته لابنه محمد ولياً لعهد و قامت تلك الجماعات في الحال بالموافقة على ذلك الأمر، وبايعت لولي العهد. وقد بين الخليفة في رسالة بعث بها إلى طلبة الموحدين في سبته وطنجة، الظروف التي تمت فيها تولية ابنه لخلافته والعوامل التي فرضت عليه ذلك، فجاء فيها: "ولكم أن كثيراً من أولياء هذه الدعوة العلية واخوانها من أشياخ الأنظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر أخرته الخيرة لميقاتها، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها... وكانت العشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها، حاضرة وبادية من أهل اقليمها وذوي ألبابها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انشراحهم ويعلمون أنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ولم تزل مخاطبتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين ورغباتهم تتأكد لما كان عندهم فيه من تلج ويقين. فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفادة، للأخذ بأطناب السعادة المنيفة بهم على مقتضى الآمال والإرادة، صرحوا لأول لقاءهم بما أضمره، وأبدوا سرهم المكنون وأظهره. واعلموا أن محمداً - وفقه الله - هو الذي ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه، ورغبوا في تقديمه على بلادهم وانفاذه معهم على قصده في توليته مرادهم... فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجمع في هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم وندناكر معهم في ذلك الأمر المسئول ونعارضهم فيه على \_\_\_\_\_ (1) انظر: سقوط الموحدين ص (60)

الجملة والتفصيل، ونلقي إليهم حديث القوم المذكورين، بأتم وجوه الالقاء والتوصيل فكان ذلك على ما أقصد وذكرنا في الأمر على ما أتوخى فيه واعتمد. وعرفوا بأن ذلك ليس مما بنى عليه ولا مما اعتقد... وتقدمهم الشيخ الأجل أخونا أبو حفص عمر بن يحيى - أعزه الله بتقواه - هذا أمر نحن بتقديمه وأعلم بوجوبه ولزومه وأولى بتأميره علينا وتحكيمه. ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه. فهو مختارنا للدين والدنيا وسؤلنا المأمول للحياطة والرعياء.. وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء: هذا أمر في ضمائر أكثر معقود وفي نفوس جمهورنا موجود وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد... وابتدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور بيميناه، قصد اعتقادها على أكرم وجه وأسناه، وتتابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم وسرى النعيم بها في أبقارهم ومناهم، وباشرها من حضرها من القبائل الموحدين وسائر اخوانهم المؤمنين قبيلاً بعد قبيل<sup>(1)</sup>.

يتبين لنا من هذه الرسالة نقاط أولها أن عبدالمؤمن يبعد عن نفسه شبهة التفكير في تولية أحد أبنائه لخلافته في الحكم.

وثانيها أن هذه الفكرة إنما أثارها قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية. وهي التي لم تكتف باثارة الموضوع، بل وألحت عليه. ومسألة تعيين الحاكم أو الخليفة في دولة الموحدين، ليست من الأمور البسيطة التي يمكن لمثل هذه القبائل أن تبدي رأيها عنها وتتدخل فيها. فهي مسألة حساسة وتمس الحركة الموحدية في جوهرها فالواجب أن يثيرها الموحدون أنفسهم لا هذه القبائل التي \_\_\_\_\_

(1) انظر: سقوط الموحدين ص (62)

اخضعت بحد السيف. وتدخل هذه القبائل في مثل هذا الموضوع، يثير الشك بأن الخليفة عبدالمؤمن هو الذي أوحى لها بأن تثير وتلح عليه.

والنقطة الثانية، هي أن الموحدين وأشياخهم لما أن جمعهم الخليفة في حضرته، وعرض عليهم رغبة قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية في أن يتولى ابنه محمد الحكم بعده، بينوا أنهم أولى من غيرهم في اقتراح مثل هذا الأمر وأنهم أولى بعقد النية والعزم عليه. والحقيقة أن تغيير نظام الطبقات جعل عبدالمؤمن السيد المطاع بلا منازع في دولة المرابطين ولذلك بادروا وسارعوا بالموافقة لما أراد وتقديم البيعة لولي عهده، النقطة الرابعة: يبدو أن أبا حفص عمر بن يحيى وجد نفسه أمام أمر الواقع ولذلك بادر باظهار الرضى عن هذه البيعة وكان أول المبايعين لابن عبدالمؤمن وتنازل أمام ضغط الواقع عن حقه الطبيعي لعبدالمؤمن في الحكم.

وهكذا استطاع عبدالمؤمن أن يجعل الحكم وراثياً في عقبه وبذلك يكون انحراف عن تعاليم ابن تومرت في قضائه على الطبقات وجعل الحكم وراثياً.

وبهذا الفعل ثارت حفيظة الكثيرين من الموحدين مما دفع بعضهم بالثورة عليه ومن الطبيعي أن يكون أهل بن تومرت أول المعارضين لعبدالمؤمن ولذلك قامت خيانات في الجيش الموحد بقيادة يصلتين بن المعز الذي انفصل بجيشه في معارك الموحدين مع العرب في المغرب الأوسط مما سبب في انتصار بني هلال على جيش ابن واندوين والقضاء على أغلبه، وقتل قائد الجيش الموحد في المعركة. وطمع بنو هلال أثر هذا الانتصار في الموحدين الذين اهتزت روحهم المعنوية لهذه الهزيمة. ولكن عبدالمؤمن بقدرته العسكرية الفذة استطاع أن يهزم تلك القبائل وأن يحافظ على وحدة الجيش الموحد وارتفاع روحه المعنوية، وظهر للموحدين بمظهر الرجل الفذ القادر على الوقوف في وجه العواصف الهوج، ففوت بعمله ذاك الفرصة على يصلتين الذي كان يرمي إلى القضاء على جيش عبدالمؤمن بفعله ذاك والقي القبض على يصلتين وقتل

في سبته عام 546هـ بتهمة الخيانة العظمى.

وفي عام 549هـ حاول أخو بن تومرت، عيسى وعبدالعزیز في مدينة مراکش القيام بثورة على عبدالمؤمن والاستيلاء على مقاليد الحكم إلا أن المخلصين من انصار عبدالمؤمن واهل مراکش افشلوا تلك المحاولة الفاشلة وكان عبدالمؤمن بعيداً عن مراکش في سلا، وقبض على المتآمرين وكان تعدادهم الثلثمائة شخص وقتلوا جميعاً واعدم اخوا بن تومرت وفي عام 555هـ حاول بيت بن تومرت اغتيال عبدالمؤمن إلا أن تلك المؤامرات اهبطت في مهدها وشعر عبدالمؤمن بضرورة جلب قبيلته لحمايته من المؤامرات المتكررة، فأنفذ الأموال إلى زعماء قبيلته وأمرهم أن يأتوه ركبناً ويركبوا معهم كل من تجاوز سن اللحم من أبناء القبيلة.

وقد وصل رجال قبيلة كومية سنة 557هـ إلى مراکش في تعداد تجاوز الاربعين ألفاً وفرح بهم عبدالمؤمن فرحاً عظيماً وأزلهم في مراکش واعطاهم الدور ووزع عليهم البساتين، وجعل منهم حرسه الخاص الذي يقف بين يديه في جلوسه ويحيط به في تسياره وبذلك اطمئن على نفسه على حكم ابنائه من بعده.

إن الخطوات التي اتخذها عبدالمؤمن من ابعاد قبائل المصامدة وشراء خدمات قبائل بني هلال، واسناد أمر الحماية إلى قبيلته كومية، والقضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات جعل من الموحيدين خدماً لمصلحة فرد وأطماعه المادية بعد ان كانوا يخدمون فكرة ويدافعون عن مبدأ، ففقدت نفوسهم تلك الروح المتوثبة والحماس الشديد في سبيل تقدم الدولة ونجاح الدعوة.

إن مسلك عبدالمؤمن في جعل الحكم وراثياً ساهم في ايجاد تنافس شديد وتنازع مميت بين ابناء عبدالمؤمن فيما بعد، بل سفكت دماء، وحيكت مؤامرات دنيئة بين الأخوة في سبيل تولي الحكم، وكان من نتيجة ذلك كله ضعف الدولة، وتدهورها السريع في فترة ليست بالطويلة<sup>(1)</sup>. لم يكتفي عبدالمؤمن ببيعة الموحيدين لابنه بل قام بتعيين ابنائه على أغلب ولايات الدولة، وجعل إلى جانبهم وزراء من الطلبة ليكونوا مرشدين وناصحين لهم. ومن الأمور المهمة والأحداث ذات الدلالة في تاريخ دولة الموحيدين، ظهور التكلات التي ساهمت في اضعاف الدولة، وكانت سبباً في وقوع وزيرين في نكبتين عظيمتين على يد عبدالمؤمن وهما: الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية، وعبدالسلام الكومي<sup>(2)</sup>.

### شيء من سيرة عبدالمؤمن ووفاته:

1- لما نزل عبدالمؤمن سلا وهي على البحر المحيط ينصب إليها نهر عظيم ويمر في البحر عبر النهر، وضربت له خيمة، وجعلت جيوشه تعبر قبيلة قبيلة، فخر ساجداً، ثم رفع وقد بلّ الدمع لحيته، فقال: أعرف ثلاثة ورثوا هذه المدينة لاشيء لهم إلا رغبة واحد، فراموا عبور هذا النهر، فبذلوا الرغيف لصاحب

القارب على أن يُعَدَّ بهم، فقال: لا آخذه إلا عن اثنين، فقال احدهما وكان شاباً: تأخذ ثيابي وأنا أسبح، ففعل، فكان الشابُ كلما أعيأ، دنا من القارب، ووضع يده عليه يستريح، فيضربه بالمجذاف، فما عدَّى الا بعد جُهد

---

(1) انظر: سقوط الموحدين ص (62، 63، 64، 65، 66، 67، 68)

(2) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (69)

فما شك السامعون أنه هو السابح، والآخزان بن تومرت، وعبدالواحد الشرقي<sup>(1)</sup>.

2- ذكر ابن العماد في شذرات الذهب عبدالمؤمن بن علي فقال: (كان ملكاً عادلاً سائساً عظيم الهيبة عالي الهمة كثير المحاسن متين الديانة قليل المثل وكان يقرأ كل يوم سبعاً من القرآن العظيم، ويجتنب لبس الحرير ويصوم الاثنين والخميس ويهتم بالجهاد والنظر في الملك كأنما خلق له وكان سفاكاً لدماء من خالفه سأل أصحابه مسألة ألقاها عليهما فقالوا لا علم لنا الا ما علمتنا فلم ينكر ذلك عليهم فكتب بعض الزهاد هذين البيتين ووضعهما تحت سجادته وهما:

ياذا الذي قهر الانام بسيفه

ماذا يضرك أن تكون إلهاً

الفظ بها فيما لفظت فإنه

لم يبق شيء أن تقول سواها

فلما رآها وجم وعظم أمرهما وعلم أن ذلك بكونه لم ينكر على أصحابه قولهم لا علم لنا إلا ما علمتنا فكان عبدالمؤمن يتزياً بزبي العامة ليقف على الحقائق فوقعت عيناه على شيخ عليه سيما الخير فتقرس فيه أنه قائل البيتين فقال له أصدقني أنت قائل البيتين قال أنا هو قال لم فعلت ذلك قال قصدت اصلاح دينك فدفعت إليه ألف دينار فلم يقبلها ومن شعره وقد كثر الثوار عليه:

لاتحفلن بما قالوا وما فعلوا

أن كنت تسموا إلى العليا من الرتب

---

(1) انظر: سير اعلام النبلاء (373/20)

وجرد السيف فيما انت طالبه

فما ترد صدور الخيل بالكتب<sup>(1)</sup>

3- فبعد أن أتم عبدالمؤمن افتتاح المغرب الأوسط وإسقاط امارة بني حماد فيه، وافتتاح المغرب الأدنى

وإجلا النورمانديين منه إلى صقلية، وضمها إلى دولة الموحيدين، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقة شرقاً حتى البحر المحيط غرباً، ويشمل سلطانه معظم بلاد الأندلس الإسلامية، ويعد أن تم له تعيين ابنه ولياً لعهد، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة وقضى على أغلب المتأمرين ورؤوس الفتنة، وخضد شوكة افراد بيت بن تومرت، وعمل على تقوية جانبه باصطناع أعراب بني هلال وتقويه ظهره بعصبية قبيلته، شرع في الاعداد للمشروع العسكري الكبير الذي نوى القيام به، ألا وهو دخول الأندلس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والامارات الاسبانية وكل من تمرد على دولة الموحيدين ولذلك استعد عبدالمؤمن لهذه الحملة(2).

يقول ابن صاحب الصلاة: (تم اعداد مائتي قطعة بحرية جديدة في دور الصناعة بمرسى المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادي سبو، وغيره من الدور في بلاد المغرب وسواحل الأندلس وهذه القطع تعتبر اضافة لقطع الأسطول الموحيدي الزاخر. وكانت الاستعدادات في نفس الوقت تجري لتدريب الرجال على أفانين القتال البحري والتهيئة له. كما أنه: "وأعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة، ما عاينته مكسأ كأمثال الجبال بما لم يتقدم الملك قبله.. ونظر في استجلاب الخيل

(1) انظر: شذرات الذهب (183/40)

(2) انظر: سقوط دولة الموحيدين ص (77)

له من جميع طاعاته بالعدوة وافريقية، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على أجمل الهيئات والدروع والبيضات والترسة، إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس، ما استغريته الأذهان ولا تقدم بمثله زمان. وقسم ذلك كله على الموحيدين...)(1).

خرج عبدالمؤمن بن علي من مراكش في جموع الموحيدين ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول من عام ثمانية وخمسين وخمسائة هجرية (558هـ) وانتهى به السير في رباط الفتح من مدينة سلا. ونزلت الجيوش في الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل وكان تعداد الجيش حوال مائة الف راجل ومائة ألف فارس. وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة، تقسيم الجيش أربعة أقسام، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد اسبانيا:

1- الجيش الأول: يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال.

2- الجيش الثاني: إلى فرناند ودي ليون.

3- الجيش الثالث: إلى الفونسو الثامن ملك قشتالة.

#### 4- الجيش الرابع: يسير إلى برشلونة.

غير أن الذي غير هذا المخطط وجمّد هذا العمل الكبير، مرض عبدالمؤمن بن علي المفاجئ، وانتظار الموحدين شفائه، إلا أن المرض أصاب قوته وأظهر ضعفه حتى اسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جماد الآخرة من سنة 558هـ<sup>(2)</sup> قال ابن كثير في عام ثمان وخمسين وخمسمائة:

(1) ابن صاحب الصلاة ص (213 ، 215)

(2) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (78)

"فيها مات صاحب المغرب عبدالمؤمن بن علي، وخلفه من بعده في الملك ابنه يوسف وحمل أباه إلى مراكش على صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وباعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبدالمؤمن هذا حازماً شجاعاً، جواداً معظماً للشريعة، وكان من لايحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المساجد، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها، كثير الخشوع، ولكن كان سفاكاً للدماء، حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله يحكم فيه بما يشاء...)(1).

إن المنتبغ لتاريخ عبدالمؤمن بن علي يلاحظ بوضوح أن حماسه لدعوة بن تومرت تبدد حيث انشغل بالأمر السياسي والعسكرية واكتفى بالقيام بزيارة قبر ابن تومرت بين الفينة والأخرى، كرمز على محبته له ولدعوته، أما العمل على تأصيلها في نفوس الناس ونشرها في أماكن جديدة فلم يذكر المؤرخون - على حسب اطلاعي - أنه قام بشيء من هذا، وبدل على ذلك أن عبدالمؤمن لما بسط سلطانه على بلاد المغرب والأندلس لم تنتشر دعوة ابن تومرت في تلك الديار، ولم تتأصل محبتها في قلوب سكانها كما تأصلت عند سكان بلاد المغرب الأقصى الذين انتشرت بينهم تلك الدعوة في عصر بن تومرت ولم يسر ظل الدعوة الموحدية جنباً إلى جنب مع الظل السياسي للدولة في عهد عبدالمؤمن وإن كان استمر على نفس البرنامج التعليمي الذي وضعه بن تومرت وصادر أوامره إلى كافة الموحدين بشأن ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها وكان ذلك تكتيكاً من عبدالمؤمن لكي يحافظ

(1) البداية والنهاية (264/12)

على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت. إن تاريخ عبدالمؤمن يشير إلى أنه لم يكن جاداً في الالتزام الحرفي لدعوة بن تومرت، ولعل ماتحملة دعوة بن تومرت من شطط وغلو في بعض افكارها من الأسباب الرئيسية التي جعلته يحجم عن العمل على نشرها حتى لا يحدث رد فعل مضاد له مما يعرض

---

(1) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد السادس ص (572 ، 573)

## المبحث الثاني

### أبو يعقوب يوسف

هو السلطان الكبير، أبو يعقوب يوسف ابن السلطان عبدالمؤمن بن علي ، صاحب المغرب. قيل بأنه تملك بعد أخيه المخلوع محمد لطيشه ، وشربه الخمر، فخلع بعد شهر ونصف، ويبيع أبو يعقوب ، وكان شاباً مليحاً، ابيض بجمرة ، مستدير الوجه، أفوه، أعين ، تام القامة حلو الكلام فصيحاً، حلو

المفakهة، عارفاً باللغة والاحبار والفقه، متفنناً، عالي الهمة ، سخياً، جواداً، مهيباً، شجاعاً خليفاً للملك(1).

### أولاً علمه وبيعته:

#### أ- علمه:

قال عبدالواحد بن علي التميمي : صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، أظنه البخاري. قال: وكان شديد الملوكية ، بعيد الهمة ، جواداً ، استغنى الناس في أيامه. ثم إنه نظر في الطب والفلسفة، وجمع كتب الفلاسفة ، وتطلبها من الاقطار، وكان يصحبه أبا بكر محمد بن طفيل الفيلسوف ، فكان لا يصير عنه، وسمعت ابا بكر بن يحيى الفقيه، سمعت الحكم بن أبا الوليد بن رشد الحفيد يقول: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب ، وجدته هو وابن طفيل فقط، فأخذ ابن طفيل يُطريني ، فكان أول ما فاتحني أن قال: ما رأيهم \_\_\_\_\_

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (99/21).

في السماء؟ أقديمة أم حادثه، فخفت، وتعللت، وأنكرت الفلسفة، ففهم، فالتفت الى ابن طفيل ، وذكر قول أرسطو فيها، وأورد حُجج أهل الاسلام فرأيت منه غزارة حفظ، لم أكن أظنها في عالم ، ولم يزال يبسطني حتى تكلمت، ثم أمر لي بخلعة ومال ومركوب(1).

وقال عنه العلامة شوفي ابوخليل: (أعرف الناس كيف تكلمت العرب، واحفظهم لأيامها ومآثارها وجميع أخبارها في الجاهلية والاسلام، وأحسن الناس ألفاظاً للقرآن الكريم، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية وكان بعيد الهمة، سخياً جواداً ، استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الاموال، هذا مع ايثار للعلم شديد وتعطش إليه مفرط، صح أنه كان يحفظ أحد الصحيحين وأغلب الظن أنه البخاري، حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن الكريم، هذا مع ذكر جميل من الفقه، وكان له مشاركة في علم الأدب وأتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو حسبما تقدم. وطمع به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم الفلسفة والطب . . . . وجمع مكتبة، كان مافيه قريباً مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي ثاني الخلفاء بالأندلس (350-366هـ) حيث احتوت مكتبته على اربعمائة ألف مجلد.

#### ب- بيعته:

يرأى الأستاذ الدكتور مراجع عقيله الغنائي أن بيعة يوسف بن عبدالؤمن تمت بمؤامرة دبرت بزعامة الأخوين عمر ويوسف ابني عبدالؤمن والحزب الموالي لهما وأن أبا حفص عمر بن عبدالؤمن حرص على أن

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (100/21).

توليه الوزارة لأبيه على الأمور في الدولة وأن ينظم كتلة من الموحدين ترتبط مصالحهما به، ولذلك أصبح عليه من السهل تدبير أمر خلع أخيه غير الشقيق، محمد، ووضع أخيه الشقيق يوسف على الحكم بدلاً منه. ولربما كان عمل الامير عمر ، بجعل الامارة لأخيه يوسف بدلاً منه وهو الشخصية ذات القوة والنفوذ إنما كان يبعد نفسه عن شبهة التآمر والذي يرجح الفرض القائل بوقوع المؤامرة في خلع محمد ورفع أخيه يوسف، أن بعضاً من ابناء عبدالمؤمن رفضوا في أول الأمر المبايعة لأخيهم يوسف فقد رفض السيد ابو سعيد عثمان والي غرناطة، والسيد أبو محمد عبدالله والي بجاية، أن يبايعا لأخيهم بالأمانة. ولذلك لم يستطع يوسف ابن عبدالمؤمن أن يسمى باسم امير المؤمنين وانما اكتفى باسم الامير . كما وان رائحة المؤامرة قد تسربت الى جموع الموحدين والجيوش الكثيفة التي كانت نازلة بمدينة سلا<sup>(1)</sup>، لذلك ألغى مشروع العبور الى الأندلس، وأعطيت الجنود الأمر بالرجوع الى مواطنها، كما أخذ شيوخ الموحدين يعملون على إزالة الشكوك من نفوس الموحدين<sup>(2)</sup>، فأبن صاحب الصلاة يقول: (ووعظ الشيخ المرحوم الموحدين أجمع على طبقاتهم مراتبهم وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقينهم وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسئولهم وبحق البيعة ولم يعلم أحداً بالوفاة واشتد عليهم في لزوم الصلاة والضرب بالسياط أهل الفسق والجناة، وشغلهم بأنفسهم من الحديث بالخرعبلات. وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح، بقرأة الحزب واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم \_\_\_\_\_

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين ص 85.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

الاشتداد والالزب ثم نفذ الأمر من الأمير بانصراف العساكر المجتمعة الى قبائلهم ومواضعهم وتأخر العرض الى وقت يأذن الله به من إزماعهم واجتماعهم...<sup>(1)</sup>.

وسعى شيوخ الموحدين في سبيل الاصلاح بين الأخوة والتوفيق بينهم وصفا الجو بين أبناء عبدالمؤمن بعد جهد جهيد، وتمت البيعة العامة ليوسف بن عبدالمؤمن في منتصف جمادى الآخرة من سنة ثلاثة وستين وخمسائة (563هـ) ومنذ هذا التاريخ تسمى يوسف باسم أمير المؤمنين ، وهو الاسم الخلفي عند الموحدين<sup>(2)</sup>.

ثانياً: سياسة يوسف عبدالمؤمن في الأندلس:

كانت سياسة الموحيدين بالأندلس في عهد يوسف بن عبدالمؤمن تدور على ثلاثة محاور:

1- المحور الأول: استكمال السيادة الموحدية على الأندلس، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن

سيادتهم من أجل ادخالها تحت نفوذهم.

2- المحور الثاني: العمل على الحد من أطماع الممالك والإمارات الأيبانية.

3- المحور الثالث: المساهمة في ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس.

---

(1) ابن صاحب الصلاة، المن بالامامة ص233، 231.

(2) انظر: سقوط الموحيدين ص88.

إلا أن الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحيدين اثخنتها وكانت حركة التمرد التي قادها محمد بن مردنيش في الأندلس من أعنفها.

ينتسب محمد بن مردنيش الى الاصول العربية وكان والده سعد بن محمد والياً للمرابطين على افراغه(1).

تولى محمد بن سعد بن مردنيش : حكم بلنسية بعد وفاة صهره ابن عياض، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الاول سنة (542هـ) الموافق 21 أغسطس سنة (1147م). ثم قام علي بن عبيد والي مرسه بالتنازل لابن مردنيش عن حكمها في جمادى الاولى سنة (542هـ). وبذلك أصبح حكم ابن مردنيش يشمل شرق الأندلس ، ومن بلنسية شمالاً حتى قرطاجة جنوباً.

واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها ودخل في أحلاف وعهود ومواثيق مع ممالك النصرارى وإمارتها ضد الموحيدين وكان غرض الاسبان النصرارى في الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره، أنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحيدين، ، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع ان تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب. كما أنه كان من الدوافع الرئيسية لمعاوضة أمراء وملوك النصرارى لابن مردنيش ، هو أن لا يتيحوا الفرصة للموحيدين بالسيطرة على كل الأندلس الإسلامية ، وثانياً إبقاء المسلمين في حالة فرقة وتفكك.

إلا أن توسع الموحيدين في بلاد الأندلس وشدة شوكتهم جعلت الكثير من الممالك والإمارات الأيبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم او تحالفهم وبهذا فقد بن مردنيش الكثير من حلفائه

الإسبان السابقين الذين كان

(1) انظر : سقوط الموحيدين ص89.

وجوده يعتمد عليهم في المقام الأول. ولما أن أخذ سلطان الموحديين يتسع في البلاد الأندلسية ، وأن أغلب أماراته وولاياته دخلت في حوزتهم ، وأن معظم أمراء الأندلس سلموا ما بأيديهم للموحدين سواء عن طواعية أو كره منهم ، رأى ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه وأن مال إماراته التي جهد من إقامتها ، هو الوقوع في أيدي الموحديين ، خاصة وبعد أن فقد الكثير من حلفائه ولذلك أخذ الحقد يملأ نفسه وأخذت نفسيته تشد في تصرفاتها ، بل وبدا الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجالات دولته الذين يعتمد عليهم ، ونتيجة لهذه الأحقاد والشكوك والتبليل الفكري ، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لا تصدر إلا عن رجل مجنون . ومنها أنه قتل وزيره ابني الجذع بالجوع ، إذ بنى لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنهما الأكل حتى ماتا . كما أنه قتل أخته وطفلها إغراقاً في البحر ، وارتكب الكثير جدا من أمثال هذه الأعمال ، ولذلك امتلأت منه النفوس رعبا وخاصة أقرب الناس إليه ، وتوالت النكبات على ابن مردنيش ، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجئ عام 567 هـ وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين . وبموته قدم آل محمد بن سعد بن مردنيش طاعتهم للموحدين ، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله إلى الموحديين وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية(1) .

### آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحديين :

فقد تأثرت دولة الموحديين بحركة التمرد الواسعة في شرق الأندلس وهزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم في نفوس النصارى الأسبان أولا ثم أمراء الأندلس \_\_\_\_\_  
(1) انظر : سقوط الموحديين ص 91،90.  
ثانيا ثم المغاربة ثالثا وبالرغم من أن الموحديين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش ، وضم املاكه ضمن حدود خلافتهم ، لقد استطاع ابن مردنيش ان يقف فترة طويلة امام الموحديين وأن يستولي على الكثير من القواعد المهمة التي كانت في أيديهم وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة، لقد انشغل الموحدون بحربهم مع ابن مردنيش وركزوا جل قواهم أمام ابن مردنيش مما أتاح الفرصة للطامعين والمتدمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة ، وبذا كانت مقاتلة ابن مردنيش الطويلة للموحدين ، واستنزافه للكثير من جهودهم ورجالهم ووقتهم ، كانت إحدى البذور التي أضعفت دولة الموحديين منذ قيامها(1).

### ثالثا : الثورة في المغرب الأقصى :

وفي عام 559 هـ - 1164 هـ قامت قبائل صنهاجة بالثورة ضد خليفة الموحدين يوسف بن عبدالمؤمن وتزعم تلك الثورة مرزوغ الصنهاجي وانضمت إلى تلك الحركة بطون من صنهاجة وغمارة وأوربية وقام الثوار بمهاجمة النواحي ودخلوا تازا ، حيث قتل رجالها وسي نساءها واحتوى أموالها ولم يتوان خليفة الموحدين في إرسال جيشا للثوار ففض جموعهم وقضى على زعمائهم(2).

وكانت هذه الثورة هي أول شرارة للثورات التي قامت في المغرب الأقصى منذ 560 هـ ، فقد تبعها ثورة كبيرة أخرى ، قادها سبع بن منحفاد وخلفه \_\_\_\_\_

(1) انظر : سقوط الموحدين ص92،91.

(2) انظر : المصدر السابق ص75.

قبيلة غمارة وكانت هذه الثورة أخطر من سابقتها على دولة الموحدين ولذل خرج لهم الخليفة الموحي على رأس جيوشه الجرار للقاء عليها وفي الثالث من شهر رمضان من سنة اثنين وستين وخمسائة تمكن الموحدون من انزال الهزيمة بقبائل غمارة المنحازة إلى هذا الجبل . وكانت هذه الهزيمة سببا في دخول الكثيرين من غمارة في طاعة الموحدين وأصبحت قوات الموحدين تحرز انتصاراً بعد انتصار وتلاحق المتمردين من الثوار حتى استطاعت أن تلقي القبض على سبع بن منحفاد ثم قتل وصلب ليكون عبرة لغيره وكان ذلك في عام 562 هـ . وهكذا تمكن الموحدون من القضاء على الثورة التي هزت كيان دولتهم واضعفت قوتهم وأوهنت شوكتهم وبذلك الانتصار اضطرت كثير من القبائل المغربية الى الطاعة والإذعان لدولة الموحدين .

غير أن الموحدين ما كادوا يقضون على ثورتى صنهاجة وغمارة ، حتى التهمت ثورة أخرى في سنة ثالث وستين وخمسائة (563 هـ) ، ووقعت بجبل تاسررت في المغرب الأقصى ونواحيه ووجد جيش موحي قوي إلى الثوار ، بقيادة السيد أبي حفص عمر ، تمكن من إخماد الثورة والقضاء على رؤوسها . بعد ذلك هدأت الأمور في دولة الموحدين بعض الوقت وهدأت البلاد ، سواء في المغرب أو الأندلس ، ودخلت دولة الموحدين في فترة من الهدوء عمها الإطمئنان والراحة ، فانتعشت الزراعة والصناعة وراجت الحركة التجارية(1).

#### رابعاً: الثورة في المنطقة الشرقية من المغرب الأقصى :

بسبب الظلم الذي تعرض له أهل قفصة في المغرب الأوسط اندلعت ثورة \_\_\_\_\_

(1) انظر : سقوط دولة الموحدين ص98،97،96.

بن الرند في عام 575 هـ واستطاع علي بن المعز بن المعتز الرندي أن يتخلص من حكم الموحدين في

قصة وساعدته عدة أسباب في تحقيق هدفه منها ، ما فعله قراقوش التقوى من أعمال ضد سيطرة الموحيدين ونجاحه في الإستيلاء على الكثير من البلاد من أيدي الموحيدين وكان قراقوش هذا مرسل من قبل الأيوبيين في مصر لضم ما يمكن ضمه للدولة الأيوبية السنية الخاضعة للخلافة العباسية في بغداد وكما أن الإنشغال الذي حدث للموحيدين بسبب الثورات في الأندلس والمغرب الأقصى شجع ابن الرند وأهل قفصة في السعي من اجل التخلص من الهيمنة الموحدية المتعصبة لمذهب وعقيدة ابن تومرت المنحرفة ، ولذلك اهتم الموحدون بأمر هذه الثورة ، وخاصة وأن قراقوش التقوى اشتهر صيته في أفريقية وقوي سلطانه وتحالفت معه قبائل من بني هلال وبني سليم ، فخشيت دولة الموحيدين من اندلاع الثورات وانتشار اعمال التمرد ومن حدوث تحالف ثلاثي في المغرب الأوسط والأدنى بين ابن الرند وقراقوش وقبائل بني هلال وسليم ولذلك بادر خليفة الموحدن يوسف بن عبدالمؤمن بالخروج على رأس جيش من مراكش في عام 575 هـ واستطاع يوسف بن عبدالمؤمن أن يحتل قفصة في عام 576 هـ ثم أخذ الخليفة بعد ذلك في المرور على بعض ولايات أفريقية ومدنها ، ليتقعد احوالها ويطمئن عليها ، وبعد ان رتب الخليفة أمور افريقية رجع إلى قاعدة حكمه وبمعيته قائد ثورة التمرد على ابن الرند الذي لجأ الى الخليفة مستسلما وتائباً وطالبا للعفو عند حصار الموحيدين لمدينة قفصة(1).

لقد ساهمت الثورات التي حدثت ضد دولة الموحيدين في تشجيع ملوك \_\_\_\_\_  
(1) انظر : سقوط الموحيدين ص100.

وامراء الأسبان ، على الطمع في دولة الموحيدين ، وأحيت فيهم روح القتال والحرب التي كادت تنتهي في عهد عبدالمؤمن بن علي ولذلك تجددت روح العداة للموحيدين من جديد(1) .

#### خامسا: غزو الخليفة الموحد لبلاد الأندلس :

لما استتب الأمر ليوسف بن عبدالمؤمن في بلاد المغرب ، انصرف إلى الجهاد في الأندلس وكان أول عبوره لمضيق جبل طارق إلى أسبانية في صفر سنة 655هـ/1171 م ، واستطاع ان يوجه ضرباته الشديدة الى ابن سعد بن مردنيش الذي توفى عام 567هـ فتنازل أبناؤه على أملاكهم كلها للموحيدين، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف إلى حرب النصرى ، ومكث في الأندلس أربعة أعوام ، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصرى ، حقق فيها نجاحات رائعة ، ثم عاد إلى مراكش عام 571هـ/1176م بعد أن بنى جامع أشبيلية، وأدخل الماء إليها وأقام جسرا على واديهما .

واستمرت الحرب بين المسلمين والنصارى في الأندلس على شدتها ، برية وبحرية ولما رأى أبو يعقوب يوسف

ضالة النتائج التي أحرزتها قواته في جهاده ضد النصارى ، عبر إلى الأندلس في صفر 580 هـ / 1184م وصمم على قتال مملكة البرتغال التي كانت أشد الأعداء على المسلمين ووضع خطة تقضي أولاً بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر ، ثم الزحف على ضفاف نهر التاجة إلى قلب مملكتي قشتاله وليون ، بينما تتشغل قوات اسلامية أخرى تزحف من الجنوب قوات النصارى القشتاليةوالليونية ، وساعده في تحقيق

(1) انظر: سقوط الموحدين ص101.

خطته حشوده الضخمة ، وقوى مسلمي الأندلس . سار أبو يعقوب يوسف على رأس الجيش الرئيسي متجهاً إلى بطليوس ، معتزماً حصار اشبونة ، وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح ، أن يستولي على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرى ، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه ، حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين مؤملاً أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذي خصص لمحاصرة أشبونة من جهة البحر .

وبعد أحد عشر يوماً من حصار شنترين بدأ يضربها بآلات الحصار ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة ، حتى استولى ابو يعقوب عليها ، خلا قلعتها ، وذلك في 22 ربيع الأول سنة 580 هـ ، وكان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه معتبر القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته ، وكان ذلك يسبب المرارة الشديدة في نفوس أولئك القادة المجريين ، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقي شنترين إلى شمالها وغربها ، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء ولكن إرادة أبي يعقوب يوسف هي التي نفذت دون سواها ، فكان الخطر ولما دخل الليل أمر ابو يعقوب ولده إسحاق والي أشبيلة ان يبكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة، وذلك لكي يحمي الهجوم علقلة شنترين من التعرض للمفاجأة ، فهل وقع سوء فهم ، أم كانت ثمة فتنة؟

إن أبا إسحاق سار في الليل بدلا من أن يسير في الصباح ، وبدلا من أن يسير في اتجاه اشبونة عاد فعبر نهر التاجة وسار بقوات الأندلس في اتجاه اشبيلية وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش، حتى انتشر الإضطراب والروع في أنحاء المعسكر الإسلامي ، وتفاقم الأمر ، حيث زحف سانو ابن ملك البرتغال على شنترين ليلا في جيش يبلغ خمسة عشرة ألف مقاتل ، وفي تلك الأثناء كان ابو يعقوب قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة ، بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة ، ألقى بنفسه أمام الجيش البرتغالي وجها لوجه .

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب ، خلافا لنصح قواده ، ووجود الجيش البرتغالي في

مركز يهدد المسلمين ومسير القوات الأندلسية الى ما وراء نهر التاجة ، وهو ما بدا كأنه أمر غير طبيعي ، وأخيرا ذبوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه ، كل هذه الأمور بثت في معسكر الموحدين نوعا من الرعب العام ، ترتب عليه ان غدت أوامر أبي يعقوب لا قيمة لها . وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل ، وانضم إلى جيش البرتغال الذي يقوده ولي العهد سانشو ، وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم ، وساعدت حامية القلعة شنترين جيش النصارى بالخروج من القلعة ، ومهاجمة المسلمين<sup>(1)</sup> ولما كان قسم كبير من الموحدين قد عبر نهر التاجة ، فإنه لم يبقى لدى أبي يعقوب سوى حرسه الخاص ، وقليل من القوات الأخرى، وقوافل العتاد والمتاع التي لم تستطع لاحقا بباقي الصفوف . ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطا ، انه وقع ضحية خيانة ، أو ضحية سوء تفاهم ، لقد وجد نفسه أمام الأعداء وخاض معركة كانت كفة النصارى فيها أرجح فقد قتل حرس أبي يعقوب وحمل ابو يعقوب على النصارى بسيفه وقتل ستة من \_\_\_\_\_

(1) انظر: الأراك شوقي ابوخليل ص42.

الرجال ، واخيرا طعنه أحد النصارى بسيفه طعنة نافذة فسقط على الأرض ملطخا بدمائه<sup>(1)</sup>. ولما بلغ خبر اشتباك الخليفة مع النصارى رجع الأمير أبو اسحاق بقواته وهاجم بها النصارى وسالت دماء الفريقين غزيرة ، فتح المسلمون في نهايتها قلعة شنترين<sup>(2)</sup>. استشهد ابو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في 12 ربيع الأول 580هـ/24أيار (يوليو) سنة 1184م وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عاما . لقد حمل الجنود خليفتهم إلى اشبيلية ، وأرسل منها في تابوت إلى تينملل حيث دفن بجوار أبيه عبدالمؤمن<sup>(3)</sup>.

### سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس :

لم يستطع السلطان يوسف عبدالمؤمن أن يحقق نصرا حازماً على النصارى في الأندلس لعدة أسباب منها :

1- لم تكن قيادة يوسف بن عبدالمؤمن قد وصلت الى درجة النضج العسكري والسياسي ولذلك نجده يحشد الجيوش الكبيرة التي تحتوي على عناصر مختلفة من قبائل بني هلال وسليم وقبائل الموحدين ومقاتلة الأندلس والجنود الموحيدي وليست لهذا الجيش خطة مرسومة يسير عليها ، كما حدث عند غزوه لمدينة وبدة عام 567 هـ حيث كان قرار الغزو جاء متأخرا عن وقت وصوله الى \_\_\_\_\_

(1) انظر: الأراك شوقي خليل ص42.

(2) انظر:المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: المغرب الكبير (801/2).

الأندلس بقرار فردي من الخليفة الموحي والذو كان هو صاحب الرأي النهائي والقاطع في إدارة قيادة الجيش وكان من سماته أخذه للقرارات بسرعة مذهلة وبدون ترو أحيانا فهو قرر ان تكون وجهة حملته الكبيرة مدينة ونده ، بمجرد اقتراح وفد شرق الأندلس ذلك عليه ، ثم انه اثناء مسيره الى ونده ، غير وجهة مسيرة الجيش لافتتاح حصني بلج والكرسي وذلك لمجرد اقتراح ابن همشك عليه بذلك .

2- ومما يعيب كفاءة خليفة الموحدين ، عدم تقديره للظروف وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق وعلى سبيل المثال ما حدث من رفضه لعرض أهل مدينة ونده تسليم مدينتهم مقابل حصولهم على الأمان وكان من المشرف له أنه قبل هذا العرض وحصل على المدينة بدون أي جهد كان.

3- كانت للخليفة الموحدي ميولات فكرية طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية ولذلك نجد الخليفة الموحد بدلا من ان يكون مشرفا على تسيير دفة المعارك وهو القائد الوحيد والمسؤول الأول ، مشغولا بمناقشة مسائل فكرية لا تمت إلى المواقف العسكرية بصلة ، فعندما كانت جيوش الموحدين تحاصر مدينة ونده جاءه احد قادة الموحدين وطلب من الخليفة امداده ببعض الجند حتى يتمكن من احراز النصر ، لم يلتفت إليه واستمر في مناقشة تلك المسائل (1) .

4- لم يكن ولاء المسلمين قوي لدولة الموحدين ولذلك كلما تحين فرصة للطعن فيها والثورة عليها يستغلها خصومهم الذين تعرضوا للظلم والقهر من زعماء الموحدين .

5- انتشار الخيانة في اداء الواجب والتعدي على اموال الدولة من قبل الولاة \_\_\_\_\_

(1) انظر : سقوط الموحدين ص120.

في عهد يوسف بن عبدالمؤمن ولذلك اضطر الخليفة لمحاسبة الولاة ومعاقبة الجناة في الاموال التي اغتصبوها ونفيهم من البلاد ووصل الامر بالبعض إلى أن أنزل بهم عقوبة الإعدام ، لقد شمل ظلم الولاة الكثير من رعايا الدولة وتولدت قاعدة عريضة من المجتمع تعارض سياسة الولاة الظالمة القمعية وواصلوا جهادهم السلمي بمطالبة الدولة بمحاسبة بعض الولاة ، واضطر الخليفة لمحاسبة بعض مسؤولي الدولة ومن أشهر هذه الحوادث:

- محاسبة محمد بن أبي سعيد مسؤول الأعمال المخزنية في اشبيلية وثبتت عليه خيانتته للدولة فصودرت أمواله وممتلكاته وامتنح في نفسه طويلا ثم ضرب عنقه وكان ذلك عام 573هـ (1).

6- انتشار الطاعون في المغرب والأندلس في زمن يوسف بن عبدالمؤمن في عام 571 هـ واستمر لمدة عام تقريبا ، بالمغرب الأقصى وامتد الى الاندلس وإلى المغرب الأوسط والأدنى. وقد قضى على الكثيرين من السكان وعلى بعض زعماء دولة الموحدين منهم أربعة من أبناء عبدالمؤمن بن علي . وقد أصيب الخليفة الموحدى نفسه وأخوه السيد ابو حفص عمر ، ولكنهما شفيا من المرض وعوفيا ، وكاد هذا المرض أن يقضى على من كان بدور الخليفة وأهله ، أما أهل مدينة مراكش فقد قضى على الكثيرين منهم وضاق المصلى بالموتى ، فأمر الخليفة بأن يصلى عليهم في عامة مساجد مراكش ، ونتيجة لهذا الوباء الفاتك ، فقد خيم جو من الكآبة والحزن على مراكش الزاهر ، ولم يعد يخرج منها أحد أو يأتي وافد إليها<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر: سقوط الموحدين ص127.

(2) المصدر السابق ص 129.

ومن كبار الشخصيات التي قضى عليها هذا الوباء الشيخ ابو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي . وهو أحد طبقة الجماعة ، ومن كبار الشخصيات التي ساهمت في إقامة دولة الموحدين وقد كان قادما من قرطبة إلى مراكش فأصيب في الطريق ومات عام 571 هـ وكان لهذا الوباء الذي فتك بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس ، اثره في اضعاف المعنويات ، وفي قلة الأيدي العاملة ، وتعطل التجارة ، وتوقف الحياة الزراعية والصناعية وقد ترتب على ذلك ازمة اقتصادية حادة كانت ذات اثر مادي ومعنوي سيء على الرعية وشجعت هذه الظروف العسوية التي تمر بها دولة الموحدين ممالك وإمارات النصارى من النيل من الموحدين ولذلك نقضت تلك الممالك والإمارات المعاهدات التي بينها وبين الموحدين وأخذت تعبت في بلاد الأندلس بالفساد<sup>(1)</sup> "وكان الناس من ضعف المرض لا يستطيعون الحركة"<sup>(2)</sup> ونتيجة لهذه الظروف القاسية لم يستطع الموحدون ان يقوموا برد حاسم على التو والحين<sup>(3)</sup>.

7- تمرد قبيلة هرغة على الخليفة الموحدى: هذه القبيلة ينحدر - منها محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، ففي سنة 578 هـ وصلت الأخبار إلى الخليفة الموحدى في مراكش بأن قبيلة هرغة قد استولت على معدن الفضة الذي يستخرج بقريهم من جبل السوس فاهتم الخليفة لهذا الحادث لأمرين: الأمر الأول وهو وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التي تشعر بسموها لانتهائها إلى ابن تومرت وخوفا من النفاق قبائل الموحدين حولها . والأمر

---

(1) سقوط دولة الموحدين ص129.

(2) البيان المغرب (110/3).

(3) انظر : سقوط دولة الموحدين ص129.

الثاني: فإن معدن الفضة يمثل مورداً مالياً مهماً لخزنة الموحدين ، ولذلك فإن فقده يصيب هذه الخزنة بضرية عنيفة .

ولذلك بادر الخليفة بالخروج من مراكش في صفر سنة 578 هـ على رأس قواته . ولما وصل النجبل السوس أرغم قبيلة هرغة على تجديد الولاء والتوبة مما ارتكبه واسترجع منها ما كانت اغتصبته من المعدن. ثم بعد ذلك أمر ببناء حصن منيع حول المنجم، ووضع عليه جنداً لحراسته لقد كان لهذه الثورة أثراً في إضعاف شوكة الموحدين واضطراب هيبتهم وتشجيع خصومهم على محاربتهم (1).

8- ضعف التكتيك العسكري عند الخليفة الموحد وحرصه على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم اصغائه لنصح الناصحين ويظهر ضعف تكتيكه العسكري في حصر جيوشه الضخمة في مهاجمة نقطة صغيرة، كما فعل ذلك في مهاجمته لمدينة وبذة وشنترين على التوالي، مما اتاح لملوك وأمراء الأسيان التحالف فيما بينهم ومواجهة الموحدين وهم في مركز قوة.

ولو اعتمد أسلوب الكر والفر بالجيوش الصغيرة ذات القوة والحركة السريعة لجعل الأسيان يضطرون إلى مدافعة كل فريق عن مملكته وإمارته وإلى مواجهة الموحدين متفرقين مع حالة الضعف تؤدي إلى انهزام النصارى (2).

9- استطاع النصارى أن يوحدوا صفوفهم وجهودهم ضد الموحدين ويتخذوا موقفاً عدائياً واحداً منهم (3) هذه أهم الأسباب التي منعت خليفة الموحدين من ضم الأندلس للمغرب ومن ثم الانطلاق لتوحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم

(1) انظر: سقوط الموحدين ص 131.

(2) المصدر السابق ص 145.

(3) المصدر السابق ص 154.

ونفوذهم وسلطتهم لقد كان يوسف بن عبدالمؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامي كله وقد عبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبدالسلام الجراوي في بعض أشعاره في قوله يمدح خليفة الموحدين يوسف بن عبدالمؤمن:

ستمك أرض مصر والعراقا

ويجري نحوك الأمم استباقاً (1)

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة ولم يتيح الفرصة لظهور قادة عظام من الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة بعكس يوسف بن تاشفين الذي أبدع في صقل قادته ودفعهم نحو المعالي، فعرفوا

كيف ينزلون الهزائم بالاسبان.

وعلى أي حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً وفي تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة مريضاً طريح الفراش، ولهذا يذهب بعض المؤرخين الى انه مات اثر مرض اصابه أثناء الحصار (2).

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في السابعة والأربعين من عمره وكان رجلاً شهماً بذل أقصى جهده في بناء الدولة وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي (3).

---

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس العبادي ص115.

(2) انظر: معالم تاريخ المغرب والاندلس حسين مؤنس ص194.

(3) انظر: نفس المصدر ص 194.

### المبحث الثالث

#### أبو يوسف يعقوب المنصور

##### أولاً اسمه وشيء من سيرته:

هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبدالمؤمن بن علي، القيسي الكومي صاحب بلاد المغرب - كان صافي السمرة جداً، إلى الطول ماهو، جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ضخم الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم إصابة بالظن، مجرباً للأمور ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً وطالع مقاصد العمال والولاية وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور ولما مات والده اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبدالمؤمن على تقديمه فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده ولقبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط احكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات (1).

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول مراتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرر المقاتلين في مراكزها ومهد  
(1) وفيات الاعيان (4/7).  
مصالحها في مدة شهرين (1).

### أ- اصلاحاته في منهج دولة الموحدين:

صرح زمن حكمه بعدم صحة الاعتقاد بعصمة بن تومرت (2) وجالس الصلحاء والمحدثين ومال إلى الظاهر، وأعرض عن كتب المالكية، وأحرق مالا يحصى من كتب الفروع (3).  
قال عبدالواحد بن علي: كنت بفاس فشهدت الأحمال يؤتى بها، فتحرق، وتهدد على الاشتغال بالفروع، وأمر الحفاظ بجمع كتاب في الصلاة من "الكتب الخمسة"، و "الموطأ"، ومسند ابن أبي شيبة ومسند البزار وسنن الدرا قطني وسنن البيهقي وكان يملي ذلك بنفسه على كبار دولته وحفظ ذلك خلق، فكان لمن يحفظه عطاء وخلعة (4). وكان لا يحب التعمق في آراء الفقهاء البعيدة عن الدليل، قال مرة لعبدالواحد بن علي: (أنا انظر في هذه الآراء التي أحدثت في الدين، أرايت المسألة فيها أقوال، ففي أيها الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له، فقطع كلامي، وقال: ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى "سنن" أبي داود، أو هذا، وأشار إلى السيف (5) قلت: والذي ينبغي للحاكم أن يوسع دائرة المذاهب، والاطلاع مادمت على أصول أهل السنة والجماعة وهذا مافعله السلطان الكبير والقائد الفذ نور الدين  
(1) وفيات الاعيان (4/7).

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (316/21).

(3) نفس المصدر السابق (313/21).

(4) المصدر السابق نفسه (314/21).

(5) المصدر السابق نفسه (314/21).

محمود زكي حيث ترك مذاهب أهل السنة والجماعة تتشط في دعوتها ودعم مدارس المالكية والحنابلة والشافعية مع كونه حنفياً واهتم بالمحدثين ووفر لهم مايحتاجون من أجل تبليغ رسالتهم وكذلك القراءة والحفاظ وبذلك الفعل الجميل استطاع ان يجند أهل السنة والجماعة ضد الرافضة وضد النصارى وواصل السير بعد وفاته تلميذه المخلص صلاح الدين وتحققت الانتصارات الكبرى والفتوحات العظمى.

إن هذا التضيق الذي فعله أبو يوسف يعقوب الناصر وبعض حكام الموحدين جعل أسباب تفجر الثورات

الداخلية متواجداً.

لقد نظر الموحدون الى الذين خالفوهم في ميدان العقائد والمبادئ نظرة معادية اتسمت بالحققد والكراهية، على انهم من غير أهل الإيمان فعاملوهم بقسوة بالغة، مما أثار لدى بعض العلماء والفقهاء موجة من الذعر والخوف ولعل أوضح مثال على هذه الحالة ماجاء على لسان الوهراني بعد سقوط دولة المرابطين بقوله: (لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت من مذهبات الشعر بضاعتي من اخلاق الأدب رضاعتي)<sup>(1)</sup>.

وعبر الوهراني عن كرهه الشديد للموحدين من خلال جواب على سؤال حول رأيه في عبدالمؤمن بن علي الموحدى وأولاده وسيرته ببلاده فقال: (مؤيد من السماء خواض للدماء مسلط على من فوق الماء حكم سيفه في المعمم واعمله في رقاب الأمم.. ولو أن للعلم لساناً والورقة إنساناً لتألمت وتظلمت.. ولكن السكوت على هذا الحال أرجح ومسالمة الأفاعي أنجح)<sup>(2)</sup>.

---

(1) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق، د. علي احمد ص86.

(2) نفس المصدر السابق ص86،85.

وهذا أبو الوليد محمد بن عبدالله القرطبي، الذي يصف المقري أحواله في كتاب نفح الطيب بقوله: (وخرج من الفتنة بعد ما علا ذكره في قرطبة وأقام بالاسكندرية خوفاً من بني عبدالمؤمن بن علي ثم قال كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الاسكندرية خوفاً من بني عبدالمؤمن بن علي ثم قال كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الاسكندرية ثم سافر إلى مصر، وأقام بها مدة ثم قال فوالله مامصر والاسكندرية بمتباعدين، ثم سافر إلى الصعيد وحدت بقوص بالموطأ ثم قال، ويصلون الى هذه البلاد ولايحجون ما أنا إلا هربت منه اليه، ثم دخل اليمن رآها قال: هذه أرض لا يتركها بنو عبدالمؤمن فتوجه إلى الهند، حيث ادركته منيته بها سنة 551هـ وقيل باليمن)<sup>(1)</sup>.

ولله درّ الإمام مالك في نصحه لأبي جعفر المنصور العباسي عندما أراد أبو جعفر أن يحمل الناس على الموطأ:

قال أبو مصعب: سمعت مالكا يقول: دخلت على أبي جعفر بالغداة حين وقعت الشمس بالأرض، وقد نزل عن شماله إلى بساط، وإذا بصبي يخرج ثم يرجع، فقال: أبو جعفر:- أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هو والله ابني وإنما يفزع من شيبتك، وحقيق أنت بكل خير، وخليق بكل إكرام، يقول مالك: وقد كان أدناني، وألصق ركبته بركبتي، فلم يزل يسألني حتى أتاه المؤذن بالظهر، فقال لي: أنت أعلم الناس، فقلت: لا والله يا أمير

المؤمنين، فقال: بلى ولكنك تكتم ذلك، ولئن بقيت لأكتبن كتابك بماء الذهب، ثم أعلقه في الكعبة، وأحمل الناس عليه. فقلت: يا أمير المؤمنين لاتفعل، فإن في كتابي حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقول الصحابة، وقول التابعين، ورأياً هو إجماع أهل \_\_\_\_\_  
(1) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربية في المشرق ص 87.

المدينة لم أخرج عنهم، غير أنني لا أرى أن يعلق في الكعبة<sup>(1)</sup>.  
وفي رواية: يا أمير المؤمنين إن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تفرقوا في البلاد، فأفتى كل في مصره بما رآه "فلم يزل يُؤخذ عنهم كابراً عن كابر إلى يومنا هذا، فإن ذهب تولمهم عما يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفراً، فأقر كل أهل بلد على ما فيها من العلم، وخذ هذا العلم لنفسك<sup>(2)</sup>."

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب الناصر من أفضل عصور دولة الموحدين ولا يمنع ذلك أن نعلق على بعض الأخطاء التي حدثت في فترته وإن كان الرجل استطاع أن يصلح بعض الانحرافات العقديّة عن الموحدين مثل زعمهم العصمة لابن تومرت<sup>(3)</sup> وينكر على من قدم كتبه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ذكر الذهبي أن أبا يوسف يعقوب المنصور سأل الفقيه أبا بكر بن هاني الجبالي ما قرأت؟ قال: تواليف الإمام - يعني ابن تومرت -، قال: فزوروني<sup>(4)</sup>، وقال ما هكذا يقول الطالب! حكمك أن تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت من السنة، ثم بعد ذلك قل ماشئت<sup>(5)</sup>.

وكان مجلسه عامراً بالعلماء وأهل الخير والصلاح يقول تاج الدين ابن حموية: دخلت مراكز في أيام يعقوب، فلقد كانت الدنيا بسيادته مجملة، يقصد \_\_\_\_\_

(1) انظر: الامام مالك بن أنس، عبدالغني الدقر ص 133.

(2) نفس المصدر السابق ص 134.

(3) انظر: سير اعلام النبلاء (316/21).

(4) أي انظر إليه نظرة المغضب.

(5) انظر: سير اعلام النبلاء (316/21).

لفضله ولعدله ولبذله وحسن معتقده، فأعذب موردي، وأنجح مقصدي، وكانت مجالسه مزينة بحضور العلماء والفضلاء، تفتح بالتلاوة ثم الحديث، ثم يدعو هو، وكان يجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، ويناظر، وينسبونه إلى مذهب الظاهر. وكان فصيحاً، مهيباً، حسن الصورة، تامّ الخلافة، لا يرى منه اكفهاً، ولا عن مجالسه إعراض، بزيّ الزهاد والعلماء، وعليه جلالة الملوك، صنف في العبادات، وله "فتاوى"، وبلغني

أن السودان<sup>(1)</sup> قدّموا له فيلاً فوصلهم، وردّه، وقال: لانريد أن نكون أصحاب الفيل وكان يجمع الزكاة ويفرقها بنفسه، وعمل مكتباً للأيتام، فيه نحو ألف صبيّ، وعشرة معلمون. حكى لي بعض عمّاله: أنه فرق في عيد نيّفاً وسبعين ألف شاة<sup>(2)</sup>.

وكان يهتم بطلاب العلم الذين يأتون من الآفاق وقال ذات مرة: يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه أمرٌ، فزع إلى قبيلته، وهؤلاء - يعني طلبه العلم - لا قبيل لهم إلا أنا، فعظموا عند الموحدين<sup>(3)</sup>. وكان يجمع الأيتام في العام، فيأمر للصبي بدينار وثوب ورغيف ورمانة واهتم بالمرضى وبنى لهم مارستان وغرس فيه من جميع الأشجار، وزخرفه وأجرى فيه المياه، ورتب له كل يوم ثلاثين ديناراً للأدوية، وكان يعود المرضى في الجمعة<sup>(4)</sup>.

---

(1) تطلق على بلاد غرب أفريقيا وجنوب الشمال الإفريقي سابقاً.

(2) انظر: سير اعلام النبلاء (314/21).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق (315/21).

ولم تكن للفلاسفة عنده مكانة وأحرق كتبهم واهتم بالطبّ والهندسة<sup>(1)</sup>. وحارب الخمر في ملكه وتوعّد عليها فعدمت<sup>(2)</sup>.

قال عنه ابن كثير: (كان ديناً حسن السيرة صحيح السريرة، وكان مالكي المذهب، ثم صار ظاهرياً حزمياً ثم مال إلى مذهب الشافعي واستنقضى في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وكان كثير الجهاد رحمه الله، وكان يؤم الناس في الصلوات الخمس، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف رحمه الله)<sup>(3)</sup>.

وقال عنه ابن العماد: (ذكياً شجاعاً مقداماً محباً للعلوم كثير الجهاد ميمون النقية ظاهري المذهب معادياً لكتب الفقه أباد منها شيئاً كثيراً بالحريق وحمل الناس على التشاغل بالأثر)<sup>(4)</sup>.

وربما كان فعل أبي يوسف بن يعقوب المنصور في حرقه لكتب الفروع انما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت والتي أخذ كثير من الموحدين بما فيها دون سواها، ولا استبعد أن يكون هذا العمل من قبل أبي يوسف يعقوب المنصور انما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت لكنه لم يستطيع أن يفردها دون غيرها حتى لا يثير الناس<sup>(5)</sup>.

إن هذا السلطان طلب من أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري - أحد المقربين إليه أن يشهد له بين يدي الله عزوجل بأنه لايقول بالعصمة - \_\_\_\_\_

(1) سير أعلام النبلاء (317/21).

(2) نفس المصدر السابق (318/21).

(3) البداية والنهاية المجلد السابع الجزء (22/13).

(4) شذرات الذهب (321/4).

(5) ربما هذا التعليل لا يكون صحيحاً

يعني عصمة ابن تومرت ولم يكتف المنصور بهذا بل أنه حاول ارجاع الناس الى الكتاب والسنة واستتصال ونبذ تعاليم ابن تومرت التي توغلت في قلوب بعض الناس في المغرب والأندلس.

ولقد استخف السلطان يعقوب بن يوسف بمن بالغوا في تعظيم ابن تومرت وتقديسه، والعمل بما قال به، أودعا إليه "لأنه لا يرى شيئاً من هذا كله وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت.."(1).

ولعل هذا الشعور هو الذي دفعه إلى أن يؤثر في الطلبة الذين جاؤا من أنحاء بلاد المغرب والأندلس لطلب العلم في حاضرة الدولة على شيوخ الموحدين الذي تأصل حب ابن تومرت وما دعا إليه في نفوسهم فلما بلغه حسد شيوخ الموحدين لهؤلاء الطلبة على مكانتهم عنده وتقريبه لهم خاطبهم قائلاً: " .. يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء - يعني الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإليّ فزعهم وإليّ ينتسبون"(2).

إن الخليفة الثالث للموحدين عمل على محو الباطل من دعوة بن تومرت وسعى لتقويضه بعد نصف قرن من انتشار تعاليم بن تومرت، وهي مدة قصيرة في عمر الدعوات، لئن ماتحمله دعوة بن تومرت من جنوح في بعض أفكارها جعلت أقرب الناس منها يسعون لتقويضها (إن الله لا يصلح عمل المفسدين..) (فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض...)

---

(1) انظر: مجلة جامعة الامام محمد بن سعود ص575.

(2) انظر : نفس المصدر السابق ص576.

إن المنصور الموحي لم يعلن صراحة بطلان مادعا إليه بن تومرت، لأن الكثير من الناس ببلاد المغرب الأقصى، لا سيما العامة وشيوخ الموحدين، وزعماء القبائل، قد تعلقوا بدعوة ابن تومرت، واقتنعوا بصحة ما قال به أو دعا إليه، فلو واجههم المنصور بالنقد الصريح أو العمل الجاد للقضاء على دعوة ابن تومرت لنشأ عن ذلك رد فعل خطير من قبل اولئك القوم قد لا يستطيع رده أو التصدي له، وهذا بلا شك جعله يكتفي

ببيان موقفه منها دون اتخاذ أي خطوات عملية ضدها ولكن وبالرغم من قلة ما قام به المنصور من جهد، أو عمل مضاد لدعوة ابن تومرت، إلا أن عمله هذا كانت له نتائج ايجابية وطيبة، حيث أنه بهذا الاجراء كسر ذلك السياج الذي أحيطت به دعوة ابن تومرت، مما دعى الكثير من الموحدين لاسيما المنصفين منهم إلى التمعن في حقيقة دعوة ابن تومرت ودراستها بموضوعية وانصاف، فبان لهم حقيقتها وما تحمله من جنوح في تفكيرها مما دفعهم إلى الأخذ بالتحلل من تعاليمها شيئاً فشيئاً<sup>(1)</sup>.

### ثانياً: سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب:

تعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور، ثالث الخلفاء الموحدين، العصر الذهبي للدولة الموحدية والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التوحيد واقامة الدولة الكبرى الموحدية.

ولقد كان ذلك العصر الذهبي قصيراً، لايتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل دولة الموحدين، فان خلفاء الموحدين \_\_\_\_\_

(1) انظر: مجلة جامعة الامام محمد بن سعود ص575.

حكموها بلاداً تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم، وكانت تحت أمرتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول في التاريخ الاسلامي، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً، ثم من بقية الصنهاجيين والزناطين ممن اجتذبتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبته، ثم اضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهالبيين الذين انضموا تحت لواء الدولة الكبيرة، ولم يخل الأمر من قوات اندلسية ذات قدرة ومهارة<sup>(1)</sup>.

رغم هذه القوات كانت القوة العسكرية الموحدية دائماً مفككة، تنقصها القيادة الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة، وتوجه الاعمال وفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً في شئون الادارة والقيادة العسكرية، وكان شديد الايمان فانتقل ايمانه الى رجاله وكسبت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرى<sup>(2)</sup>.

### أ- الصراع مع بني غانية المرابطين:

استطاع بنو غانية أن يقودوا ثورة في المغرب الأوسط ضد الخليفة أبي يعقوب يوسف المنصور واستطاعوا

أن يحتلوا مدينة باجيه بأربعة آلاف من الطوارق الملتئمين بسبب ضعف حامية الموحدين هناك وكان من سوء حظ

(1) انظر: معالم تاريخ المغرب والاندلس ص194.

(2) المصدر السابق ص195.

دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بني غانية التي لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة.

كان زكريا بن يحيى بن غانية قد تولى بعض الأعمال في قرطبة في عهد الخليفة المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ثم تولى اخاه ابن غانية حكم جزر البليار وهي الجزر الشرقية منذ عام 541هـ / 1146م وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين وعندما بسط الموحدين سلطانهم على الأندلس ظل بني غانية لا يخضعون لسيطرتهم وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد بن مرادنش عام 567هـ / 1171م) وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقي وكان على حكم جزر البليار في ذلك الوقت محمد بن اسحاق بن محمد بن غانية وقد كان يريد الدخول في طاعة الموحدين لكن اخوته عزلوه ورفضوا ذلك وولوا بدلا منه أخاه علي بن اسحاق الذي بادر بإعلان الثورة على الموحدين وخاض ضدهم معركة طويلة الزمن.

ويرجع أصل بني غانية إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية وعرفوا ببني غانية على اسم أهم وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين.

لقد كان بنو غانية شوكة ضد الموحدين وكانوا من خيرة المجاهدين ضد القوى الصليبية واشتهروا بالغزو البحري لجنوب فرنسا وقطلونيا وساروا على سنة أسلافهم في العقائد والتزام منهج أهل السنة والدعاء للخليفة العباسي في بغداد واتخاذ الويتهم السوداء شعاراً لهم وهادنوا الموحدين بعض الوقت ولما مات الخليفة الموحي يوسف بن عبدالمؤمن واضطربت احوال الدولة الموحدية بعض الشيء استغل بنو غانية هذا الاضطراب وظهروا العصيان وخرجوا عن سياسة المهادنة واستولوا على أسطول موحي ضخم عندما كان في زيارة الجزر الشرقية ثم خرجوا بأساطيلهم ورجالهم الى المغرب الأوسط عام 581هـ/1185م وتحالف بنو غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال ومع جنود الغزو المملوكي الذي كان يقوده قراقوش النقي وعلنوا ولاءهم للدولة العباسية ورفع شعارهم وأصبح المغرب الاوسط والادنى تابع وخاضع لأتباع الخلافة العباسية.

وكان أول عمل قام به المنصور يعقوب بن يوسف هو الشروع للقضاء على بني غانية، فأرسل العيون والأعوان إلى المغرب الأوسط وافريقيا وحاول تفكيك التحالف الثلاثي بين بني غانية والقبائل العربية اتباع

قراقوش وواعد زعماء القبائل وأعيان البلدان بالعفو والاحسان وشرع في ارسال الجيوش تتلوها الجيوش وانكسرت بعض جيوش الموحيدين وارتفعت معنويات بني غانية أمام الموحيدين إلا أن السلطان يعقوب بن يوسف استمر في ارسال الحملات وقد الألو ف من جنوده ومن خيرة رجاله، وأنفق الملايين من الأموال وكان بنو غانية وحلفائهم قد اتخذوا الصحراء ملجأهم فكلما تضيق عليهم الدائرة يفرون إلى الصحراء ثم لا يلبثوا أن يعودوا من جديد واستمرت هذه المعارك سنوات طويلة ولكن في النهاية استطاع ابو يوسف يعقوب بن يوسف ان يسحق هذه الثورة العنيفة ويقبض على زعمائها وقاد العمليات العسكرية بنفسه عام 582هـ/1168م وجعل من مدينة تونس مقرا لقيادته واستطاع بفضل حزمه شجاعته أن ينتصر على الثوار وفر علي بن غانية الى الصحراء وظل بها إلى أن مات عام 584 هـ وانضم إلى جيوش الموحيدين كثير من الأعراب والأتراك واستطاع يعقوب بن يوسف أن يوحد بلاد المغرب كلها غربها وشرقها إلى المحيط الأطلسي غربا . لقد استعمل يعقوب بن يوسف الدهاء والمكر والحنكة والسياسة والمال ضد خصومه وقبل رجوعه إلى المغرب الأقصى رتب أمور القبائل ونظم أمور الولاية ، واهتم بإدارة الاموال ، ونقل معه كثير من القبائل العربية إلى المغرب الأقصى ، ليستخدمها في الجهاد ضد النصارى ويأمن من ثوراتها المستمرة .

لقد استطاع أبو يعقوب يوسف المنصور أن يؤمن خط ظهره ويوحد الجبهة الداخلية وأعاد تنظيم البيت المغربي الموحيدي من الداخل ، وأمن خطر القبائل العربية ووظف طاقاتها في حربه في الأندلس ، لقد كان هذا العمل الحاسم القوي في توحيد الجبهة الداخلية سببا من أسباب انتصاره على النصارى في الأندلس في معركة الأراك الكبيرة . لقد كانت أهداف أبي يوسف يعقوب المنصور واضحة المعالم في حركته ولذلك أرجأ جهاد النصارى في الأندلس إلى حين الإنتهاء من مشاكل بني غانية وحلفائهم وهذا يدل على عمق تفكيره الإستراتيجي وبعد نظره العسكري(1).

إننا ونحن ندرس التاريخ أمام درس عظيم ومهم في حياتنا المعاصرة ألا وهو إذا أردنا بالفعل استرداد الأندلس فإن ذلك الأمر العظيم وهذا الهدف السامي الجميل يسبقه عمل جاد ومتواصل من أجل توحيد بلاد المغرب على أصول منهج أهل السنة والجماعة وبعد ذلك تبدأ حركة الدعوة والجهاد المقدس نحو أراضينا المفقودة وعزنا المنشود .

إن تحرير البيت المقدس ما تم ذلك الفتح الميمون إلا بعد توحيد العراق ومصر والشام وإزالة البدع بالحجة والبرهان وقلع دولة الرافضة بالسيف والسنان مع التدرج المدروس والهمة العالية في تحقيق الأهداف السامية .

## **ب - جهاده في الأندلس :**

بعد استشهاد السلطان الموحيدي أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في \_\_\_\_\_  
(1) انظر: موسوعة المغرب العربي 224/31 الى 227.

الأندلس 580 هـ بدأت الحرب بضعة أعوام لسبيين مهمين :

1- إنشغال الموحيدين بثورات قامت في أفريقية ، ومرض أبي يوسف المنصور في مراكش ، فقد كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه .

2- الخلاف الذي وقع بين ملوك الأاسبان في تلك الفترة ، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده فيغريهم بالسير إلى غزوه ولكن بعد وفاة المطران (جونزالو) وتعيين "مارتن دي بسيرجا" مطرانا لطليطلة ، شرع الأخير في زرع الحقد والبغض وتاجيج صدور النصارى الأاسبان ضد المسلمين وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصرانية الحاكمة وبالفعل تم للنصارى ما خططوه وقاد ذلك المطران الحاقده حملة دمرت كل شيء في طريقها بالنار والسيوف ، وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرى المسلمين القريبة منهم ، فانتسفت الغلات والكروم ، وقطعت اشجار الزيتون ، وخربت الضياع والقرى، وسيقت الماشية ، وسُبي المسلمون العُزل رجالا ونساء ، وقتل قسمٌ كبير منهم، وزحفت قوى من فرسان النصارى إلى أقصى جنوب الأندلس ، وهم يتابعون العبث والتخريب(1).

وظهر غرور ألفونسو الثامن ملك قشتاله واعتزازه بالنصرانية ولم يقتنع بالغنائم العظيمة التي رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة ، فكتب إلى سلطان الموحيدين خطابا يشابه كتاب الفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوه إلى القتال . وهذا هو نص الخطاب كما ورد في وفيات الأعيان:

"باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح \_\_\_\_\_  
(1) انظر: تاريخ الاندلس ليوسف أشياخ (81/2).

روح الله وكلمته الرسول الفصيح . أما بعد .. فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية ، كما أني أمير الملة النصرانية ، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية ، وإخلاصهم إلى الراحة ، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري ، وأمثل بالرجال ، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة ، وانتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، لا نستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا ، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاما بعد عام ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا أدري أكان الجيش أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك ؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلا لعله لا يسوغ

لك التقم معها ، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك ، على أن تقي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان ، وترسل إلي جملة من عبيدك بالمراكب والشواتي والطرائد والمسطحات ، وأجوز بحملي إليك ، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك ، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك ، وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك ، واستحقيت إمارة الملتين والحكم على البرين ، والله تعالى يوفق للسعادة، ويسهل الإرادة ، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى" (1) .

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يوسف المنصور مرقه وكتب على ظهر \_\_\_\_\_  
(1) وفيات الأعيان (6/7).

قطعة منه: [ إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أدلة وهم صاغرون ] (سورة النمل ، الآية 371) . الجواب ما ترى لا ما تسمع .  
ولا كُنْبَ إلا المشرفية عنده

ولا رُسُلَ إلا الخميس العرمم (1)

لقد اشتد غضب أبي يعقوب المنصور على ألفونسو الثامن وخطرسته ، وأخذته غيرة الإسلام ، فبادر بالتأهب للجهاد في الأندلس ، وأمر أن يداع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم ، وضج الناس وصاحوا بشعارات الجهاد ، وأمر السلطان الموحي بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير إيذاناً بالدعوة العامة إلى الجهاد ، وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير إلى سبتة ، وإلى غيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس .

ودوّت صيحات الجهاد في جميع أنحاء المغرب ، من مدينة سلا على المحيط الأطلسي ، حتى برقة شرقاً على حدود مصر ، ضد النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام . في الوقت نفسه الذي كانت أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين واستعادة مدينة القدس من أيدي الصليبيين قد وصلت إلى مسامع المغاربة وأحيت قلوبهم وطهرت نفوسهم وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله بل نجد أن بعض المغاربة فضل الذهاب إلى الشام والانصواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبي .

لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحاري والمدن والقرى والهضاب والشواطي والجبال في أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد وانضموا إلى ألوية الجهاد في أسبانية ، وبدأ الخطر الدايم ينذر الغرب في

(1) وفيات الأعيان (7/7).

الوقت الذي حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق .

وبعد أن سير أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس ، عبر إلى الجزيرة الخضراء في 20 رجب سنة 591 هـ ، ولم يسترح بها إلى قليلا ، ثم بادر بالسير إلى قشتالة خشية من نفاذ المؤن ، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للإستشهاد .

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولا إلى اختراق قلب أسبانية وافتتاح طليطلة ، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة ، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قوات شمال قلعة رباح ، على مقربة من قلعة الأراك ، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان . ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى ، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة 591هـ/1195م ، وعقد مجلسا من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب اتباعها لخوض المعركة(1).

### **ثالثا: معركة الأرك:**

(الأرك): حصن على بعد عشرين كيلومترا إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنه ، وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه . تجهز الفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ سمع بعبور الموحدين وطلب العون من ملكي ليون وونبارة(2) واستقر كل ملوك أسبانيا المسيحية واستصرخ البابا في روما وقدمت إليه جيوش من فرنسا

(1) انظر: الأرك ، شوقي ابوخليل ص54،53.

(2) المصدر السابق ص54.

والمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوربية ووافته جنود اوربية كبيرة يقودها فرسان ذو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة وممتازة في الحروب ضد المسلمين حتى لقد قدرت القوات الأوربية التي احتشدت في مواجهة القوات الإسلامية بـ (150 ألف جندي) تزيد عن ثلاث أضعاف القوات الإسلامية(1). وتحركت تلك القوات ونزلت في الأرك ، ونزل أبو يوسف يعقوب المنصور على مقربة من المعسكر القشتالي ، ومرّت عدة أيام لم يقع فيها إشتباك(2).

### **خطة الموحدين :**

إجتمع المجلس الحربي الإستشاري للموحدين برئاسة زعيمهم أبو يوسف يعقوب المنصور وتناقشوا في الخطة التي يجب اتباعها في المعركة ، واستمع الزعيم لرأي الجميع ، ثم التفت إلى زعماء الأندلس ، وطلب رأي ابي عبدالله بن صناديد ، لقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب ، وكان أبو يوسف المنصور يفضل

آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى ، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع ، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم ، وكان من رأي ابن صناديد أنه يجب أن توضح خطة موحدة لتسيير دفة الحرب ، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدين في حروبهم السابقة ، ولا سيما في معركة شنترين ، وأنه يجب أن يختار أمير الموحدين قائدا عاما للجيش كله ، فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه ابي يحيى بن أبي حفص ، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي ص 231.

(2) انظر: معركة الأرك ص 55.

والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع .

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعمائهم ، وهو ما لم يتبع دائما ، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف اثناء المواقع ، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم ، على أنه مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا من الجيش ينضوي تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص، ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية ، فقد نصح عبدالله بن صناديد بان يتولى هؤلاء لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول ، وأما بقية الجيش وهي المؤلفة من قبائل البربر ، ومعظمهم غير النظاميين ، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين الأندلسيين ، تقوم بالعون والإمداد . أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها ، ويجب ان يربط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة ، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتبعين ، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب ، كل هذه الآراء أبدأها الزعيم الأندلسي ، وأعجب أبو يوسف المنصور بها ، فوافق عليها ، وأمر بتنفيذها(1).

قلت: وهذه الخطة شبيهة بخطة المرابطين التي وضعوها في معركة الزلاقة عام 479 هـ وهذا يدل على اهتمام أبي عبدالله ابن صناديد بالدراسة التاريخية الواعية .

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين ونتيجة للأعداد الضخمة التي في حوزته رأى أن

يترك أساليب الأسبان القديمة في الحرب ،

(1) انظر : معركة الأرك ص 56.

وهي تقضي بتجنب الإشتباك في المواقع والإمتناع في القلاع ، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الإنسحاب ، إما لنفاد المؤن ، أو لتفشي الأمراض، أو لحلول الشتاء ، ولكن ألفونسو رأى - وهو سيد جيش

ضخم حسن الأهبة - أنه من العار أن ينسحب أمام العدو ، خصوصا وقد كان يؤمل أن يستطيع بقيادته أن يحرز نصرا باهرا على جيش الموحيدين<sup>(1)</sup>.

وفي 9 شعبان 591هـ/8 تموز (يولية) 1195 كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة . وفي صباح هذا اليوم ، أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند ، لكي يذكي حماسهم للقتال ، خبر حلم رآه في الليلة السابقة ، مفاده أنه رأى في نومه فارسا بهي الطلعة ، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء ، ويبيده راية خضراء ، وقد انتشرت في الآفاق ، يقوله له : إنه من ملائكة السماء السابعة ، وإنه جاء يبشره بالنصر بحول الله .

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه ، الذي قدرته الروايات الأوربية الكنسية بستمائة ألف مقاتل وهذا بالطبع مبالغ فيه ، فقد كان في الأغلب يساوي عدد جيش النصارى<sup>(2)</sup>، فاحتل الموحدون - أو القوات النظامية - القلب ، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو احفاد فاتحي المغرب المسلمين ، ومعهم زناته وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة ، واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبدالله بن صناديد . وتولى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي ، ورفعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة ، ولا سيما حملة النبال ، تحت \_\_\_\_\_

(1) انظر: معركة الأرك ص57.

(2) المصدر السابق ص58.

أعلامها الخضراء ، وهو لون الموحيدين ، إلى المقدمة ، لتفتتح القتال ، وهم جميعا يضطرمون شوقا إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى<sup>(1)</sup> . وحين كمل الحشد قال القائد العام للجند إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم : " اغفروا له - فإن هذا موضع الغفران - وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا الله نياتكم"<sup>(2)</sup>.

فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص ، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم<sup>(3)</sup>.

وقام وخطب وحرص على الجهاد وبين فضله ومكانته وقدره ، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم ، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم ، وقويت أنفسهم وعزائمهم ، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم<sup>(4)</sup>.

ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال ، وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب ، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال ، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة ، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعا عاليا ، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال<sup>(5)</sup>.

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح النل الذي يحتله ملك قشتالة ، واندفعت إليه بحاول اقتحامه على اثر كلمات قائدها الملتهبة ، انقض زهاء سبعة او ثمانية الآف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع على \_\_\_\_\_

(1) انظر: معركة الأرك ص58.

(2) صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد العضاني (240/6).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) انظر: تاريخ الأندلس لعبدالرحمن الحجي ص486.

(5) انظر: معركة الأرك ص59.

المسلمين كالسيل الجارف المندفِع من عل<sup>(1)</sup>.

وفي البيان المغرب في معرض الحديث عن القشتاليين، لما رأوا الجيش الاسلامي في سهل الأرك، وهم في المرتفع المشرف عليه: "فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسرابا تتلوها أسراباً، وأفواجا تعقبها أفواج، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج، فدفَعوا حتى انتهوا إلى الأعلام، فتوقفت كالجبال الراسيات، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلاط من السوقة والأحرجة، فصعد غبارها الى الجو، فقال "أبو يوسف، المنصور لخاصته ومن طاف به: جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها، وسار منفرداً من خاصته مقدما بشهامته ونجدته، ومر على الصفوف والقبائل، وألقى اليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه، وعاد الى موضعه وساقته"<sup>(2)</sup> لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين، ولكن العرب والبربر استنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس، ولما عززت صفوف النصارى بقوى جديدة، هجموا للمرة الثانية، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها، وقتلوا قسماً منها، واضطر الباقون إلى التفهقر والتراجع، وأكرم الله الآف من المسلمين بالشهادة، منهم القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص، الذي سقط شهيد وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة والعزة والبرسالة، وظن النصارى أنهم أحرزوا النصر بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين، ولكن الجناح الأيمن للمسلمين بقيادة القائد الأندلسي أبي عبدالله بن صناديد انقض على النصارى \_\_\_\_\_

(1) انظر: معركة الأرك ص59.

(2) انظر: البيان المغرب ص194/195.

انقضاض الأسد على فريسته وأصابوا قلب جيشه القشتالي إصابة دامغة وكان ملك قشتالة يقود قلب جيشه بنفسه ويحيط به عشرة آلاف فارس، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح، لقد استمرت المعركة وهي حامية الوطيس ساعات متتالية واستبدل المسلمون النقص في العدد، بالاقدام والشجاعة، حتى أنه لما زحف زعيم

الموحدين في حرسه وقواته الاحتياطية، ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطروهم إلى الفرار في غير انتظام، لم يغادر ألفونسو وفرسانه عشرة الآلاف مكانهم في القلب، ذلك لأنهم أقسموا جميعاً بأن يموتوا ولا يتقهقروا، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وأرجاء المكان تدوى بوقع حوافر الخيل، وقرع الطبول، وأصوات الأبواق، وصلصلة السلاح، وصياح الجند، وأنين الجرحى (1).

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلولا من النصارى التفت حول ملك قشتالة. وهجم أمير الموحدون في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه: "لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا غالب إلا الله". ولم يشأ الفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطر الهلاك والسحق المحقق، أن ينقذ نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تتجو وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان، وأن تنقذ بذلك حياته (2).

---

(1) انظر: تاريخ الاندلس لأشباخ (86/2).

(2) انظر: الأرك ص 61.

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، بينهم زهرة الفروسية الأسبانية، وغنم المسلمون معسكر الأسبان بجميع ما فيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين (1).

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدون الحربي في كل مكان بعد انتصارهم في موقعة الأرك، وأمر يوسف المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في اشبيلية، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتي متر (2)، كما بنى حصناً كبيراً في مراكش لتخليد ذكرى الموقعة.

وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون افتداء وكان عددهم عشرين ألفاً وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدون واعتبروه خطأً لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستنشد أزر مملكة قشتالة فيما بعد وستسعى للانتقام من المسلمين (3).

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن ينتهز فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصارى، فقام في أوائل سنة 592هـ/

1196 بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية واخترق ولاية "استراما دورة" وعبر النهر الكبير "الوادي الكبير" في اتجاه نهر التاجية، وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة، فامتتع الفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن —————

(1) انظر: روض القرطاس ص145.

(2) انظر: معركة الأرك ص63.

(3) المصدر السابق نفسه.

يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظرا لهبوط معنويات جنده بعد الأرك، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولا اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحباً جنوباً بسبب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدين، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور الى الانسحاب بعد أن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش اسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة اسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة(1).

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها وساعده على ذلك موقعه القوي ولذلك استجاب لطلب ملك ناكار وليون وعقد معهم حلفاً واضطر ملك قشتالة الى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة 592هـ/1196م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة لأن ثورات جديدة قامت في افريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش(2).

ولما جاءت رسل الفونسو المهزوم لمصالحة الموحدين قال الشاعر في مدح المنصور:

أهل بأن يُسعى إليه ويُرتجى

ويُزار من اقصى البلاد على الرجا

مَنْ قد غدا بالمكرّمات مُقلداً

(1) انظر: تاريخ الاسلام ، د. حسن ابراهيم حسن (215/4).

(2) انظر: معركة الأرك ص65.

وموشحاً ومختماً ومثوّجا

عمرت مقامات الملوك بذكره

وتعطرت منه الرياح تأرجاً(1).

#### رابعاً: نتائج معركة الأرك :

- 1- ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك والدمار من قبل النصارى الإسبان.
  - 2- سقوط هيبة ملوك النصارى أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله.
  - 3- حقق الموحدون نصراً عظيماً جعلهم يفكرون بجد في توحيد العالم الإسلامي كله تحت سلطانهم.
  - 4- ارتفاع نجم السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور والموحدين في العالم أجمع.
  - 5- انصاعت بعض قبائل المغرب التي تفكر في الثورة على الموحدين وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم.
  - 6- عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه واعتقت الرقاب، وسر العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد.
  - 7- أصيب نصارى الأسبان بهزيمة نفسية أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الإستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وابعادهم.
  - 8- جعلت ملوك النصارى يتسارعون في عقد المعاهدات مع دولة الموحدين \_\_\_\_\_  
(1) انظر: النفخ الطيب (419/1).
- وإيقاف الحروب والإذعان للشروط التي يضعها الموحدون.
- 9- تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان في نفوسهم، فعملوا على توحيد الممالك وترتيب الأمور ورض الصفوف والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية.
  - 10- دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامي المجيد وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي.
- وغير ذلك من النتائج.

#### خامساً: أسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك :

- لاشك أن النصر العظيم الذي حدث في معركة الأرك له أسباب عدة منها،
- 1- الاهتمام بتصحيح العقيدة ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصوير السليم وهذا ما قام به خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة بن تومرت واستخف بمن بالغوا في تقديسه واهتم بالقرآن والسنة وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة وهذه محاولة جادة في

إصلاح المنهج والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة.

2- اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال لعلمه أن طريق النصر والتمكين من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء.

3- محاربة المنكر والتضييق على الفساق وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر باشراف السلطان بنفسه ونشر العدل بين الرعية والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه وحارب الظلم وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم وكان يشدد في إلزام الرعية باقامة الصلوات الخمس.

4- فتح باب الاجتهاد وحارب الجمود وألغى اهتمام الدولة بفروع الفقه والزم العلماء بأن لايفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحد من الأئمة المجتهدين المتقدمين<sup>(1)</sup>، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس وبذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه. وابطل التقليد<sup>(2)</sup> ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة: أبو الخطاب بن دحية وأخوه أبو عمر وغيرهم<sup>(3)</sup>.

5- احترام العلماء والقضاة والفقهاء في زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبي يوسف يعقوب المنصور للقضاة ووقوفه عند الشرع روى ابن خلكان: أن الأمير الشيخ أبا محمد عبدالواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبدالواحد صاحب افريقية، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها، فسير الأمير عبدالواحد لطلبها فامتعت عليه، وشكا الامير عبدالواحد ذلك الى قاضي الجماعة بمراكش، وهو القاضي أبو عبدالله بن علي بن مروان، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبدالواحد يطلب أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور. ومضى ذلك أيام. ثم إن الشيخ عبدالواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاؤوني، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: يا أمير المؤمنين،

(1) كان الأولى ان يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه وترك من أراد أن يقتدي في فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والزهري والأوزاعي رحمهم الله.

(2) انظر: الأعلام للزركلي (203/8).

(3) انظر: معركة الأرك ص71.

الشيخ عبدالواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب. ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبدالواحد

القاضي بالقصر المذكور وقد جاء الى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له: يا قاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير، وقال له: يا مولانا إن الشيخ عبدالواحد قد تكرر طلبه لأهله، فإما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور، ثم قال: يا أبا عبدالله ما هذا إلا جدّ كبير، ثم استدعى خادما وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبدالواحد إليه فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئا يكرهه، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره، وهذه حسنة تعد له، وللقاضي أيضا، فإنه بالغ في إقامة منار العدل<sup>(1)</sup>.

6- الحزم والقيادة الرشيدة التي تميز بها أبو يوسف المنصور في قيادته لدولة الموحدين حيث استطاع أن يوحد البيت المغربي الداخلي والقضاء على ثورات الأعراب وبنو غانية والمتمردين وقاد المعارك بنفسه واسند المهام الكبرى لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة.

7- الإهتمام بمبدأ الشورى والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأي وتهميش الآخرين ولذلك استمع أبي يوسف إلى الآراء في مجلس حربه واعطاء لأهل الاختصاص مكانة معنوية واستمع لزعيم الأندلسيين واستفاد من خبرته الطويلة في محاربة النصارى واعتمد خطة أبي عبدالله بن صناديد ذات الابعاد المتعددة.

8- الإهتمام بمعرفة نفسية الأقباط المشاركة في الجهاد فمثلاً، الأندلسيين \_\_\_\_\_  
(1) انظر: وفيات الأعيان (10،11/7).

يفضلون أن يكون زعيمهم منهم وترتفع معناويتهم وتنشط همهم ويندفعون كالأسود عندما يكون قائدهم منهم ويحدث العكس عندما يكون قائدهم من غيرهم ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبي عبدالله بن صناديد.

9- جودة التخطيط، وظهر ذلك في حشد الألوف من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع واحكام الخطة في المعركة الفاصلة.

10- الإهتمام بتوحيد القيادة في المعارك الفاصلة ولذلك عين أبو يوسف المنصور أبا يحيى بن أبي حفص قائداً أعلى لجيوش الموحدين لما تميز به من حنكة وشجاعة ومهارة في القتال.

11- اذكاء روح الجهاد في الجنود وكان من عادة الموحدين من زمن أبي يعقوب يوسف بن عبدالؤمن قبل الحرب أن يذكروا المجاهدين بأحاديث الجهاد ولقد أمر السلطان أبو يعقوب العلماء بأن يجمعوا أحاديث في الجهاد لتملى على الموحدين من أجل دراستها وحفظها وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحدين.

12- تواضع القيادة، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له وأن

يتغافروا فيما بينهم، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم.

13- سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤى، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأى من نزول فارس بهي الطلعة، على فرس أبيض من باب فتح من السماء ويده راية خضراء وقد انتشرت في الآفاق يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله وقوته. وغير ذلك من الأسباب التي ظهرت من خلال دراسة عصر أبي يوسف يعقوب المنصور.

#### **سادساً: السفارة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور :**

توجت الأعمال العظيمة التي قام بها عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود بن عماد زنكي بتوحيد الشام مع مصر وتولى القيادة بعد نور الدين صلاح الدين الأيوبي فاستمر صلاح الدين في دفع حركة الجهاد، وأخذ يستولي على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة 583هـ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية. لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحي وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة<sup>(1)</sup>.

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً<sup>(2)</sup> جاء فيه:

"الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفة من استعمر الأرض، وأغنى من أهلها من سأله الفرض، وأجرى على يده النافلة والفرض وزين سماء الدراري التي بعضها من بعض" وكان عنوان الكتاب: من صلاح الدين إلى أمير المسلمين، وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب. ويذكر السلاوي —————  
(1) انظر: تاريخ الاسلام ، د. حسن ابراهيم حسن (216/4).  
(2) الاستقصا للسلاوي (163/2).

أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين، وأن يعقوب أسرها في نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً. وقد قيل إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلت ابن خلدون<sup>(1)</sup> بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية<sup>(2)</sup>.

ولايبعد أن يكون استنجد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحي راجعاً إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض قطع من الأسطول الموحي لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحراً، إذ عني

المغاربة في عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس. على أن مذكوره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحد لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يقبله بلقب أمير المؤمنين لاينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب النصارى في الأندلس<sup>(3)</sup> وذكر بعض المؤرخين سبباً آخر منع أبو يوسف المنصور من دعم صلاح الدين وذلك لأن توسع —————

(1) انظر: العبر (490/6).

(2) انظر: تاريخ الاسلام (216/4).

(3) المصدر السابق نفسه.

صلاح الدين في غرب مصر، بحروب قام بها بعض اتباعه وخصوصاً قراقوش التقوي الذي حالف بعض أعداء الموحدين كعرب بني هلال، وابن غانیه الذي كان يدعو إلى المرابطين، وهذا سبب وجيه<sup>(1)</sup>. ويبدو أن ظهور دولة صلاح الدين الايوبي على انقاض الدولة العبيدية الراضية في مصر ساءهم، لأن ذلك ترتب عليه ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك الديار ولأن الموحدين لم يعترفوا بخلافة العباسيين، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراكش لا بغداد وكانت طموحات خلفاء الموحدين ظاهرة من أجل توحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ولاسيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي ينسب إليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته في الرحلة إلى المشرق وتطهيره من عيوبه<sup>(2)</sup>. وقد أثار الذهبي إلى تصريح السلطان أبي يوسف المنصور برغبته من قصد مصر<sup>(3)</sup>.

وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبدالسلام الجراوي في بعض أشعاره كقوله في مدح الخليفة الموحد يعقوب المنصور:

إن الخلافة نالت من محاسنكم

أوفى الحظوظ فأبدت منظرًا عجباً

أعلى المراتب من بعد النبوة قد

(1) انظر: معركة الأرك ص 70.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب ص 114.

(3) انظر: سير أعلام النبلاء (315/21).

حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا

سينظم السعد مصراً في ممالكه

حتى يدوخ منها خيله حلبا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى

أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا

هو الذي كانت الدنيا تؤمله

وكل عصر له مازال مرتقبا(1).

لاشك أن الموحدين كانوا يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي، وأن أولى الخطوات المستهدفة هي البلاد المصرية لقد صرح سلطان الموحي المنصور برغبته في غزو البلاد المصرية وذكر ما فيها من المناكر والبدع، وقال نحن ان شاء الله مطهروها. ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات رحمه الله(2). إذن فقد كان الموحدون يخططون لغزو المشرق كله. ولاشك أن أمراء الدولة النورية والأيوبية يعلمون بهذا. ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم. فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها. وذلك حتى تكون هذه المراكز خط دفاع الأول وامارات المشرق في وجه الاطماع الموحدية. وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي احدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها(3).

لقد تحركت الحملات الأيوبية نحو المغرب واتخذت الطريق الصحراوي، \_\_\_\_\_

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب للعبادي ص115.

(2) انظر: سقوط دولة الموحدين ص198.

(3) المصدر السابق نفسه.

لقصره أولاً ثم لقلعة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئاً بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يخضعوا شرق ليبيا لسيادتهم ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته، ولذلك عملوا على التمسك بهذه البلاد ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم(1).

وقد رفض المنصور ارسال النجدة لدوافع نفسية، وحزازات سياسية، وموقف داخلي متوتر، وخارجي متربص ولقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وبالغ في اكرامه ولما مدحه سفير صلاح الدين ابن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتا اعطاه بكل بيت ألفاً.

ومن القصيدة:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته  
إلى بحر جود ما لأخراه ساحلُ  
إلى معدن التقوى الى كعبة الندى  
الى سمت بالذكر منه الأوائل  
إليك أمير المؤمنين ولم تنزل  
إلى بابك المأمول ترجي الرواحل  
قطعت إليك البر والبحر موقناً  
بأن نذاك الغمر بالنجح كافل  
وحزت بقصيدك العلا فبلغتها  
وأدنى عطياك العدد والفواضل

(1) سقوط الموحدين ص 198.

فلا زلت للعلياء والجود بانياً

تبلغك الآمال ما أنت أمل (1)

إن صلاح الدين الأيوبي لم يعترف بخلافة السلطان الموحدى ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله ابن منقذ وهذه مسألة لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية القائمة في العن على تعاليم ابن تومرت المنحرفة وهذا ما بينه القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال: (... بأن الخطاب يكفي، وطريق جحدنا له ممكن، والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل اتباعه، مرخصين الغالي، منحطين عن العالي شاقين عصا المسلمين، مغرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لاتحل طاعته، متقلدين لمن لاتصح ولايته" (2).

لو التقى صلاح الدين مع السلطان يعقوب المنصور في غرفة مباحثات مغلقة لوصلوا إلى أمور تنفع الأمة كلها نظراً لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظير ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على اصلاح عقائد الموحدين والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة ولكن الله غالب على أمره.

ومهما يكن من شيء فان هذا الخلاف السياسي والعقدي الذي وقع بين عاهل

(1) انظر: معركة الأرك ص 74.

(2) دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ، عزالدين عمر أحمد موسى ص39. وانظر: دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص117 للعبادي.

المشرق والمغرب، لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة، قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشاركة، واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين(1).

ويشير الرحالة ابن جبير وكان معاصراً لزمان صلاح الدين إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الإفرنج في الشام على تجار المغاربة دوناً عن سائر تجار المسلمين "لأن طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكي أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافهم على بلادهم..." ثم يشير ابن جبير في مكان آخر من كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء في الشرق العربي بفداء الأسرى من المغاربة: فكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم"(2).

#### سابعاً: وفاة السلطان وبعض أعماله وأخلاقه:

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب المنصور من أفضل عصور دولة الموحدين ولقد اهتم بالبناء والعمارة، فسعى لأكمال مدينة الرباط التي رسم حدودها وبدأ ببناءها والده، وبنى بها مسجداً عظيماً متسع الفناء له  
مئذنة

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص118.

(2) راجع رحلة ابن جبير ص280،274 نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص119.

شامخة على هيئة منارة الاسكندرية، يصعد إليها بغير درج، وتسمى الآن منارة حسان.

كان عبدالمؤمن بن علي قد هدم مدينة فاس في أثناء حروبه مع المرابطين، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور. ومما ساعد على إقامة هذه المنشآت هذه الاموال الضخمة التي تدفقت على دولته(1).

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب الى الخيال. فقال بعض إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من وقعة الأرك، ثم زهد في الدنيا وساح في الأرض حتى وافته منيته. وقال بعض آخر انه ذهب للحج وعاد منه زاهداً فمات في الطريق ودفن في الشام(2).

ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوى عبدالواحد المراكشي، فقد ذكر ان يعقوب المنصور كان يتوق الى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات في مستهل سنة 595هـ ودفن بتينملل مع آبائه ويبدو ما ذكره المراكشي أقرب هذه الروايات الى الصواب(3).

يروى ابن زرع ان المنصور لما أشرف على الموت قال: ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أنني لم أفعلها :الاولى : إدخال البدو - العربان- من افريقية الى المغرب، مع أنني أعلم أنهم أهل فساد، والثانية: بناء (رباط الفتح) ، انفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر، والثالثة: إطلاق أسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم .

---

(1) انظر: تاريخ الاسلام ، د.حسن ابراهيم حسن (217/4).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

وصدقت فراسة يوسف المنصور في الاولى والثانية، وكتب لرباط الفتح ان يعمر ، ولكن بعد قرون من وفاته، حيث غصت هذه المدينة بالأسر المهاجرة من الأندلس(1).

لقد توفى هذا السلطان المجاهد الذي أصلح ما استطاع من عقائد الموحدين عام 595هـ(2) فرحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه.

(1) انظر: معركة الأرك ص76.

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (319/21).

## المبحث الرابع

### الخليفة الموحي

### ابو محمد عبدالله الناصر

توفى الخليفة الموحي يعقوب المنصور عام 595هـ/1199م وقد أثارت وفاته حزناً عميقاً في الاوساط الاسلامية المغربية ذلك لأن كثير من الناس كذبوا وفاته وقال البعض أنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية الى الاندلس حيث يربط في ثغورنا لجهاد الكفار وقال البعض الآخر بل إنه توجه الى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يخفى أمره وقال فريق ثالث بل إنه رحل الى الأراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبين هناك. وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وكما علمنا فإنه قد مات في المغرب ودفن بجوار آباءه في تينملل<sup>(1)</sup> إلا أنه في الوقت نفسه حركت وفاته أطماع الطامعين من خصوم دولة الموحيين من جديد ، وخلفه ابو محمد عبدالله الملقب بالناصر وكان عمره يوم ارتقاء عرش سلطنة المغرب والاندلس ثمانية عشرة عاماً حيث إنه ولد في عام 576هـ/1180م.

وتولى الحكم عام 595هـ/1199م وقد كان شاباً طموحاً معتزاً بنفسه وبرأيه قليل الذكاء ولا يحترم أصحاب الخبرات الواسعة من رجالات دولة الموحيين، وأستبد بالأمور ورفض النصائح من أقرب المقربين من رجاله وكان والده قد أطلعه على سير الامور في البلاد وأمره بأن لا يقطع برأي حاسم يهم البلاد دون مشاورة أبي حفص محمد أبي حفص إلا ان ابا محمد عبدالله الناصر \_\_\_\_\_

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (236/3).

استبد بالأمر<sup>(1)</sup>.

أولاً: ثورة بني غانية:

شغل محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين بثورة آل غانية التي نشطت من جديد والتي تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين واستطاع عبدالله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ويجعلهم شوكة في حلق الموحدين، لقد كانت أسرة بني غانية لها نفوذ من زمن المرابطين واستعمل السلطان المرابطي علي بن يوسف رجلين منهما في الاندلس وهما محمد ويحيى، وكان يحيى وهو الأكبر من أخيه محمد، حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس، منها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف من الله عز وجل، والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم في الفقه، واتساع في رواية الحديث وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عدّ وحده بخمسائة فارس. وكان علي بن يوسف بن تاشفين الملقب بالعماد يستدفع به المهمات، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الاندلس، ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم، منها انقاذ جزيرة فراغة في شمال شرق الاندلس عام 529هـ من ألفونسو ملك أراغون، بعد ما احتل هذا سرقسطة وتظليه وقلعة أيوب.

وليّ علي بن يوسف بن تاشفين يحيى بن غانية مدينة بلنسية، ثم عزله عنها ليوليه قرطبة، فلم يزل بها والياً الى أن مات، وبموته كانت أولى الفتنة على \_\_\_\_\_  
(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (236/3).

المرابطين، فبدأ أخوه محمد بن غانية يجول الاندلس الفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، ولما أشد خوف محمد بن غانية، وصل دانية وعبر عنها الى جزيرة البليار (منورقة ويابسة مع ميورقة).

ضبط محمد إمارة جزيرة البليار تحت سلطة المرابطين، داعياً للخلافة العباسية. وبعد محمد ملك ابنه اسحاق، فأتمه بقايا المرابطين، فأحسن إليهم وأكرمهم حسب طاقته.

واقبل اسحاق بن محمد على الجهاد في سبيل الله وسجل صفحات عطرة خالده في جهاده الميمون، وكان في كل عام يغزو مرتين بلاد الروم - غرب ايطاليا جنوب فرنسا- فيغنم وينكى في الأعداء أشد نكاية، وأشدت بذلك عوده وقوى أمره، وتشبه بالسلطين العظام ولم تنزل هذه سيرته الى ان توفى عام 579هـ.

وكان اسحاق هذا له سياسة مرنة مع الموحدين، فلاطفهم وارسل لهم الهدايا الثمينة وهدانهم واشغلهم عنه، ولم يلتفت الموحدون الى جزر البليار باهتمام يذكر، فلما كان سنة 578هـ كتبوا إليه الى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه ان لم يلبي مرادهم، فأعطاهم العهود المؤجلة، واستنثار وجوه أصحابه، فاختلّفوا عليه، فمنهم من أشار بعدم طاعة الموحدين والامتناع عنهم بجزر البليار، ومنهم من رأى الدخول أسلم لحماية الانفس والاغراض وخرج ذلك المجاهد الكبير في غزوة من غزواته، فأكرمه الله بالشهادة

، فتولى الامر من بعده ولده الأكبر علي بعهد من والده، والذي دخل في حرب مع الموحدين طويلة المدى ، واستطاع الخليفة الموحي المنصور ان يكسر شوكته وجرّد الجيوش لحربه وقادها بنفسه واستطاع أن يخمد ثورة بني غانية في المغرب الأوسط وأفريقية وطرابلس بحد السنان ومزق تحالف بني غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال وامراء الايوبيين (1).

ومع وفاة الخليفة الموحي المنصور عاد بنو غانية الميورقيون الى شن غاراتهم على افريقية وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين وكان عبدالله بن غانية قد حاول في عام 596هـ/1200م أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الهدف.

ورأى الخليفة الموحي الجديد أبو عبدالله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحدين في افريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعدة بني غانية ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في افريقية لهذا صمم الناصر على بسط نفوذه في تلك الجزر مصدر القلق المستمر للموحدين وشرع أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى الى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض في ثغر دانية وأسند قيادة الاسطول الى عمه أبي العلاء إدريس بن يوسف ابن عبدالمؤمن كما أسند قيادة الجيش الى شيخ الموحدين أبي سعيد عثمان بن حفص.

كانت الحملة تتكون من ألفين ومائتي فارس وسبعمئة من الرماة وخمسة عشر الف من الرجال وغير رجال الأسطول وكان الأسطول في ثلاثمئة جفن (سفنينة) ( أو أنواع السفن) وأقلعوا يوم السبت 24 ذي حجة 599هـ/ 1203م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج اليهم عبدالله بن غانية لكنه هزم وقتل وتغلب رجال الاسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء ادريس قائد الاسطول والشيخ أبي سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك \_\_\_\_\_  
(1) انظر: العقاب ، شوقي أبوخليل ص(15،16).

الأسطول الى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها الى العاصمة مراكش وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك 600هـ/1203م وأقيم عليها عبدالله بن طاع الله الكومي والياً عليها وبذلك يكون الموحدين قد قطعوا جذور بني غانية في الجزر الشرقية (جزر البليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة).

وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في إفريقيا والمغرب الأوسط، فتحرك إليهم الناصر بجيشه وأسطوله عام 601هـ/1204م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده الى صحراء ليبيا وأقام الناصر

الشيخ عبدالواحد بن أبي حفص الهنتاتي جد ملوك الحفصيين والياً على أفريقية واعطاء مطلق التصرف في إدارتها.

واستطاع الوالي الموحدي الجديد أن يقضي على مقاومة الأعراب وبني غانية واحلافهم في أفريقية ونستطيع أن نقول أن عام 604هـ الذي كانت فيه موقعة الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية في افريقية، لقد تعقب أبو محمد الحفصي جيوش يحيى بن غانية حتى انهكها وشتت جموعها واحلافها وفي عام 631هـ/633هـ أو 1236م توفي يحيى بن اسحاق ابن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر وكان هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين. وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان<sup>(1)</sup>.

لقد كان الدافع العقدي لثورة بني غانية واضح المعالم، لأنهم رأو في الموحدين دولة منحرفة عن أصول منهج أهل السنة والجماعة ولأنهم حرصوا \_\_\_\_\_  
(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/236 الى 240).

على وحدة الأمة تحت لواء الدولة العباسية ولذلك سعى بنو غانية الى تأسيس دولة سنية على نهج دولة المرابطين التي كسبت سمعة طيبة عطرة بسبب اخلاصها وصادقها للاسلام الصحيح وهذا يفسر لنا وقوف أهالي المغرب الاوسط وأفريقية لمدة تزيد عن أربعة عقود مع ثورة بني غانية.

لقد كان فشل تلك المحاولة الجادة التي قام بها بنو غانية بسبب الضربات الموحّدية القوية والمركزة وبسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تستطع أن تمد بني غانية بالعدة والسلاح والرجال في حربهم الطويلة مع دولة الموحدين وبسبب انشغال الأيوبيين بمشاكلهم الداخلية بعد وفاة صلاح الدين وبحروبهم مع الحملات الصليبية الحاقدة.

### **ثانياً : جهاد الناصر لدين الله في الأندلس:**

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد ولقد تركت آثاراً عميقة في نفوس النصارى وخصوصاً ألفونس الثامن ملك فشتالة الذي لم يستطع أن ينسى مرارة الهزيمة، فشرع يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الاسلامية تحصيناً قوياً عام 1209م ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين ، لذا لم يكن الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الاندلس الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون، وحصل منهما على وعد بتأييده وامداده بالجند حين الخطر لمحاربة المسلمين واعتزم بعد ذلك مَحْوَ وصمة هزيمة الأرك ، بإحراز نصر على الموحدين<sup>(1)</sup>.

(1) انظر: معركة العقاب، شوقي ابوخليل ص23.

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الاندلس في ذلك الوقت واستطاع الاسبان النصارى أن يوحدوا جبهتهم الداخلية، وان يدعوا نصارى أوروبا لحرب صليبية باركها البابا أنوسنت الثالث، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصارى في أوروبا وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وأيطاليا لمناصرة الصليب في الأندلس (1).

وشرع النصارى الحاقدين في احراق الزروع والحقول ، ونهب القرى وقتل السكان وسبي منهم جموعاً كبيرة. وأمام هذه الاعتداءات الهمجية المتكررة على الاندلس ، أعلن الناصر لدين الله الجهاد ، فحشد قوات كبيرة وشرع في ارسالها من المغرب ، وقسمها الى خمسة جيوش:

1- الجيش الاول من قبائل البربر .

2- والثاني من الجنود المغاربة.

3- والثالث من الجنود الموحدية النظامية.

4- والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة.

5- والخامس هو جند الاندلس.

وقدر جيش أبي عبدالله محمد الناصر بنصف مليون مجاهد وفي 25 ذي القعدة سنة 607هـ أوائل أيار (مايو) سنة 1211م، جاز سلطان الموحدين بنفسه الى الاندلس ، ونزل في جزيرة طريف، ثم سار بعد أيام الى أشبيلية وهناك كان الخطأ الفادح (2).

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (240/3).

(2) انظر: معركة العقاب، شوقي أبوخليل ص23.

نتيجة لصغر سنه ولقلة خبرته، واستبداه بالرأي حيث أرسل خيرة جنده الى حصن سَلْبَطْرَة، فأنهك بذلك قواهم ، وليث الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر وهو ممتع عليه، وأصر أبو عبدالله محمد الناصر نزولاً على نصح حاجبه ابي سعيد ابن جامع وكان الموحدون يشكون في صدق نياته - ولكن أبا عبدالله محمد الناصر وضع فيه كل ثقته، وأصر ابو سعيد بن جامع على ألا يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة.

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء ، وعانى المغاربة في الجبال الوعرة المحيطة

بالحصن من قسوة الطقس ما لا يطاق كما أودى المرض بحياة الآلاف منهم، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تصعب وتتعرش يوماً فيوماً.

وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ويرغم الموحيدين على رفع الحصار ولكن هذه المحاولة لم تفلح، وفجع ألفونسو بفقدته لولده الذي قاد الجيش لانقاذ الحصن، وسقطت قلعة سلبطرة أخيراً بيد الموحيدين ، بسبب الجوع الذي حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين.

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصراني في أوروبا وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكي ننساهم في كفاح الصليب المقدس(1).

وقام البابا أنوسان الثالث بدور كبير في نفخ روح الحقد في النصارى وطلب من الاساقفة في جنوبي فرنسا (بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لموازرة ملك قشتالة وأنه - اي البابا- يمنح كل من لبي

الدعوة \_\_\_\_\_

(1) انظر: العقاب ص26.

الغفران التام(1).

وتحركات الامواج البشرية النصرانية من اوربا للوقوف مع نصارى الاسبان وكان الاساقفة يرثسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة، وقد تولوا الانفاق على حشودهم(2).

ووفدت على اسبانية جموع المحاربين من جميع البلدان الأوروبية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصلبان، وكان الفرنسيون أكثر الوافدين عدداً، وقاد أرنولد مطران أريونة جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية يضطرم شوقاً للقاء المسلمين. ووفق أرنولد الى ما هو أهم من ذلك، وهو أن يحمل بذلاقتة وضراعتة ملك نافار - بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة- أولاً على أن يؤيد قضية اسبانية بالمال والجند، ثم - وهو الأهم- على التعهد بأن يسير في فرسانه ، وأن يشترك بنفسه في القتال.

واجتمعت في مملكة قشتالة ما لا يحصى من جنود النصارى المتعطشين لسفك دماء المسلمين وكان في مقدمة تلك الحشود الضخمة ألمان من البارونات مع حاشياتهم ، وبيدرو الثاني ملك أراغوان في جيشه الضخم، كما توافدت امدادات ليون وجليقية والبرتغال ، وكانت قوات البرتغالية تتكون من عدد من الفرسان والمشاة البارعين ، يقودهم أمير برتغالي هو بيورو الثالث، أحد ابناء الملك سانشو الاول.

لقد تجمعت هذه الحشود في طليطلة التي لم تستطع أن تستوعبهم ، فأضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم في

الخيام خارج المدينة، بأنواع من السلاح \_\_\_\_\_

(1) انظر: العقاب ص28.

(2) المصدر السابق ص29.

والملابس واللغات والعادات لقد اشتركت أوروبا فعلياً بأمر من البابا وقامت فرنسا وإيطاليا بأرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغرية والهدايا النفيسة الى القادة والزعماء(1).

وفي روما ، أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام ، والأكتفاء بالخبز والماء ألتماساً لانتصار الجيوش النصرانية، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات الى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة الى اخرى ، ومن دير الى آخر ، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية ، طلب فيها الى النصارى أن يتضرعوا الى الله التماساً لنصر الاسبان.

وفي 20 حزيران (يونية) 1212م ، تأهب الجيش النصراني للسير الى لقاء المسلمين، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش ، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن، وسار في الطليعة جيش القادمين من أوروبا وكان تعداده ما بين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالي (ديجو لوبيزدي هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة، ومطران بوددو (بُردال) وأسقف نانت.

وكان الجيش الثالث بقيادة بيدور الثاني، وهو مؤلف من الأراغونيين والقطلونيين فقط مع فرسان الداوية. أما الجيش الثالث، وهو أضخم الجيوش الثلاثة، ويتألف من جنود قشتالة، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان، الأمير الليوني سانشو فرنانديز، \_\_\_\_\_  
(1) انظر: العقاب ص(30،31).

والمؤن والطلبات، ووردريك مطران طليطلة، وخمسة أساقفة آخر. وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدتهم الضخم الكبير(1).

### أ- حصار قلعة رباح:

وفي اليوم الخامس في بدء السير من طليطلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونية) 1212م، هاجم جنود النصارى حصن (مجلون)، وبادوا جميع من فيه بعد ذلك ساروا الى قلعة رباح، وكانت بها حامية قوية من الموحدين، ولقي النصارى في عبور وادي يانة الذي تقع عليه المدينة صعاباً فادحة، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصانير والخوازيق الحديدية. وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح في جوانبها الثلاثة المنيعة، حتى سقطت المدينة في أيديهم، ولكن

القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية ، والأسوار المنيعة ، وكان يخشى أن تقتضي حصاراً طويلاً. وأبدى ملك أراغون والمحاربون الوافدون في افتتاح المدينة شجاعة عظيمة ، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر ويقول يوسف اشباخ<sup>(2)</sup>: (وقبل أن يعود النصارى الى مهاجمة القلعة، عقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة ، دون محاولة افتتاحها، وأن يُبدأ بالسير تَوّاً لمهاجمة المسلمين)<sup>(3)</sup>.

(1) انظر: العقاب ص32.

(2) تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين (113/2).

(3) انظر: معركة العقاب ص31.

لقد تغلب الرأي القائل بمهاجمة القلعة، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة ، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارى يشعرون بنقصها.

لقد ضيق النصارى على مسلمي القلعة واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف بن قاسم بأن يفاوض النصارى وانسحب بجنوده وترك القلعة ووجد ألفونسو في قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن<sup>(1)</sup>.

وسار النصارى الى لقاء المسلمين بعزم أقوى، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك، وهو المكان الذي لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء، وأذكى شجاعتهم قدوم شانشو ملك نافار، وقد اشتهروا بالبراعة في الحرب والشجاعة في القتال.

وعلى اثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة ، الفونسو الثامن ملك قشتالة ، وسانشو ملك نافار ، بيدرو الثاني ملك أرغوني نحو مدينة سلبطرة ، وهي القلعة التي افتتحها الموحدون في العام السابق بعد حصار طويل . وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشاً لم تخرج اسبانية النصرانية مثله من قبل ، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها واتقاء لحصار لا طائل منه ، فاخترقوا ممر "ورادال" في جبال سيارا مورنيا "جبل الشارات" لكي يلقوا المسلمين في ناحيتها الأخرى<sup>(2)</sup>.

### **ب- مقتل البطل يوسف بن قاسم أبو الحجاج:**

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذي بذل ما في وسعه وطاقته من

(1) انظر: معركة العقاب ص32.

(2) المصدر السابق ص35.

أجل الاسلام والمسلمين غضب السلطان الناصر على أبي الحجاج وبدس من وزيره أبي سعيد بن جامع أمر

السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهارا ، فكان لهذا الفعل أثر سيء في الجيش الاسلامي كله ، ولا سيما في جند الأندلس، ذلك لانهم كانوا يعلمون ان ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر (1).

قلت: وهذا الفعل يدل على ضيق افق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته ، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوي صفها ووحدتها في صفوف الأعداء، ولو كان هذا السلطان لديه فقه في السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك ونجد في الشريعة الغراء قواعد واضحة المعالم في دفع المفساد وجلب المصالح ومعرفة مقاصد الشريعة .

إن هذا العمل الخاطئ الذي قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار .

### المعركة :

قام ملوك الأسبان في صباح 16 تموز "يولية" بترتيب جندهم لخوض المعركة، فربط بعضهم على سفح الجبل ، والبعض فوق الرئي ، تزعم الفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الاشراف على الجيش كله ، وكان القلب يضم أربعة فرق:

1- تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية ، ويقودها "ديجولويز" .

---

(1) انظر: العقاب ص.36

2- وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح ، وشنب ياقب ، والاستبارية والداوية ، وبعض جند الحدود القشتالية ، ويقود هذه الفرقة الكونت "جونزالو نونيز دي لارا" .

3- والفرق الثالثة وتتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشنترويش، ويسكونية ، ويقودها الكونت "ردريك دياز كاميروس" .

4- وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة ، وبعض قوات ليون ، ويقودها الفونسو نفسه ، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين، وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلا عن المطران "ردريك الطليطلي" (1) ، عدة اساقفة من قشتالة وليون مع جندهم .

وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا ، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة آرولد مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي.

أما الجناح الأيسر ، فكان ينقسم أيضا إلى أربع فرق ، ويتألف كله من قوات أراغون ، ما عدا بعض جند

المشاة القشتاليين ، ويقوده الملك بيدرو ، ومن حوله الأبحار والأرغونيون .  
أما جيش الموحدين ، فقد قسّمه أبو عبدالله محمد الناصر تجاه جيش النصارى في سهل "تولوزا" وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق .

كانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوّعة ، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم ، وبدافع ذاتي محض للجهاد والموت في سبيل الله ، ونشر الإسلام . وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل . واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة ، والقبايل البربرية في الميسرة ، وأما القلب والقوات الاحتياطية \_\_\_\_\_  
(1) انظر: تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين لأشباح (117/2).

فكانت تتألف من صفوة الجيش ، من الجند المغاربة والنظاميين ، او بعبارة أخرى من الجند الموحدين . وضرب أبو عبدالله محمد الناصر قبّته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف ، ربط أمامها جواده المسرج . وقعد في داخلها على درقته<sup>(1)</sup> ، إيذانا باقتراب المعركة ، ومن حوله حرسة من مشاة وفرسان . وشهر الجند حرابهم في اتجاه معسكر النصارى الاسبان ومن معهم من قوات أوربية صليبية ، فكانت سدا منيعا دون اختراقه الموت .

ولما تمّت استعدادات المعركة ، خرج سلطان الموحدين من قبته وهو يرتدي عباءة سوداء من مخلفات جده عبدالمؤمن وقد رفع المصحف الشريف باحدى يديه ، وشهر سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوي بشدة في ساحة المعركة<sup>(2)</sup> وسارع جند المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة في سبيل الله وكان هجومهم عنيفا قويا ولكنهم لم يستطيعوا ان يخرقوا صفوف النصارى التي كانت مدعومة بجماعات الفرسان الدينية - الاستنارية والدواوية - فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين ، وان يمزقوها . واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام ، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين ، وتقدّموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامي ، حيث حُشدت صفوة الجند ، لقوا اشد مقاومة ، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية ، وارتدوا فارّين ، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم .

ولما رأى ملك قشتالة من الرّبي تطور المعركة على هذا النحو السيء ، \_\_\_\_\_

(1) انظر: تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين (118/2).

(2) انظر: العقاب ص42.

اراد ان يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والظليطليين ، وهم جماعة مختارة كانت تؤلّف القوة الاحتياطية ، وان يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة ، وكانت كلماته التي قالها لمطران ظليطلة وهي: "إن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد"<sup>(1)</sup>.

تدل على أنه لم يكن يأمل النصر بعد . ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الاخطار ، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد ، وسار الأبحار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعصنة ، وهم يرفعون أعلاما عليها صورة المسيح ، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جندهم .

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الامدادات الجديدة ، ليلموا شعثهم ، وينظموا جموعهم ، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة ، وهم يحطمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الاسلامي ، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه ، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب ، كان جناحا الجيش الإسلامي قد حطما ، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار ، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الإسلامي ، ولم يصمد في ذلك القتال إلا جند الموحدين النظاميين ، والحرس المغاربة ، فقد صمدوا في مقاومة هجمات النصارى ، وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة ، وبسالة نادرة ، ورجولة فريدة ، وجلد لا مثيل له ، ولكن الدائرة حطمت وأصبح نصر ————— (1) انظر: تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين (118/2) نقلاً عن العقاب ص45.

النصارى لا مفر منه وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ويذكي حماسهم حتى اللحظات الأخيرة مع نفر من جنوده واتجاه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها ، بل سار منها إلى أشبيلية .

لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب في هلاك الأندلس وبداية أفول شمس الإسلام في الأندلس ، حيث كانت النهاية ، أو نهاية البداية مصرع غرناطة .

لقد كانت حشود النصارى في معركة العقاب ضخمة جدا وكانت التعبئة والنفير العام على مستوى أوروبا كلها يدفعهم الحقد الصليبي ، للإنتقام من المسلمين والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم (1).

لقد استشهد في هذه المعركة الألوف من المسلمين ومن العلماء العاملين المجاهدين ومن أشهر هؤلاء

العلماء :

1- أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النضري (542-609هـ) . من أهل شاطبه ، صاحب التأليف الذي "كان أحد الحفاظ للحديث ، يسرد المتن والأسانيد ظاهراً ، لا يخل بحفظ شيء منها . موصوفاً بالدراية والرواية، غالباً عليه الورع والزهد ، على منهاج السلف ، يأكل الجشب، ويلبس الخشن، وربما اذن في المساجد ، وله تأليف دالة على سعة حفظه، مع النظم والنثر .. ثم توجه إثر ذلك غازياً . وشهد وقعة

العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها . وكانت السبب الأقوى في تحييف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حيا ولا ميتا وذلك يوم الاثنين \_\_\_\_\_  
(1) انظر: العقاب ص 46،47.

منتصف صفر سنة تسع وستمائة.. " (1).

2- القاضي الفقيه أبو ابراهيم إسحاق بن يعمر المجابري . من سكان فاس الذي تولى قضاء سبته ثم بلنسية "فقد في كائنة العقاب يوم الإثنين الرابع عشر لصفر سنة تسع وست مئة ...".

3- أبو الصبر أيوب بن عبدالله الفهري . من أهل سبته ، الذي "استوسع في الرواية . وكان معروفا بالزهد ، واستشهد في كائنة العقاب" (2).

4- أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب ، من أهل فاس "كان زاهداً ، عابداً ، معلما بالقرآن له حظ من قرض الشعر ، ودخل الأندلس غازيا وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ثمان وستة مئة ، فاقام هنالك أياماً يلقى الزاهدين . . ثم خرج إلى غزوة العقاب. ذكره ابن الطيلسان وقال: أراه استشهد بها فإنه انقطع عني خيره.. " (3).

5- أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الحضرمي ، من أهل اليُسَّانة عمل قرطبة " ولي قضاء موضعه مدة طويلة ، مضافا ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه. وله تأليف في رجال الموطأ. . . ، واستشهد في وقعة العقاب منتصف سنة 609" (4).

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم تصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفي المخاطر ويتسابقون في بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين .

(1) التكملة (101/1-102) رقم 262 نقلاً عن التاريخ الاندلسي ص 494.

(2) المصدر السابق (1/202) رقم 536 نقلاً عن التاريخ الاندلسي ص 495.

(3) المصدر السابق (1/235) رقم 623 نقلاً عن التاريخ الاندلسي ص 495.

(4) التكملة (2/585-586) رقم 1559 نقلاً عن التاريخ الاندلسي ص 495.

### ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب:

1- الإعجاب بالكثرة ، وكأن غزوة حنين تتكرر بعد حوالي ستة قرون في هضاب الأندلس . إن الثقة بآلاف الجند ، وبمقدرة القادة ، أفقد القائد وأفقد الجند اعتمادهم على الله سبحانه ، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل انسحابه ، ألا وهي: "صدق الرحمن وكذب الشيطان" (1).

2- لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر

لدين الله ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار على سلبطره وأخذ براي الوزير أبي سعيد بن جامع الذي أصر على ملازمة الحصار واستمر لمدة ثمانية اشهر ، وتعرض الجيش الموحي لأقصى عوامل الطبيعة ونقص التموين والمؤن بسبب الأخذ بالرأي الفردي وترك الرأي الجماعي .

3- ضعف شخصية الناصر لدين الله الذي أصبح ألعبوبة وخاتما في يد الوزير أبي سعيد بن جامع .

4- سبب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادم أمير قلعة رباح استياء في الجيش كله ولاسيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادم قد بذل كل المستطاع، وان قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم ، كل هذا مهد للفرار وانسحب الاندلسيون من المعركة وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة وكان هذا الانفصال الغير متوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء .

5- إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك وأخذ بكافة الأسباب التي تعين على تحقيق النصر الحاسم ، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية \_\_\_\_\_  
(1) انظر: العقاب ص50.

وطلب امدادات من البابا ومن ملوك أوروبا وجعل الحرب مقدسة من اجل العقيدة .

6- الثورات التي حدثت في المغرب مع بني غانية جعلت الموحيين ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم (1).

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة وقام النصارى بقتل كل الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم وياشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن: فرال ، تولوزا ، بياسة ، بلقيس ، بانبيوس ، وأبدة التي أعمالوا السيف في رقاب أهلها وحطموا كثيرا من مبانيها ، بنينا كان الرهبان والقساوسة يرتلون الصلوات فرحا بنكاية المسلمين ، ولولا الامراض التي فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين ، فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرى من النساء والصبية ، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة (2).

لقد كانت المجزرة اللا إنسانية في مدينة بياسة . يقول أشباخ في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحيين (3): "ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف ، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش ، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين ، فشاءة قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعا بالسيف ، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى ، بل ذهب النصارى الذين اعتمهم نشوى الظفر في قسوتهم ويطشهم إلى أسفل درك ، حينما هاجموا مدينة أبدة التي اعتمم بأسوارها \_\_\_\_\_

(1) انظر: العقاب ص51.

(2) انظر: العقاب ص52.

(3) انظر: تاريخ الاندلس ليوسف أشباخ (123/2).

القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزل ، وكان المسلمون يأملون نظرا لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء .

ونظّم النصارى في الواقع على المدينة هجوما عاما خسروا فيه كثيرا من القتلى ولم يسفر عن أي نجاح ، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها ، وان يحتلوها ، ولكن القلعة وباقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الأسبان ، وعندئذ رأى الملوك ، أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون ، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرغونيين قد خشوا العاقبة، وأرسلوا إلى ملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب "مليون دينار" ، على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقا لشريعتهم وشعائر دينهم ، وهكذا قبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظرا لما أنسوه من صعاب في افتتاحها .

ولكن الأبحار الضامئين إلى دماء المسلمين ، اعلنوا بطلان هذا الاتفاق ، وطلبوا أن تسلّم المدينة دون قيد أو شرط ، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع ، منتحلين لذلك عذرا هو أن المسلمين بعد أن فتحوا ابواب المدينة للنصارى ، لم يؤدوا الضريبة المضروبة عليهم في الحال ، وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكودين ، فقتل من في أبدة زهاء ستين ألفا ، وسُبي مثل هذا العدد ، وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها ، وعندئذ أبدى الأبحار رضاهم ، ورتّلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته «(1)» .

(1) انظر: العقاب ص53.

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ووفاءه للعهد واحترامه للأديان .  
قال الشاعر :

ملكنا فكان العدل منا سجية  
فلما ملكتم سال بالدم أبطح  
وحللتم قتل الأسارى وطالما  
غدونا على الأسرى نمن ونصفح  
فحسبكم هذا التفاوت بيننا  
وكل إناء بالذي فيه ينضح(1)

لم تكن موقعة العقاب سببا في تحطيم قوى السلطان الناصر بالأندلس فقط ولكنها أدت فوق ذلك إلى

تدمير سلطان الموحدين في المغرب ايضا . فقامت دويلات في المغرب وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثاني بعد الموحدين وآل الأمر إلى سقوطها بيد النصارى .

جاء في نوح الطيب: (كانت العقاب سبب ضعف المغرب والأندلس ، أما المغرب فبإخلاء كثير من قراه وأقطاره ، وأما الأندلس فبطلب العدو لها ..)(2). وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعا إلى أشبيلية ، وهناك صب حمام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين وسحقهم واذل القادة والزعماء وفصل وعين ثم رجع إلى الأندلس حزينا كئيبا ولكي ينسى حزنه وكدره قضى بقية أيامه في الملذات والشهوات \_\_\_\_\_

(1) انظر: صلاح الدين بطل حطين لعبدالله علوان ص84.

(2) نوح الطيب (420/1).

ولم يبق بشيء من شؤون الحكم سوى أن عين لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله وكان يومئذ طفلا في العاشرة من عمره ولما انتهى من هذا التعيين ، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش ، واطلق العنان لأهوائه وملاذه وقضى أمدا لا يجاوز العام في هذا اللهو الصاخب ثم دس له خدمه السم وتوفي مسموما بأمر من وزرائه ، لأنه كان قد عزم على قتلهم ، فعاجلوه بالقتل . فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في 11 شعبان 610 هـ / 25 كانون الأول "ديسمبر" سنة 1214 م ، بعد أن حكم خمسة عشر عاما وبضعة أشهر(1).

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار في دولة الموحدين والصراع الداخلي والاهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين .

والذي يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزي والعار والاستهانة بديار المسلمين من اجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة والمقدرات وهكذا توضع امور الدول في يد اشخاص يخونون الله وروسوله وقرآنه وشعوبهم بعد ان ماتت ضمائرهم ، فنجد هنا ادريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمدا على محالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالاندلس لمملكة قشتالة وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور جامع القرويين وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع داخلي عنيف كلف الموحدون دماء وأموالا ، وتفككا داخليا وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار

(1) انظر: العقاب ص57.

والضعف عام 668هـ/1269م رغم ان الدولة كانت قد انتهت فعلا عام 1212م وليس عام 1269م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاما بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على ايدي بني مرين ومن قبلهم بني عبدالواد في تلمسان وبني حفص في تونس<sup>(1)</sup>.

#### رابعاً: أسباب سقوط دولة الموحدين :

1- ظلمهم الفظيع للمرابطين وسفكهم للدماء واعتدائهم على الاموال وسبيهم للنساء بدون وجه حق ، لقد تعامل الموحدون مع المرابطين على نحو ظالم ، مستخدمين كل وسائل العنف مع خصومهم ولذلك كفروهم واستحلوا دمائهم واموالهم وسبوا نساءهم ، فافنوا أعداداً كبيرة من المغاربة ، ولأسباب تبدو أحيانا واهية ، أو أن ليس لها ما يبررها، فمضت فيهم سنة الله في الظلم والظالمين ، والغالب أن الظالم حسب سنة الله في الظلم والظالمين - يعاقب في الدنيا على ظلمه للغير ومن العادة أن المظلوم يدعو عادة على ظالمه لينتقم الله منه في الدنيا ليشفي ما في صدره من غيظ على ظالمه وحيث ان دعوة المظلوم مستجابة لقوله صلى الله عليه وسلم : لمعاذ بن جبل حين بعثه الله إلى اليمن .. " . . . واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب" .

ومن سنته تعالى في الظلم والظالمين أنهم لا يفلقون ولا يفوزون في الدنيا وإن مآلهم إلى الخسران والهلاك كما أن الأمة والظالمة لها أجل محدود<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/248 الى 253).

(2) انظر: المغرب في تاريخ الاندلس والمغرب ، د. عبادة كحيلة ص119.

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدر له وهو مريض ، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته ، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها وضمحلتهما خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها ، أي الذي قدره الله لهما بموجب سنته العامة التي وضعها لأجل الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل ، او من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله<sup>(1)</sup> . قال تعالى: { ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون } (سورة الأعراف، الآية 34). قال الألوسي في تفسيره لهذه الآية: (ولكل امة أجل) ، أي ولو أمة من الأمم الهالكة أجل أي وقت معين

مضروب لاستئصالهم<sup>(2)</sup> . ولكن هلاك الامم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا ، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين ، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط ، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين ، وهو محدد عند الله تعالى<sup>(3)</sup> .

إن سنة الله مطردة في هلاك الامم الظالمة ، قال تعالى: [ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيغ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ] (سورة هود ، الآيات 100 - 102) .

(1) انظر: السنن الالهية ، د.عبدالكريم زيدان ص121.

(2) انظر: تفسير الألوسي (112/8).

(3) انظر: السنن الالهية في الأمم ص121.

إن الآية الكريمة تبين إن عذاب الله ليس مقتصر على من تقدم من الأمم الظالمة ، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين ، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: [ كذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة ] . فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد . فالآية تحذر من وخامة الظلم .

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس انفسهم لا يتظالمون فيما بينهم ، فهذه الدولة مع كفرها تبقى ، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط ، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم<sup>(1)</sup> . قال تعالى: [ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ] "سورة هود ، الآية 117"

قال الإمام الرازي في تفسيره : (إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك . والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين ، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح ، وعدم الفساد)<sup>(2)</sup> .

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى: [ بظلم ] أي بشرك وكفر [ وأهلها مصلحون ] أي فيم بينهم في تعاطي الحقوق . ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط<sup>(3)</sup> .

---

(1) انظر: السنن الالهية في الأمم والافراد ص122.

(2) تفسير الرازي (76/18).

(3) تفسير القرطبي (114/9).

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: (وأمر الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض انواع الاثم اكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والاسلام. وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا اقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من خلاق

- أي في الآخرة - وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة" (1).

إن دولة الموحدين قامت على اساس دموي في إرساء دعائمها ولذلك اسرف ابن تومرت في سفك الدماء وهتك الاعراض ومصادرة الاموال وسار خليفته عبدالمؤمن على منواله وكذلك كثير من زعماء الموحدين، فجرت فيهم سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم حتى أفضى أمر الدولة إلى الزوال.

2- من أسباب سقوط دولة الموحدين، ثورة بن غانية وهم من بقايا المرابطين: حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الاصول العقدية والأسس الفكرية التي قامت عليها دولة الموحدين والتزمت بأصول منهج أهل السنة والجماعة وأعلنت انتمائها وولائها للخلافة العباسية السنية، ورفعت شعاراتها وحاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوخيم واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها.

---

(1) انظر: من رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الاسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح المنجد ص40.

3- ثورات الاعراب المتتالية حيث أن قبائل بني سليم وبني هلال التي سكنت افريقية والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنتظر إلا لمصالحها، فأحيانا تتحالف مع بني غانية ومع قراقوش التقوى ضد الموحدين وأحيانا تخضع لدولة الموحدين ثم دخلت في الصراع الداخلي بين أعداء الموحدين، فكانت من الاسباب التي فجرت الثورات الداخلية والتي ساهمت في الإفساد ودمار دولة الموحدين، لقد قدموا الأعراب البدو إلى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحدين عام 584 هـ ومنذ وفاة المستنصر سنة 620 هـ اصبحوا يتدخلون في شؤون الدولة ويرهقونها بطلباتهم ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين. ومن

هؤلاء الأعراب بنو معقل ، وبنو جابر " ولهؤلاء دور هام في تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسي ، بمصاهرتهم للبربر ، وبالاحتكاك بهم<sup>(1)</sup>.

4- ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين ، ومن أشهر هذه الثورات ، ثورة محمد ابن مردنيش الذي لم يتم القضاء عليه إلا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى ولم يبالي ابن مردنيش ان يتحالف مع النصارى من أجل القضاء على نفوذ الموحدين في الأندلس ولقد كلفت هذه الثورة دولة الموحدين الاموال الكثيرة وقتل في تلك المعارك خيرة رجالهم ، وثورة ابن هود ، وعامل بلنسية الذي التجأ إلى ملك ليون .  
وتقاسم الأندلسيون عن نصرته الموحدين لأول فرصة واتتهم ، عندما اهانهم الوزير ابن جامع خلال معركة العقاب<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر : العقاب ص68.

(2) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي عزالدين عمر احمد موسى ص.83

5- النزاع على الخلافة بين الموحدين ولم يستطيعوا ان يضعوا نظاما ثابتا لتولي الخلافة عندهم :  
كان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها ، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة ، فاضطر كل منهم ان يستجد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب المهاجرين واصحاب المصالح من حكام الولايات المستبدين ، وبل وبأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوى في النزاع فرصة سانحة لسيطرت نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد ، فسقطت هيبة الخلافة ، مما ساعد على اضمحلالها وزوالها . ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختيار الخليفة وما أعقبها من نزاع على السلطة على كيان الدولة في ثلاثة مظاهر : تعدد الخلفاء في وقت واحد ، والاستعانة بالنصارى ، وتولية حكام ضعاف<sup>(1)</sup>.  
أ - ولما تولى الخلافة عبدالواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن اخيه العادل بن المنصور بمرسية ، وحسم الأمر بخلع عبدالواحد ثم قتله والاجماع على خلافة العادل ، وبعد قليل خرج على العادل واليه على قرطبة في 1226/623 السيد ابو محمد عبدالله العباسي وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون بن المنصور ، فلما خشي الاشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيى بن الناصر ، وظل كل منهما مدعيا للأمر ، عاملا على إحراز النصر على منافسه طوال خلافة المأمون وما يقرب من الأربعة اعوام من خلافة الرشيد (شوال 624 - 1227/633-1226م) وفي عام 629هـ/1231م ظهر الى جانبهم خليفة ثالث لما ادعى بالامر السيد ابو موسى بن المنصور

---

(1) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ص63.

بسببته وتسمى بالمؤيد ، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود في الاندلس . ولا ريب في ان هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها ، فأهملت الادارة ، وانتشرت الفتن ، وقلّت المجابي ، واستبدت الولاة بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضارية بين بني عبدالمؤمن(1).

ب- دخل زعماء الموحدين من البيت الحاكم في محالفات مع النصارى من أجل تحقيق كل فريق النصر على خصومه ، فأبو محمد عبدالله البياسي يستعين بالنصارى ، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالاندلس استنصر ملك قشتالة الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها وأن يبني كنيسة للروم بمراكش مقابل عدد من الفرسان الروم ، فهكذا دفع الصراع امراء الموحدين الى التنازل عن اراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة .

ج- إن النزاع بين أمراء البيت الحاكم في دولة الموحدين جعل المتنفذين من اشياخ الموحدين أو الاداريين او القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام منذ وفاة المستنصر ، ولما كانت الخلافة قد استقرت في بني عبدالمؤمن فقد عمدوا لتولية حكام ضعفاء صغار السن او مقعدي الشيوخة أوباحثين عن ملذاتهم(2).

إن ضعف الخلفاء يسر طريق مجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة والتحكم في سياستها وتوجيهها . وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى أدارية ام قبلية أم عسكرية(3).

---

(1) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ص84.

(2) انظر : المصدر السابق ص85.

(3) انظر : المصدر السابق ص86.

ومنذ وفاة الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالامور ، فرفعوا للخلافة من شاءوا وخلعوا من كرهوا ، وقتلوا من ارادوا ، وصار امرهم كالأتراك مع بني العباس(1).

إن أشياخ الموحدين الذين احتلوا المراكز الأساسية في الدولة اصبحت لهم مكاسب لن يتخلوا عنها ، فكانا دائما يبسطون نفوذهم لكيلا يفلت زمام الحكم من ايديهم ولهذا استبدوا . ولما كانت مصالحهم متضاربة فقد أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ(2).

إن هذا الخلاف الشديد والنزاع الذي استحكم بين ابناء عبدالمؤمن ، وظهور الخلفاء الضعفاء وتحكم اشياخ الموحدين على العاصمة ، ونشوب الفتن فيها ، جعل ولاة الأقاليم يستبدون بولاياتهم ، وانفصل بعضهم

نهائيا عن مراكش . لقد رافق الضعف السياسي المتمثل في الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاية ضعف إداري ظهر في تحكم الولاية والوزراء .

لقد كانت الإدارة الموحدية في عصر ازدهار الدولة تمتاز بدقة الجهاز الإداري، وحسن ضبطه ، ومتابعة الخلفاء وإشرافهم بانفسهم وكان عمل الوزراء والولاية هو التنفيذ والتبليغ ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد والتهاون نكب بلا رحمة<sup>(3)</sup>.

6- الانهيار العسكري الذي اصاب دولة الموحدين ، وتغير أهداف الجيش الموحيدي :

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ص87.

(2) انظر: المصدر السابق ص89.

(3) انظر: المصدر السابق ص91،92.

لا شك أن النزاع السياسي وضعف الهيكل الإداري للدولة تركا أثرا بالغيا في التنظيم العسكري للدولة ولقد كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوى رفيع من التعبئة المعنوية والاستعداد المادي ولذلك حققوا انتصارات هائلة على خصومهم وحفظوا دولتهم من الطامعين في اسقاطها إلا أن جيش الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط وعلى وضع الخطط الحربية وضعا صحيحا وتنفيذا أكيدا. وظهر ذلك العجز القيادي والقدرة القتالية في معركة العقاب التي انهزم فيها الموحدون وتأثرت معنوياتهم القتالية ولم يستطيعوا بعد تلك الكسرة العنيفة في موقعة العقاب ان يغدوا جيشا قادرا على تحقيق انتصارات بل تابع جيش الموحدين مسيرته الهابطة ، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارى في الأندلس وأمام بني مرين في المغرب الأقصى .

لقد ساهم في ضعف وانحلال الجيش ، ضعف مبادئ الموحدين في نفوس الجند الذين أصبح همهم الأوحاد الغنائم وجمعها لا القتال في سبيل المعنقد والمبدأ والفكرة .

ولقد تبدل هدف القادة في استعمال الجيش ، فبدلا من ردع الثوار المحاربيين وجهاد الاعداء الكافرين الى اتخاذ الجيش أداة سياسية للإستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ولذلك فتحت أبواب الإنضمام للجيش من المرتزقة من عرب وعجم .

لقد كان ادخال العربان في الجيش الموحيدي كافة على اهدافه ونظامه إذ لا هم لهم سوى السلب والنهب واكتساب المال ولا يعرفون نظاما ولا يتقيدون بأوامر وبعد النزاع بين السادة والتسلط من مراكز القوة وجد هؤلاء العربان سوقا رائجة وتجارة رابحة ، ففي كل فتنة تنشب وكل حرب تندلع كان لهم دور بارز يشايعون

هذا أو ذاك متوخين مصلحتهم المادية ، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل جعل من المال فينهزمون ساعة  
الصدام الحاسمة(1).

7- الترف والانغماس في الشهوات الذي وقع فيه خلفاء الموحدين المتأخرون وانهماكهم في ملذاتهم غير  
مهتمين بشؤون الدولة والحكم ، فقد فقدت الدولة سهر الحكام الأول وتدقيقهم في أمور الحكم ، واشرافهم على  
كل امر جل أم صغر ، فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذات حتى وافاه حينه ، ويوسف  
المستتصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته، وكان مولعا بانتجاع البقر والخيل في رياضة وتوفى من  
طعنة بقره شرود، والمرضى كان ميالا للدعة والمسالمة ، ومولعا بالسماح ليلا ونهارا(2) وكذلك المقربون  
منهم .

وهكذا أصبح هؤلاء المترفون لا يهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال لذلك ، ولا يهتمهم ما يكون في  
الناس من منكرات فهي لا تقلقهم ولا ينهاون عنها لان انشغالهم واهتمامهم بما يجلب لهم الملذات فقط ولو  
كان ذلك على حساب الآخرة ونعيمها ، قال تعالى: [ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن  
الفساد في الأرض إلا قليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ] (سورة هود ،  
الآية: 116). وقوله تعالى: [واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه] أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات  
، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما اهتموا  
بالتنعم والترف والانغماس في \_\_\_\_\_

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص96،95.

(2) انظر: المصدر السابق ص86.

الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والعس لها وطلب أسباب العيش الهنيء(1).

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.  
قال تعالى: [ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها  
يركضون. لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون].

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: [ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها  
ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ] سورة الاسراء، الآية 16.

وجاء في تفسيرها : وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أي متتبعيها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها  
فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة الى الجميع لأنهم

أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم أكد(2).

### 8- تقلص اراضي الدولة في افريقية والمغرب والأندلس:

فنتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها ، اغتتمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت ، فخرجت الاندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها \_\_\_\_\_

(1) انظر: السنن الالهية في الامم والجماعات والأفراد ص186.

(2) انظر: تفسير الآلوسي (42/15).

افريقية، وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين.

ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الاراضي الاندلسية: أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب ، وظهر في شرق الاندلس ابو عبدالله محمد بن هود في رجب 625هـ/1228م في مرسية وحكم تحت شعار العباسيين وسيطر بن هود على معظم الاندلس وخلع أهل الاندلس طاعة الموحدين (وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم وأستأصلوهم إلا من ستره الله منهم واخفاه في ذلك الوقت عنهم)(1).

ودخلت الاندلس في دور طوائف ثالث فقام 626هـ/1229م زيان بن مردنيش وفي سنة 630هـ/1233م ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة ونازع ابن هود على زعامة الاندلس فما جاء عام 636هـ/1239م إلا وقد سيطر على غرب الاندلس(2).

زالت هيئة الموحدين من نفوس الأندلسيين وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين واضطرت الأندلس لمجابهة النصاري منفردة، فابتلعوها ماعدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الاندلس واحدة تلو الاخرى، فسقطت قرطبة عام 633هـ/1236م وبلنسية في عام 636هـ/1239م، ومرسية 644هـ/1246م واشبيلية 646هـ/1248م وكان هذا السقوط المريع في مدة قصيرة جداً.

وانفصلت افريقية سنة 627هـ/1230م، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين \_\_\_\_\_

(1) انظر: البيان المغرب (269/3) نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ص108.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ص108.

بها بعدها عن العاصمة، ثم ان الصراع والثورات والفتن جعلت اهل المدن يتشوقون للاستقرار والامن فوجدوه

مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب، وواتتهم الفرصة لما تتكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبدالواحد الحفصي الى تونس وسيطر عليها، واستقل بها ، واتبع نظم الموحدين وكتب للجهات بطلب البيعات(1).

وفي الوقت نفسه انفصلت فيه الأندلس ، وأفريقية بدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل(2)، فسيطرت قبائل بني مرين على بوادي المغرب ، وانفصل بني عبدالواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس فهذه الانقسامات ساهمت في اضعاف الدولة الموحدية.

9- فتور مبادئ ابن تومرت في نفوس الموحدين بل هناك من زعماء الموحدين من أعلن البراءة منها: كانت فكرة الموحدين قائمة على العقائد ومركزة على المهدية الهادفة للتجديد وهي سر حيوية التنظيم الدقيق في اجهزة حزب الموحدين والذي توصلوا من خلاله الى الدولة، فأنتج هذا الايمان طاعة عمياء يسرت تنظيم الحزب فالجيش ثم الادارة ، يصف لنا المراكشي نوعية تلك الطاعة فيقول: "ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء"(3). ولم \_\_\_\_\_

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ص109.

(2) انظر: المصدر السابق ص111.

(3) المعجب ص191.

يكن لهم من هدف في بداية أمرهم سوى تحقيق فكرتهم في واقع الحياة ونشرها في العالمين . ولما نجح عبدالمؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة رافق ذلك تبدل في مفهومه الاساسي، فنقل الدولة من دولة الفكرة إلى دولة الوراثة ، فكان انحراف في المبادئ التي قامت عليها فكرة الموحدين ، لأن دولة الفكرة والمبادئ تقدم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة والمنهج والمبادئ التي قامت عليها ويلتزمها وتبعد من يحيد عنها . ولكن دولة الوراثة لا تنتظر إلا في تقديم من يثبت اقدمها ، ولهذا استقدم عبدالمؤمن قبيلة كومية متقوية بهم وولاهم المناصب في الدولة ، واصبحوا متقدمين على كثير من الموحدين ، ولم تكن كومية مؤمنة بأفكار الدولة الاساسية بل خاضعة لسيادة الدولة ، ولهذا فإن كثيرا ممن قدم منهم كان يسعى لمصلحة نفسه غير مهتم بأفكار لم يؤمن بها ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة في النفوس وذبل الايمان في القلوب فدب النزاع على المصالح الخاصة كما يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش واستبداد مراكز القوة المختلفة في الدولة .

ويبدو أن الخلفاء أنفسهم فقدوا الايمان بالفكرة فالمنصور يصرح بذلك لخاصته والمأمون يمحو آثارها

ويزيل رسومها ويبدو أن هذا التحول قد بدأ في أيام عبدالمؤمن ، ومع مرور الأيام حدث انفصام بين الفكرة والدولة ، فتجسد ذلك عمليا في خلافة المستنصر ، وقام على مرتكز نظري في عهد المأمون ولاريب أن الفكر ان لم يداوم اصحابه عليه يتحجر ويغدو آفة عليهم<sup>(1)</sup>.

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ص117.

كما لا يخفى انحراف الفكر التومرتي الذي فرض على الناس بالسيف والقوة مع كونه يتنافى مع الإسلام الصافي والعقيدة الصحيحة والتصوير السليم ، فجعلت الناس تنسل من المنظومة الموحدية والعقدية وتحاول أن تبحث لها عن المنهج الصحيح الذي ينسجم مع الفطرة والفهم السليم للإسلام ، هذه بعض الاسباب التي ساهمت في إسقاط دولة الموحدين .

### خامساً: خلفاء الموحدين :

عبدالمؤمن بن علي	524-558هـ / 1120-1163م
أبو يعقوب يوسف	558-580هـ / 1136-1184م
أبو يوسف يعقوب المنصور	580-595هـ / 1184-1199م
أبو محمد عبدالله الناصر	595-610هـ / 1199-1213م
أبو يعقوب يوسف المستنصر	610-620هـ / 1313-1224م
عبدالواحد بن يوسف بن عبدالمؤمن	620-621هـ / - 1224م
أبو عبدالله بن يعقوب المنصور (العادل)	621-624هـ / 1224-1227م
يحيى بن الناصر	624-627هـ / 1227-1230م
المأمون بن المنصور	627-630هـ / 1231-1232م
الرشيد بن المأمون بن المنصور	630-640هـ / 1232-1242م
السعيد علي أبو الحسن	640-646هـ / 1242-1248م
أبو حفص عمر المرتضى	646-665هـ / 1248-1266م

## الفصل الثالث

## الاندلس والشمال الافريقي

## بعد سقوط دولة الموحدين

بعد سقوط دولة الموحدين في عام 668هـ/1269م مرت بلاد الاندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين ونصف ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارى الاسبان في عام 897هـ ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين وهذه المرحلة من تاريخ الاندلس الاسلامي غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله تعالى.

أما الشمال الافريقي بعد سقوط الموحدين، فأنقسم الى دول، لاتجاوز الواحدة منها في أحيان إطار المدينة، ولاتجاوز في أحيان اخرى إطار القبيلة واتسمت تلك الفترة التاريخية بالتداخل والتعقيد والغموض، واشتدت النزعات الداخلية وتتابع الهجمات الخارجية، وظهرت فتن تجعل الحليم حيران من كثرتها ونشابهها، ومرت المنطقة بعملية مخاض طويلة ، لأن دولة الموحدين نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة ، وخرج من ذلك المخاض الطويل ، دول من أهمها ؛ دولة بني حفص في افريقية ، دولة بني زيان في المغرب الاوسط، دولة بني مرين (ثم بني وطاس في المغرب الاقصى).

وسنحاول بإذن الله تعالى في الصفحات القادمة أن نتحدث عن تلك الدويلات التي قامت في الاندلس والشمال الافريقي مستخلصين العبر والعظات والدروس المستفادة من دراسات تلك الدويلات التي أصبحت كأن لم تغن بالأمس.

## المبحث الاول

### مملكة غرناطة

سقطت دولة الموحيدين على يد المرينيين في المغرب الاقصى، وملك محمد بن يوسف بن هود قواعد شرقي الاندلس ، وظهر محمد بن يوسف الانصاري في الجنوب ، وغلب بعض الأمراء على أشبيلية ، ونشب صراع على السلطة والملك بين أمراء الاندلس ودخلوا في قتال عنيف لنزع الحصون والقلاع من بعضهم البعض .

وكانت مملكة قشتالة النصرانية الاسبانية تتابع مما يدور في أراضي المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها التي استطاعت أن تجند رجالاً يعملون لحسابها، فرأت أن الفرصة حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين في الاندلس ، فبدأت هجومها بالفعل، وكان احتلال قرطبة في 23 شوال 633هـ/29 حزيران (يونية) 1236م، صيحة النذير المدوية ، لقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثم والابتعاد عن منهج الله العظيم، وبالتالي

اصابهم الضعف ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف، فقادهم ذلك الى فقد الاوطان والأرض ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والاسلام وبدأت مدن الاسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام 636هـ/1238م ثم شاطبة ودانية وفي عام 646هـ سقطت اشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين مجيد ودام الحصار ثمانية عشر شهراً، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن أشبيلية، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم واستسلمت المدينة لفرديناند الثالث، على ان يُخير المسلمون بين البقاء في أشبيلية ، أو يهاجروا وفي الحال حُول مسجدها الجامع الى كنيسة ، وأزيلت منها معالم الاسلام وتوزع أهلوها في الحواضر الاسلامية الباقية.

لقد كان سقوط أشبيلية ايذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الاسلامية فيما بينها وبين مصب الوادي الكبير فاستولى النصارى تباعاً على : شريش ، شذونة، قادس، شلوقه، غليانة، روضة، ثغر شنتميرية، وغيرها.... وتحالف بن الأحمر مع النصارى وعاونهم في الاستيلاء على قادس وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الاسلامية في غربي الاندلس، وانكشفت رقعة الدولة الاسلامية بسرعة مروعة(1).

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرُّندي تلك الاوضاع التي وصل إليها حال الاندلس ووضح في قصيدته اسباب تلك المأساة التي وقعت فيها شعوب الاندلس من تركهم لعوامل القوة والنصر، وحبهم للدعة والخنوع والتترف، لقد عبرت تلك القصيدة عن مشاعر وأحاسيس الشاعر بوضوح وأعطت تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المخلصة والحزن العميق على ما حل بالمسلمين روحاً لتلك القطعة الشعرية المعبرة عن تلك الأحداث الجسام ، عندما سقطت القواعد الاندلسية الكبرى، كقرطبة، وبلنسية وأشبيلية ومرسيه بيد النصارى. لقد صور الشاعر المسلم ابو البقاء الرندي مأساة الاندلس في قصيدة تقطر ألماً وحزناً، فله دره فلكم اغنت عن عشرات الكتب والمجلدات.

قال الشاعر :

لكل شيء إذا ما تم نقصان

فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ

---

(1) انظر : سقوط غرناطة ص30.

من سرّه زمن ساعته ازمان

وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ  
ولا يدوم على حال لها شأن  
أين الملوك ذوو التيجان من يمن  
وأين منهم أكليل وتيجان  
أتى على الكل أمرٌ لا مرد له  
حتى قضوا فكأن القوم ماكانوا  
فجائع الدهر أنواع منوعة  
وللزمان مسرات وأحزان  
وللحوادث سلوانٌ يسهلها  
ومالما حل بالاسلام سلوان  
وهي الجزيرة أمرٌ لا عزاء له  
هوى له أحدٌ وانهد ثهلان (1)  
أصابها العين في الاسلام فامتعت  
حتى خلت منه أقطار وبلدانُ  
فاسأل بطنسية ما شأن مُرسية  
وأين شاطبة أم أين جيانُ  
وأين قرطبة دار العلوم فكم  
من عالم قد سما فيها له شأنُ  
واين حمصٌ وما تحويه من نُزّه

---

(1) أحد وثهلان : جبلان.

ونهرها العذبُ فياض وملائُ  
قواعدٌ كُنَّ اركان البلاد فما  
عسى البقاء إذا لم تبق أركان  
تبكي الحنفية البيضاء من أسف  
كما بكى لفرق الإلفِ هيمانُ

على ديار من الاسلام خالية  
قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ  
حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما  
فيهن إلا نواقيس وصلبانُ  
حتى المحارِبُ تبكي وهي جامدةٌ  
حتى المنايرُ تترثي وهي عيدانُ  
يا غفلاً وله في الدهر موعظة  
إن كنت في سنة فالدهر يقظانُ  
وماشياً مرحاً يُلهيه موطنه  
أبعد حمص تفرُّ المرءَ أوطان  
تلك المصيبة أنست ما تقدمها  
ومالها مع طول الدهر نسيان  
يا أيها البيضاء رايته  
أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا  
ياراكبين عتاق الخيل ضامرةً  
كأنها في مجالِ السَّبِقِ عُقبانُ  
وحاملين سيوف النهْدِ مرهفةً  
كأنها في ظلامِ النقع نيران  
وراتعين وراء البحر في دَعَةِ  
لهم بأوطانهم عز ووسطان  
أعندكم نبأ من أهل أندلس  
فقد سرى بحديث القوم رُكبَانُ  
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم  
قتلى واسرى فما يهتَرُّ إنسانُ  
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم  
وأنتم يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أبيات لها همم  
أما على الخير انصار وأعوان  
يامن لئلا قوم بعد عزهم  
أحال حالهم كفر وطغيان  
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم  
واليوم هم في بلاد الكفر عبدان  
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم  
عليهم من ثياب الذل ألوان  
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم  
لهالك الأمر واستهوتك احزان  
يارب أم وطفل حيل بينهم  
كما تفرقت ارواح وأبدان  
وظفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت  
كأنما هي ياقوت ومرجان  
يقودها العُج للمكروه مُكرهة  
والعين باكية والقلب حيران  
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ

إن كان في القلب إسلام وإيمان (1)

"وكان ابن الاحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً، فقد كان يقف الى جانب أعداء وأمتة ودينه ، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والأدبي ، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقيون" (2).

لقد غدر النصارى بحليفهم محمد بن يوسف الاحمر، فغزوا أراضيهم وشنوا عليه الحرب، فتغيرت حساباته وطمع الى جمع كلمة الاندلس تحت لوائه ودمج ماتبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه، فصانع النصارى، وتجنب الاشتباك معهم، فشهد التهامهم لاشلاء الوطن الممزق وقلبه يفطر حزناً

وأسى (3).

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس حاول ابن الأحمر أن يواجه النصارى وخرج عن طاعتهم وأعلن النصارى الحرب عليه في عام 660هـ/1261م، فردّهم

(1) نفع الطيب (4/488،487،486).

(2) انظر: نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين ص33.

(3) انظر: المصدر السابق ص34.

بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدو المغربية، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين. وفي عام 662هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن ادريس فتح مدينة شريش وتخليصها من يد النصارى. شددّ النصارى هجماتهم بدءاً من عام 663هـ وبدأت الهزائم تتلاحق على محمد بن يوسف ابن الأحمر على يد (دون نوينو دي لارا) صهر ملك قشتالة، فبايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعوناً، ولكنها لم تجد نفعاً، فسوء المصير لاح في الأفق، فاضطر ابن الأحمر أن يهادن ملك قشتالة ثانية في أواخر سنة 665هـ/1267م متنازلاً له عن أكثر من مائة موضع معظمها غربي الأندلس، منها شريش والمدينة والقلعة.

ودخلت غرناطة في حرب داخلية بين ابن الأحمر وبعض أصهاره وهو أبو محمد بن أشقيلولة وكان في مالقة وتحالف ابن الأحمر مع الاسبان عام 665هـ/1267م وحاصروا أبا محمد بن أشقيلولة في مالقة ولكنهم لم ينالوا منه مأرب(1).

وفي عام 668هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة الخضراء خراباً، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكنه مات قبل أن يرى ماحدث، وذلك في 29 جمادى الثانية 671هـ (كانون الأول "ديسمبر" 1272م) وقد قارب الثمانين من عمره، بعد أن وطّد الملك لبني نصر بقي زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى(2).

(1) انظر: مصرع غرناطة ص33.

(2) ابن خلدون (190/7) نقلاً عن سقوط غرناطة ص33.

**أولاً: ترجمة ابن الأحمر :**

هو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خمسين بن نصر بن قيس الخزرجي.

يرجع في نسبه إلى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان نقيباً شهد العقبة ويدرأ<sup>(1)</sup>.

ولد محمد بن يوسف في مدينة أَرْجُونَة من حصون قرطبة في جهة الشرق سنة 591هـ، (1195م) وهو عام الأرك. كان جندياً وافر العزم والجرأة دعا للم الشمل، فاجتمع حوله الكثير، وكانت بيعته لمملكة غرناطة يوم الجمعة 26 رمضان سنة 635هـ<sup>(2)</sup>.

#### أ- شيء من سيرته:

كان في أوقات السلم ينصرف إلى شؤون مملكته، فكانت له سلسلة من الأعمال المجيدة. نظم الشرطة والقضاء، وطبق القوانين العادلة التي وضعها الفقهاء، فشعر الضعيف بالحماية والطمأنينة بعدما فتح السلطان أبوابه لأصحاب المطالب لتلقي المظالم، فكان قريباً من شعبه. ويروي المؤرخون أنه كان يتوخى البساطة في المأكل و الملابس فيبدو في مظهره الخارجي كسائر الناس<sup>(3)</sup>. يقول فيه لسان الدين بن الخطيب: "كان هذا السلطان آية في السداجة والسلامة، عظيم التجلد رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً التقشف بعيداً من

(1) انظر: التاريخ الاندلسي ص517.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر ، د.يوسف شكري فرحان ص31.

التصنع، شديد الحزم، فظا في طلب حقه، مباشراً للحرب بنفسه يلبس الخشن ويؤثر التبدي<sup>(1)</sup>.

وكانت له أوقات يختلي فيها بنفسه ويتمشى في حديقة القصر يتأمل ويفكر ويقراً، وكانت تبدو عليه مسحة من الحزن والكآبة ربما لأنه اضطر الى محالفة اعداء المسلمين ومعاداة أبناء دينه من العرب والبربر. من أعمال ابن الأحمر، إلى جانب بنائه القصر المشهور، أنه أنشأ مأوى للعميان ودار للعجزة، وبنى مستشفى كبيراً ونشر المدارس، وأعد المنازل للغرباء دون تمييز بين الأديان والقوميات، وكان يتفقد رعيته متسترأ بعيداً عن مظاهر الابهة وعظمة الملك<sup>(2)</sup> "وكان يعقد للناس مجلساً عاماً يومين في كل اسبوع ترتفع إليه الظلمات ويشافهه طلاب الحاجات وينشده الشعراء وتدخل إليه الوفود ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضر به أعيان الحضرة وقضاة الجماعة وأولوا الرتب النبئية"<sup>(3)</sup>. كما اهتم بالحياة الاقتصادية فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية، وكانت توزع بأسعار عادلة "فتوفر ماله، وغصت بالصامت خزائنه، فأفعم الاهراء، وملاً بطن الجبل المتصل بمعقله حبوباً مختلفة"<sup>(4)</sup>. ولما ابتنى قصر الحمراء جلب له المياه

التي اوصلها كذلك الى المدينة، فكثرت البرك والنوافير وسبل المياه والحمامات العامة، ومدّ الى سهول غرناطة قنوات الري التي مايزال بعضها قائماً حتى اليوم<sup>(5)</sup>.

(1) ابن الخطيب : اللحة البدرية ص43.

(2) انظر: غرناطة في ظل بني الاحمر، د.يوسف شكري فرحات ص32.

(3) ابن الخطيب : اللحة البدرية ص44.

(4) المصدر السابق ص43.

(5) انظر: غرناطة في ظل بني الاحمر، د. يوسف شكري ص32.

لقد نجح هذا السلطان في تأسيس دولة غرناطة في الأندلس وكان لقيام هذه الدولة وثباتها عدة أسباب منها:  
1- موقعها الجغرافي، حيث كانت في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية التي قد تبدو منقطعة، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال فكانت مملكة غرناطة أبعد مكاناً بالنسبة لمدن الأندلس للوقوع في يد عدو الأندلس من حيث الموقع ومن حيث قريها من بلاد المغرب وعدم وجود خط معادٍ أمام مسلمي غرناطة، يقف حائلاً دون إعانة المغاربة في الشمال الإفريقي لإخوانهم في الدين والعقيدة.

2- ظهور دولة بني مرين في المغرب وكان من أهدافها الكبرى مواصلة الجهاد في الأندلس ولذلك لم تبخل بالوقوف بكل ماتملك من جهد لدعم مملكة غرناطة ضد النصارى في الأندلس، فقامت دولة بني مرين بالمرابطة والجهاد مع مسلمي الأندلس، فكان لهذا العمل الجليل أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس.

3- هجرت المسلمين في الأندلس من مدنهم التي سقطت الى مملكة غرناطة واصبحت لهم ملاذاً يحتتمون به ويلجئون إليه، فكثرت في غرناطة أهل المهارات والكفايات والذين برعوا في كل الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية، فأضافت إلى قوات غرناطة قوات أخرى تتطلع إلى أن تعيش عزيزة أبيه وتضع حضارة منبثقة من دينها وعقيدتها وتصورها وفكرها<sup>(1)</sup>.

4- حب الجهاد في سبيل الله تعالى فجر طاقات المجتمع الغرناطي المتطلع \_\_\_\_\_  
(1) انظر: التاريخ الاندلس ص521،522.

للممود أمام الغزاة النصارى، لقد كان للعقيدة الإسلامية والمعاني الإيمانية أثراً مباشراً في بقاء تلك الدول الصغيرة وصمودها وجهادها أمام ممالك النصارى الحاقدة.

5- براعة حكام غرناطة في الاستفادة من الصراع بين ممالك النصارى وتقوية النزاعات بينها والتدخل في هذه النزاعات ومناصرة فريق على فريق آخر<sup>(1)</sup>.

وغير ذلك من الأسباب .

## ثانياً: جهاد المرينيين في الأندلس:

تولى الملك في مملكة غرناطة بعد وفاة أبي عبدالله الغالب بالله، ابنه محمد الذي اتصف بخلال حسنة من القوة والعزم وبعد الهمة، وسعة الأفق، مع علم وأدب، وكان شاعراً فقيهاً، حتى أنه دعي باسم "محمد الفقيه"، وفي أول عهده تحركت قوات نصارى قشتالة بقيادة الفونسو العاشر للقضاء على غرناطة وضمها تحت مملكة قشتالة، فاتجهت أنظار المسلمين في غرناطة إلى نصرت المرينيين في المغرب، فأرسلوا إليهم طالبين منهم الغوث والنجدة والمدد وتوالت الكتب على سلطان المغرب (أبي يوسف يعقوب المريني من أهالي غرناطة يستتصرونه ويستدعونه إلى الجهاد، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس ملبياً دعوتهم، وقاصداً نصرتهم، في النصف من شهر رمضان المعظم سنة 673هـ فسار حتى نزل مدينة طنجة، فكتب منها إلى الفقيه أبي القاسم العز في صاحب سبته يأمره بعمارة الأجنان<sup>(2)</sup> الغزواتية حتى يركبها المسلمون

(1) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د.عبادة كحيله ص 269.

(2) أي ببناء السفن.

المجاهدون لتسير بهم نحو الأندلس، ثم دعا ابنه أبا زيان وجعله على رأس خمسة آلاف من خيرة المجاهدين وأعطاه مالاً وبنوداً وطبولاً وجهزه بكل ما يحتاج إليه، ثم عقد له لواء الجهاد، وأوصاه بتقوى الله في سره وجهره، ودعا له ووجهه، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز، فركب الأمير مع جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس، وكان جوازه في 17 ذي الحجة 673هـ، فأقام أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر، ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش، وهو يغنم ويفتح مامرّ عليه من القرى والحصون والبروج، وتهاوت مقاومة الأسبان أمام جيشه المظفر وجمع في طريقه غنائم ضخمة وقفل بها إلى الجزيرة فدخلها، وفرح أهلها بدخوله، وارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم وهكذا استطاع الأمير أبو زيان - حامل راية والده المنصورة - أن يعز الإسلام ويذل النصارى الحاقدين في الأندلس.

وكانت غزوة أبي زيان غزوة ريادة واستطلاع، وعزم أبو يوسف يعقوب سلطان المرينيين على العبور بنفسه مع جيشه، فبعث سفارة يتزعمها حفيده تاشفين بن الأمير أبي مالك إلى يغمراس بن زيان أمير تلمسان يطلب منه الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجاهد في الأندلس وهو مطمئن على بلاده آمن عليها، فوافق يغمراس على مبدأ الصلح فتم الصلح بين بني مرين وبني زيان (بني عبدالوادر) وأبعد الله عنهم التحاسد والتنافس والافتتال وجمع الله كلمة الإسلام وألف بين المسلمين.

وسر أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سروراً عظيماً، وتصدق بصدقات كثيرة، وكتب إلى زعماء بني مرين، وأمراء العرب، وشيوخ قبائل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وجاناته يستقزهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز 674هـ وأخذ في إرسال المجاهدين إلى الأندلس بالخيال العتاق، والعدة الكاملة والسلاح، فكان يبعث كل يوم قبيلة من بني مرين وطوائف من المطوعين وقبائل العرب، فلما فرغ من إرسال بني مرين والعرب أخذ في إرسال أجناده، فكان الناس يجوزون فوجاً بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات آناء الليل وأطراف النهار، من قصر المجاز إلى طريف يزدهمون في ذلك المعبر.

قال الشاعر:

فالمرسلات تسوق العاديات إلى

غزو العداة وتجوز صباح مساً

كأنما البحر أضحي للجياذ مدي

وكل عشب ماء حوّلت فرساً

كأنما اقترب البران واتصلا

فصار ذاك طريقاً للورى ييسا<sup>(1)</sup>

فلما وصلت عساكر المسلمين بلاد الأندلس انتشرت بين مدينة طريف إلى الجزيرة الخضرة، جاز أمير المسلمين أبو يوسف في آخرهم في خاصته ووزرائه وحُدّام دولته، ومعه جماعة من صلحاء المغرب، وكان جوازه يوم الخميس 21 صفر 674هـ وفي الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بني اشقيلولة بعساكرهما، واهتزت الأندلس فرحاً وسروراً واستبشاراً بقدومه.

وكان بين محمد الفقيه ابن الأحمر وبين اشقيلولة منافسة ومخاصمة \_\_\_\_\_  
(1) انظر: مصرع غرناطة ص 43.

وشحناء، فعمل أبو يوسف على إزالتها وأصلح بينهما، وتصافت القلوب وتعاهدوا على التقوى والجهاد ورجع محمد الفقيه إلى غرناطة لترتيب أمورها وسار بنو اشقيلولة إلى مالقة، ومضى المجاهد أبو يوسف بجيشه الجرار قاصداً جهاد النصرى، ولم يعقد، ولم يبال أو يكثرث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلف، ولم تستطب جفونه مناماً، ولم يلتذ شرباً ولا طعاماً، ولم يزل يجد الرحيل، ويوالي المسير، حتى وصل إلى الوادي الكبير، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب يوسف على مقدّمته وقدمه بين يديه مع الأدلاء في جيش من خمسة آلاف فارس من شجعان بني مرين والعرب، فتقدم والدّه بمرحلة، وسار أبو يوسف في أثر ابنه في

جميع جيوشه، فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض الإسبان، ووصل إلى حصن المقورة مابين قرطبة واشبيلية ودخل حصن (بلمه) عنوة بالسيف، ثم سار إلى أحواز قرطبة ثم إلى إستجه. ووصلت الأخبار إلى أبي يوسف بتحريك حشود النصارى بقيادة "دونونة" في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس، وستين ألف راجل قاصدين هزيمة جيش المسلمين وأخذ ما في أيديهم من الغنائم<sup>(1)</sup>.

#### أ- مجلس الشورى الحربي :

عقد أمير المسلمين أبو يعقوب مجلس شورى من قادة الأندلس وأشياخ قبائل مريين، وأمراء العرب، ومن في عسكره من الفقهاء والعلماء، ليشاورهم كيف يكون العمل في لقاء العدو المقبل إليهم وسمع أبو يوسف آراء الجميع، وأخذ أجودها، وأمرهم بالاستعداد للقاء العدو، والصبر والثبات عند اللقاء والتطلع  
(1) انظر: مصرع غرناطة ص45.

إلى معية الله وما عنده من الأجر والثوبة للمجاهدين في سبيله وبينما هم كذلك إذ نظر الناس إلى طلائع النصارى قد أقبلت نحوهم على بُعد الرجال أمام الخيل ودونونه في وسط الجيش وكان ملك قشتالة حزمه بيده، وزوجه ابنته، وفوضه على جيوشه وحروبه، وفوض إليه الأمر في جميع بلاده وجنوده، وكان النصارى قد سعدوا به لأنه كان لم يهزم قط، وكان وبالاً ودماراً ومصيبة على بلاد الإسلام، شديد الانتقام، ولا يمل من القتل وسفك الدماء وسبي نساء المسلمين في كل الأوقات، فأقبل في كبرياءه وغروره تحت ضلال البنود وأصوات الأبواق تخفق على رأسه في جيش قد ملأ الأرض يموج كأنه الجراد، والرجال والرماة أمام الجيش كلهم قد شرعوا<sup>(1)</sup> الحراب معتمدين على الكثرة ووفرة العدد.

#### ب- ترتيب أبي يوسف لجيشه :

أمر أمير المسلمين أبو يوسف بالغنائم فبعث بها مع ألف فارس وألف راجل من المجاهدين المطوعين إلى الجنوب بعيداً عن أرض المعركة، وتأخر هو ومن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتال النصارى، ثم ترجل عن جواده فأسبغ وضوءه، وصلى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمّنون على دعائه فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر للصحابه "اللهم انصر هذه العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوّها" فأجاب الله تعالى دعائه ورحم تضرعه وابتهاله، فلما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده، واستعد للقتال وجلاده، وعقد لولده الأمير الأجل  
(1) انظر: مصرع غرناطة ص46.

يوسف على مقدمته، ونادى على المسلمين فقال: يا معشر المسلمين، وعصابة المجاهدين، أنتم أنصار الدين، الذائبون على حماه والمقاتلون عداه، وهذا يوم عظيم، ومشهد جسيم، له ما بعده، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها، وجدّوا في طلبها، وأبدلوا النفوس في أثمانها، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف، "وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" فاغتنموا هذه التجارة الرباحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة، وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم شهيداً ومن عاش منكم رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً، "اصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلمكم تفلحون" فلما سمعوا منه هذه المقالة، تأقت أنفسهم للشهادة، وعانق بعضهم بعضاً للوداع، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع، وكلهم طابت نفسه بالموت، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت، وارتفعت اصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحي القيوم<sup>(1)</sup>.

فالتقى الجمعان والتحم القتال، واشتد النزال، وعظمت الأهوال، وقسم "دونونة" جيوشه إلى خمسة أجزاء، ليظهروا جموعاً متكاثرة، فكانت تقبل بجموعها، فيدفعهم المسلمون، وتتلقاهم سيوف المجاهدين، وحرابهم وقلوب المجاهدين أثبت من الجبال الرواسي في ساحات الوغى وسيوفهم تحصد رقاب الإسبان، وقتل زعيم الإسبان "دونونة" كما قتل ولده وهزم جيشه وتكسرت أعلامه<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر: التاريخ الاندلسي ص538 نقلاً عن الذخيرة السنية ص149-150.

(2) انظر: سقوط غرناطة ص48.

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية المتحدة بين المغاربة والأندلسيين بقيادة أبي يوسف يعقوب أن تحقق نصراً حاسماً في هذه المعركة التي أعادت ذكريات الزلافة في زمن المرابطين، وذكريات معركة الأرك في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي وبعد انتهاء المعركة رجع السلطان المريني منصوراً مظفراً إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم وعاد إلى الجزيرة الخضراء عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة 674هـ، بعد أن قضى حوالي خمسة شهور في الأندلس، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم<sup>(1)</sup>.

لقد كانت المعركة التي انتصر فيها السلطان المريني على الإسبان قرب إستاجة وظهرت ملكات أبي يوسف يعقوب المريني القيادية في النقاط التالية:

1- الإهتمام بعنصر الإستطلاع حتى لا يفاجأ العدو ولذلك عقد لواءً لإبنه أبي يعقوب ليقدّم جيش المسلمين لمراحل ثم يكون هو على أثره.

2- ابعاده للغنائم عن ساحة المعركة حتى لا يشتغل بها المجاهدون وحتى يتفرغوا لمجاهدة عدوهم وبذلك تحاشى الخطأ الذي وقع فيه المسلمون في معركة بلاط الشهداء وهذا يدل على نظر عميق في التاريخ واستخرج الدروس والعبر من صفحاته الماضية.

3- صدق السلطان المريني في خطبته لجنوده والتي ألهب فيها المشاعر وحرك بواعث الفداء، ورغبهم في الشهادة، فرفعت تلك الخطبة الصادقة \_\_\_\_\_  
(1) انظر: التاريخ الاندلسي ص538.

معنويات جند المسلمين، فجاهدوا صابرين محتسبين، طالبين للشهادة على الرغم من أن عدوهم أقبل عليهم بقوة فنية وقيادة مجرية لم تعرف الهزيمة ومهتت في الحروب وخططها.

4- باشر الأمير المريني في هذه المعركة القتال بنفسه، وقتل عدداً من الإسبان بيده، وهذا يذكرنا بيوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور الموحي، اللذين صنعا نصر الزلاقة ونصر الأرك العظيمين.

5- أرسل أبو يوسف أعلام النصارى المنكسة إلى أعلى منار "القرويين" ومنار جامع الكتبيين بمراكش ليعاينها المسلمون ولترتفع معنوياتهم وتتحطم هيبة النصارى من نفوسهم (1).

لقد اهتز العالم الإسلامي فرحاً وسروراً بهذه الأخبار السارة، فتحركت قرائح الشعراء لتمجيد ذلك العمل العظيم، حيث أرسل ابن اشقيلولة كتاباً للتهنئة إلى السلطان المريني وفيه قصيدة من أبياتها:

هَبَّتْ بنصرِكُمُ الرياحُ الأربعُ  
وسرّت بسعدِكُمُ النجومُ الطلُّعُ  
وأنت لنصرِكُم الملائكُ سُبَّحاً  
حتى أضاق بها الفضاءُ الأوسعُ  
واستبشر الفلكُ الأثيرُ تيقُّناً  
أن الأمورَ إلى مرادِك تَرَجعُ (2)  
وأمدكُ الرحمنُ بالفتحِ الذي

(1) انظر: سقوط غرناطة ص50.

(2) انظر: ان الأمور مرادها ومرجعها الى الله تعالى .

ملأ البسيطة نوره المتشعشع  
لِمَ لا؟ وأنتَ بذلتَ في مرضاته  
نفساً تُفدِّيها الخلائق أجمعُ  
وأنتِبتَ تتصر دينه متوكلاً  
بعزيمة كالسيف بل هي أقطع  
أين المفر ولا فرار لهارب  
والأرض تُنثرُ في يديك وتُجمعُ  
فلقد كسوتَ الدين عزاً شامخاً  
ولبستَ منه أنتَ مالا يُخلعُ  
إن قيل مَنْ خيرُ الملوك بأسرها  
فإليك يا يعقوب تومي الأصبع<sup>(1)</sup>

#### ت- الغزوة الثانية:

عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس للمرة الثانية سنة 677هـ/1278م، وتوغل بجيشه في أراضي قشتالة إلا أن النصارى استطاعوا أن يصانعو ابن الأحمر زعيم غرناطة وأن يكسبوه لجانبهم ودخل معهم في أحلاف ضرت بالمسلمين واضطر سلطان المرينيين أن يرجع إلى المغرب بجيشه واستمر ابن الأحمر في تصرفاته الشاذة وعقد تحالفاً مع ملك قشتالة، فسارا إلى أقصى الجنوب لاحتلال "طريف" مدخل الأندلس كلها، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة أن يسلمه ثغر طريف.

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 51.

واستطاعت طريف أن تصمد أربعة أشهر إلا أنها اضطرت للخضوع والإستسلام، فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة، فامتنع عن تسليمها، مع أن ابن الأحمر تنازل له مقابلها عدد من الحصون الهامة، فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه الفاحش والمزلق الخطير في الركون إلى وعود ملك قشتالة، وفي مغاضبة المرينيين حلفائه الطبيعيين، واخوانه في الدين والمنهج والتصوير والاعتقاد، فعاد يخطب ودّهم من جديد<sup>(1)</sup> فأرسل الوفود من أجل الصلح مع المرينيين واعتذر عن مسلكه في شأن طريف، وأجابهم السلطان أبو يوسف المريني إلى طلبهم وبقي ملك غرناطة على عهده مع المرينيين حتى توفي - محمد

الفيقيه - في شعبان سنة 701هـ/ أيار مايو 1302 بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة(2).  
ومما يذكر أن أبا يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول مريني ضخم في أوائل سنة  
678هـ 1279م، وانتصر على الأسطول القشتالي وحرر الجزيرة الخضراء. ولما تم الصلح مع ابن الأحمر  
أصبحت مالقة قاعدة لبني مرين ومحطة لعبور جندهم إلى الأندلس للجهاد.  
عبر أبو يوسف المنصور - عبوره الرابع - في صفر سنة 684هـ إلى الأندلس، وجاهد في البر والبحر،  
وأرغم شانجة الرابع ملك قشتالة على طلب السلم، فأرسل شانجة وفداً من الأحرار يفوض السلطان المريني  
على ما يراه ووضعت شروط أهمها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس(3).

---

(1) انظر: مصرع غرناطة ص53.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: التاريخ الاندلسي ص540.

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة 685هـ/ 1285م، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب  
والأندلس . هذه نبذة مختصرة عن حياته تغمده الله عز وجل برحمته :

كان رحمه الله صواما قواما ، دائم الذكر ، كثير الفكر ، لا يزال في أكثر نهاره ذاكرا ، وفي أكثر ليله  
قائما يصلي ، وسبحته في يده لا يزالها أكثر أوقاته مكرماً للصالحين ، كثير الرأفة والحنين على الضعفاء  
والمساكين ، متواضعا في ذات الله تعالى لأهل الدين ، متوقفا في سفك الدماء ، كريما جوادا ، وكان مظفراً  
منصورا الراية ، ميمون النقيبة ، لم تهزم له راية قط ، ولم يكسر له جيش ، ولم يغز قط عدوا إلا قهره ، ولا  
لقي جيشا إلا هزمه ودمره ، ولا قصد بلداً إلا فتحه(1).

ولا ننسى أنه كان خطيبا يؤثر في نفوس جنده ، شجاعا مقداماً يبدأ الحرب بنفسه عليه رحمة الله .

لقد كان من صنف يوسف بن تاتفين ، وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحيدي(2).

قال عنه ابن كثير في وفيات عام 685 هـ : (أبو يوسف المريني سلطان بلاد المغرب ، خرج على الوثائق  
بالله أبي دبوس فسلبه الملك بنظام مراكش ، واستحوذ على بلاد الاندلس والجزيرة الخضراء ، في سنة ثمان  
وستين وستمائة واستمرت ايامه إلى محرم هذه السنة ، وزالت على يديه دولة الموحيدين بها)(3) .

---

(1) انظر: مصرع غرناطة ص55.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

(3) البداية والنهاية (327/13).

## ج - مشيخة الغزاة:

نتيجة للمصالح المشتركة بين بني مرين وبني الأحمر ملوك غرناطة استطاعوا ان يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعاون المشترك والتنسيق العريض لرد الخطر النصراني القادم ، من مملكة قشتالة ولذلك رأيت القيادتان المرينية والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين في الأندلس للإقامة فيها ، ليكونوا على أهبة الاستعداد من اجل الجهاد والدفاع عن مسلمي الاندلس، فظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس بمشيخة الغزاة وهذا تعريف أطلق على الجنود المرابطين للذود عن العقيدة والدين وأطلق على اسم زعيمها شيخ الغزاة. وتزعم بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة ، وهو منصب عسكري تولى رئاسة المشيخة عبدالله بن ابي العلاء حتى استشهد سنة 693هـ، فكانت لأخيه أبي سعيد عثمان بن العلاء<sup>(1)</sup>. عن هذه المشيخة يذكر المقرئ في نفح الطيب أنه "لم يزل ملوك بن مرين يُعينون أهل الأندلس بالمال والرجال ، وتركو منهم حصّة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة ، فكانت لهم وقائع في العدو المذكورة ، ومواقف مشهورة ، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة ، عليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة"<sup>(2)</sup>.

توفي محمد (الثاني) الفقيه سنة 701 هـ (1301م) فخلفه ولده أبو عبدالله محمد الملقب بالمخلوع الذي خلع سنة 708 هـ ليتولى الحكم أخوه نصر وبوبع \_\_\_\_\_  
(1) انظر: التاريخ الاندلسي ص540.  
(2) نفح الطيب (385/4) نقلاً عن التاريخ الاندلسي ص540.  
يوم الجمعة غرة شوال عام 708 هـ.

وكان مجبولاً على طلب الهدنة محبا للعلم وأهله يخط التقاويم الصحيحة ، ويصنع بيده الآلات الطريفة ، نازل طاغية قشتالة على الجزيرة الخضراء ، وطاغية أراغون في ثغر المريّة ، فهزم النصراني في المريّة ، وانتصروا عليه في الجزيرة الخضراء حيث سقط جبل طارق في أيديهم بعد حصارٍ طويل مضنٍ دام حتى آخر سنة 709 هـ .

وفي عهد أخيه، ثم عهده حصل جفاءً وعداءً بينه وبين بني مرين حكّام المغرب بواسطة جواسيس النصراني المندسين بين المسلمين ، واستغل النصراني ذلك التنافر ، فشددوا على مملكة غرناطة الخناق ، فاضطر السلطان نصر بن محمد إلى دفع الجزيرة لهم فثار الشعب في وجهه ، وكان أن خلع سنة 713 هـ ورشح الخارجون عليه للملك بدلا عنه: أبا الوليد إسماعيل بن فرج ، وحفيد إسماعيل بن يوسف أخي محمد يوسف راس الأسرة النصرية ، ومؤسس دولتها<sup>(1)</sup>.

## [كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله]

امتاز عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بتوطيد الملك ، واستقرار الأمور وإحياء عهد الجهاد ، وحاول الاستتجاد ببني مرين المغاربة على أعدائه النصارى ، لكنهم نكلوا عن معاونتهم ، بسبب سوء تصرفات سابقه ضدهم<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر: الأعلام للزركلي (28/8).

(2) انظر: نهاية الاندلس ص 117.

في أوائل عهده غزا القشتاليون غرناطة وكان من ضمن القشتاليين جيش السلطان المخلوع، فهزموا المسلمين هزيمة شديدة في وادي فرتونة سنة 716هـ واستولى النصارى على بعض القواعد والحصون<sup>(1)</sup>. وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة ألب ملوك النصارى على غرناطة ، وجاءها (دون بطرة) في جيش لا يحصى كثرةً ، وكان وصيا على الملك الصبي ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة ، ومعه خمسة وعشرون ملكاً أو أميراً بغرض استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس ، وكانت حملة قد باركها مرجعهم الكنسي "البابا" في طليطلة<sup>(2)</sup> وكان من ضمن هذا الجيش فرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزي<sup>(3)</sup>. كان عدد الجيش الإسلامي حوالي ستة آلاف ، منهم ألف وخمس مئة فارس والباقي رجالة . لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء<sup>(4)</sup> ، وبعد أن يئس المسلمون من نصرة إخوانهم المغاربة ، لجأوا إلى الله تعالى وأخلصوا نياتهم ، ففضى الله تعالى بهزيمة أمم النصرانية التي احتقرت جيش غرناطة حينما رأت التفاوت الكبير بين الجيشين ، وكان نصراً عزيزاً ، ويوما مشهوداً . زاد عدد القتلى في هذه المعركة على خمسين ألفاً ، وبلغ جملة السبي فقط سبعة آلاف نفس ، وهلك الأمراء النصارى جميعهم ، واستمر البيع في الأسرى ، والأسلاب والدواب ستة أشهر ، وإنه لنصر ما كان يؤمل لولا لطف الله بعباده لما رأى صدق توجههم إليه<sup>(5)</sup>.

---

(1) انظر: ابن جزى ومنهجه في التفسير لعلي الزبيري (56/1).

(2) نفس المصدر السابق .

(3) التاريخ الاندلسي ص 541-542.

(4) المصدر السابق ص 542.

(5) انظر: ابن جزى ومنهجه في التفسير (57/1).

لقد كان السلطان أبو الوليد إسماعيل هذا من خيرة سلاطين بني الأحمر واصلحهم فمما وصف به:  
(كان حسن الخُلُق ، سليم الصدر ، كثير الحياء ، صحيح العقل ، ثبتاً في المواقف ، عفيف الأزرار ،  
ناشئاً في حجرة الطهارة بعيداً عن الصبوة ، برياً من المعاقرة)<sup>(1)</sup>.

وفي سنة 724 هـ زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياضة الحصينة ، وحاصرها بشدة ، وأطلق  
المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى استسلمت المدينة ، ونزل أهلها على  
حكمه<sup>(2)</sup>.

وفي رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة دخل مرتش الحصينة التي تقع في جنوب غربي جيان عنوة  
وكانت من أعظم غزواته وامتلت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم ، وعاد إلى غرناطة مكلال بالنصر<sup>(3)</sup>.  
لكنه ما لبث سوى ثلاثة أيام حتى قُتل بباب قصره غيلة من قِبَل ابن عم له تربص به ، وطعنه بخنجر له  
، وهو بين وزرائه وحشمه ، فحمل جريحاً وتُوفي على إثر ذلك في اليوم التالي رحمه الله وتقبل شهادته<sup>(4)</sup>.  
وفي عام 733 هـ استطاع الغرناطيون في زمن السلطان محمد الرابع تخلص جبل الفتح - أي جبل  
طارق - من أيدي النصارى بعد أن ظل تحت سلطانهم من عام 709 هـ وكان للسلطان أبي الحسن علي بن  
عثمان المريني سلطان المغرب دور يشكر عليه في تخلص جبل طارق الذي كان ذا أهمية \_\_\_\_\_  
(1) الإحاطة (377/1) برياً من المعاقرة اي بعيداً عن شرب الخمر.

(2) انظر: نهاية الاندلس ص120.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق ص121.

بالغة بالنسبة للأندلسيين إذ هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم في العودة المغربية<sup>(1)</sup>.

#### د - موقعة طريف:

وقد تجلّى تحالف ملك المغرب مع ملك غرناطة مرة أخرى في المعركة التي أصيب فيها الملكان بهزيمة  
فادحة في معركة طريف سنة 741 هـ من قبل النصارى .

منذ ان استعاد الأندلسيون سنة 733 هـ بمساعدة بني مرين - حكام المغرب - جبل طارق بعد أن ظل  
بأيدي النصارى أربعة وعشرين عاماً - إذ سقط في أيدي النصارى سنة 709 هـ توطدت العلاقة أكثر فأكثر  
بين بني الأحمر من جهة وبني مرين من جهة أخرى .

وكان الأندلسيون كلما احسو بخطر النصارى يحدق بهم سارعوا إلى الاستجداء بإخوتهم في الدين في العودة

المغربية من بني مرين ، وكانوا يقومون بالدور الذي كان يقوم به المرابطون والموحدون من الجهاد في أرض الأندلس "وفي عهد أبي الحجاج يوسف (ولايته 733-755هـ) " .

كثرت غزوات النصارى لأراضي المسلمين وكان ألفونسو الحادي عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة فكان أن استنجد أبو الحجاج بأبي الحسن سلطان المرينيين ، الذي أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس ، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلنا الجهاد ، فاجتاح أراضي النصارى وحصل على غنائم لا تحصى غير أن النصارى من قشتالة وأرجوان والبرتغال كونوا \_\_\_\_\_  
(1) انظر: ابن جزى ومنهجه في التفسير (59/1).

اسطولا بحريا متحدا ليستقر بالمضيق فيمنع الإمداد عن جيوش المغرب وسارت قوى النصارى المتحدة للقاء المسلمين وبارك البابا هذه الحملة، فباغتوا أبا مالك عند عودته بالوادي الذي كان يقع بين حدود النصارى وأرض المسلمين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها أبو مالك ، وهزم جيشه هزيمة منكرة، وبلغ أبا الحسن المريني الخبر ، فاحتسب عند الله ابنه وشرع في الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة. تجهز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافت أساطيل المغاربة بمرسى سبتة تناهز المائة فأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجواز إلى الأندلس ف وقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هيباً بالسيوف ، وطعنا بالرماح ، وألقوا أشلاءهم في اليم ، وقتلوا قائدهم ، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة<sup>(1)</sup> . ثم بعد أن جلس السلطان للتهنئة وأنشدت الشعراء بين يديه ، استأنف إجازة العساكر فاننظمت الأساطيل لسلسلة واحدة من العدو إلى العدو. ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف وأناخ بها ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس، وأحاطوا بطريف وأنزلوا بها أنواع القتل ونصبوا عليها الآلات.

غير أن الطاغية جهّز أسطولا آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤمن عن المعسكر، وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد، ففئيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات فوهن الظفر، واختلت أحوال المعسكر، وحشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتغاليون وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفاً، فإن طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤمن عنهم \_\_\_\_\_  
(1) انظر: ابن خلدون (261/7) نقلاً عن ابن جزى ومنهجه في التفسير (72/1).

من أول المحرم سنة 741هـ وإلى أوائل شهر جمادي الأولى من نفس العام، ثم المكيدة التي دبرها لهم أعداؤهم وعدم تلافيتها كان وراء انكسار شوكتهم<sup>(1)</sup> وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تتلخص فيما يأتي:  
(ولما قرب معسكرهم سرب الطاغية إلى طريف جيشاً من النصارى أكمناه بها فدخلوه ليلاً على حين غفلة

من العسس المسلمين، الذين أُرصدوا لهم غير أنهم أحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مرصدهم، وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عدداً ولَبَسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته وزحف الطاغية من الغد في جموعه، وعبأ السلطان مواكب المسلمين صفوفاً وتزاحفوا. كما تولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهنَّ وخلصوا إلى حظايا السلطان فقتلوهن، واستلبوهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً وأحسَّ المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به، وتقبضوا عليه وولَّى السلطان متحيزاً إلى فئة من المسلمين واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم<sup>(2)</sup>.

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب<sup>(3)</sup> يقول المقري في وصف هذه الفاجعة:

---

(1) انظر: ابن جزى ومنهجه في التفسير (73/1).

(2) انظر: العير لابن خلدون (261/7-262) نقلاً عن ابن جزى (74/1).

(3) انظر: نهاية الأندلس ص 128.

"قضى الله الذي لامرد لما قدره أن صارت تلك الجموع مكسرة ورجع السلطان أبو الحسن مغلولاً وأضحى حسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً.. وقتل جمع من أهل الإسلام ولمة وافرة من الأعلام.. واشرب الكافر والكافر لأخذ ما بقي من الجزيرة ذات الظل الوريث، وثبت قدمه إذ ذاك في بلد طريف، وبالجملة فهذه الموقعة من الدواهي المعضلة الداء، والأرزاء، التي تضعع لها ركن الدين بالمغرب، وقرت بذلك عيون الأعداء"<sup>(1)</sup>.

ويرأى الاستاذ نجيب زبيب اللبناني أن هزيمة المرينيين كانت بسبب الخيانة والعمل الاستخباراتي الذي قامت به ممالك النصارى ويرأى أن حكام غرناطة كانوا يتجسسون لصالح النصارى: (فالقشتاليون على سبيل المثال اتخذوا من حكام غرناطة جواسيس لهم في جميع أنحاء المغرب. وفي المناطق المنفصلة عنه مثل المغرب الأوسط وإفريقية وكان بنو زيان في تلمسان والحفصيون في المغرب الأوسط على اتصال مستمر مع حكام غرناطة، ينقلون إليهم كل المعلومات المستجدة عن الدولة المرينية، حتى أنهم صاروا يقومون بدور مخلب القط للقشتاليين فكل المعلومات التي كانت ترد إليهم من الحفصيين والزيبانيين كانوا يقدمونها إلى القشتاليين.

وكثيراً ما حث القشتاليون حكام غرناطة على طلب النجدة من المرانيين للايقاع بالجيش المرينية وأساطيلها في المكائد والشراك المنصوبة..(2).

ولاشك أن العمل الاستخباراتي من الأعمال التي تدمر الأمم إذا لم يكن لها عمل مضاد ضد مخططات الأعداء بل إن نجاح الدول في تحقيق أهدافها منوط بتحقيق هذا المفصل المهم في بناءها.

---

(1) انظر: ابن الجزي ومنهجه في التفسير (74/1) نقلاً عن نفخ الطيب (317/6).

(2) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس ، الاستاذ نجيب زيبب (81/3).

### هـ- العلماء الذين سقطوا شهداء في معركة طريف:

1- أبو محمد عبدالله بن سعيد السلماني، والد الوزير الغرناطي والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب.  
2- القاضي أبو عبدالله محمد بن بكر الأشعري المالقي، أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب كتاب التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، (كان حسن التخلق عطوفاً على الطلبة محباً للعلم والعلماء مجلاً لأهله مُطرح التصنع عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم صَوَّالة معروفاً بنصرة من أزر إليه. تقدم للمشيخة ببلده مالقة ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة ثم وُلِّي القضاء بها فأعزَّ الخُطة وترك الهَوادة ملازماً للقراءة والإقراء محافظاً للأوقات حريصاً على الإفادة. ثم وُلِّي القضاء والخطابة بغرناطة"(1).

"وتصدَّر لبثَّ العلم بالحضارة يقري فنوناً منه جَمَّة فنفع وخرَّج ودرَّس العربية والفقه والأصول وأقرأ القرآن وعلم الفرائض والحساب وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على سبيل من انشراح الصدر وحسن التجمل وخفض الجناح.."(2).

"واستمر على عمله من الاجتهاد، والرغبة في الجهاد، إلى أن فقد - رحمه الله - في مصاف المسلمين، يوم المناجزة الكبرى بطاهر طريف، شهيداً محرّضاً يشحذ البصائر و (يدمي) الأبطال، ويشير على الأمير من أن يكثر من قول: "حسبنا الله ونعم الوكيل".

---

(1) الاحاطة (176/2-177).

(2) نفس المصدر (177/2).

3- أبو القاسم محمد بن جُزَيّ وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب المؤلفات. كان فقيهاً حافظاً قائماً

على التدريس، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، حافظاً للتفسير، مستوعباً للأقوال، جماعة للكتب، ملوكي الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته<sup>(1)</sup>.  
"فقد وهو يحرض الناس ويشد بصائرهم ويثبتهم، يوم الكائنة بطريف.."<sup>(2)</sup>.

وغير ذلك من الفقهاء والعلماء والصلحاء الذي كان همهم نصره دين الله والموت في سبيل الله تعالى. وبعد معركة طريف أصبحت مملكة غرناطة في مدّ وجز، واعتورتها حالات الحرب والهدنة، والمسالمة والتحالف جنباً مع قشتالة ضد بني مرين، ومع بني مرين ضد قشتالة، أو أراجون حيناً آخر ثم مالبت هذه المملكة أن أصابها الهرم، ولحققتها الشيوخوخة وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلي مع الانغماس في اللذات وفي نفس الوقت ضعفت دولة بني مرين المغربية التي كانت عوناً في كثير من الأحيان لمسلمي الأندلس ضد أعدائهم النصارى وكان زمن سقوط دولة بني مرين 869هـ<sup>(3)</sup>.

واندلعت الحرب الأهلية في داخل غرناطة بسبب النساء حيث أن ملك \_\_\_\_\_

(1) نفح الطيب (514/5).

(2) نفس المصدر (514/5) نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص 547.

(3) انظر: ابن جزى ومنهجه في التفسير (74/1).

غرناطة أصبح أسيراً لحب امرأة رومية نصرانية تدعى "ثريا" وأصبح أداة سهلة في يد زوجته الفتية الحسنة وكانت كثيرة الذكاء والأطماع، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى ولياً للعهد، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبدالله محمد، وتمكنت ثريا من اقناع زوجها أبي الحسن لإقضاء عائشة وولديها حتى اقنعتهم باعتقالهم جميعاً، وفي برج قمارش أمنع أبراج الحمراء رُجّت عائشة الحرة مع ولديها، وشدّد الحجر عليهم، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة وانقسم المجتمع الغرناطي إلى فريقين.

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيده غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ.

وفريق يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها).

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم، واتصلت سراً بمؤيديها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج، وتمكّنت من الهرب من قصر الحمراء في ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة 887هـ / 1482م بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين.

وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها.

وقرر فرديناند وإزبيللا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة، وبعد أن دخلت مملكة غرناطة في صراعها

الداخلي وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربي غرناطة إلى مكان اسمه الحمة، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة ومالقة معاً، وتم لهم ذلك ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوثة الواقعة على نهر شنيل شمال ألحامة وعلى مقربة منها وأن يرداً معاً الإسبان في جمادي الأولى 887هـ/ تموز "يولييه" 1482م.

وتعاطف الشعب الغرناطي مع الشرعية (عائشة الحرة واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسي الملك وفر إلى مالقة، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبدالله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشاً جراراً سيّره ملك قشتالة لافتتاحها، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبدالله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة 887هـ، وعمره 25 سنة وأراد أن يحدو حدو عمه الزغل في الجهاد، وباشر القتال بنفسه وحقق انتصارات على النصارى وانتزع منهم حصوناً وقلاعاً سنة 888هـ نيسان "ابريل" سنة 1483 إلا أنه وقع أسيراً في يد النصارى في إحدى المعارك.

واستطاع فرديناند أن يجعل من أبي عبدالله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من الداخل ولذلك رفض الأموال الطائلة التي عرضت عليه من أجل فك أسر واستغل النصارى قلة خبرة أبي عبدالله الصغير، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه للحكم.

ولما تولى عرش غرناطة ابو عبدالله الزغل واستطاع أن يرد بكل جرأة وشجاعة وبطولة هجمات النصارى إلا أن الكيد النصراني الحاقد استخدام أسلوب تقوية الفتن الداخلية في غرناطة وفي أخرج الظروف أطلق فرديناند سراح أبي عبدالله الصغير، بعد أن وقع على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته لملك قشتالة مدتها عامان، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبدالله الصغير، وأخذ يبيت أبو عبدالله الصغير دعوته في شرق الأندلس، والحرب الأهلية قائمة في غرناطة وزاد الأمر سوءاً سقوط مدينة لوثة بيد النصارى في أواخر جمادي الأولى 891هـ / أيار مايو 1486م، وكان موقف أبي عبدالله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريباً.

فهو مازال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى.

وبقي يستظل بمظاهرتة للنصارى ويتأيدهم له.

وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه، فهو الورقة الراجعة بيد فرديناند.

ودعم فرديناند ابا عبدالله الصغير ضد عمه وانقسمت غرناطة إلى شطرين وتحقق لفرديناند ما أرادته وسعى إليه، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستمضي بخطوات سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرة أخرى.

وشرع فرديناند في محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التي تخضع لأبي عبدالله الزغل، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جماد الثانية 892هـ/حزيران يونيه 1487م، وخاف الزغل أن يسير إلى انجادهما من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي عبدالله الصغير، فاستتجد بسطان مصر الأشرف قايتباي، ولم يكن من المنتظر أن تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في أواخر شعبان 892هـ/ آب اغسطس 1478م ونكت فرديناند بوعوده التي قطعها لأهل مالقة، فغدر بهم واسترقهم جميعاً، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين.

كانت مصر في تلك الفترة لاتستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة إلا أن حاكمها المملوكي استعمل الضغط السياسي، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية، إلى البابا أنوصان الثامن، وإلى ملوك النصرانية ليبين لهم أن النصارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية، والمسلمون تسفك دماؤهم، وتستحل حرمتهم، وتغزأ أراضيهم في الأندلس وتوعد سلطان المماليك فرديناند إن لم يغيّر خطته وسياسته تجاه غرناطة، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارى في بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل استقبل فرديناند السفيرين، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف، ولم يغيّر خطته، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة: "أنهما - فرديناند وزوجه ايزبيلا - لايفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى، ولكنهما لايستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شاؤوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما مايلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية"<sup>(1)</sup>.

وفشلت المحاولة الدبلوماسية، وتركت غرناطة تلاقى قضاءها المحتوم، ولم ينفذ السلطان تهديده، فلم يضطهد أحداً، لأن الإسلام لايجيز له ذلك. وأخذت المدن تتساقط تباعاً بيد فرديناند، فسقطت المرية في عام 895هـ/1890م واستسلمت بشروط هي أنموذج لشروط سقوط باقي القواعد الإسلامية واهمها:

- 1- أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم.
  - 2- تخفف عنهم أعباء الضرائب.
  - 3- ألا يولى عليهم يهودي.
  - 4- ألا يدخل نصراني في "الجماعة الإسلامية"
  - 5- وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصارى الدين الذي يريدون عند البلوغ.. وغيرها من الشروط إلا إن النصارى لايلتزمون بشيء من ذلك بل يسبون النساء ويسترقون الرجال ويغتصبون الأموال.
- وسقطت الثغور التي كانت تصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تفد بعض المتطوعة، وانقطعت الصلة

نهائياً بعدوة المغرب والشمال الإفريقي(2).

(1) نهاية الاندلس وتاريخ المنتصرين ص369.

(2) انظر: مصرع غرناطة ص(72،73،74،75،76،77).

وتطور سير الأحداث وخضع ابو عبدالله الزغل لملك قشتالة على الرغم من شجاعته وبسالته وبقي الزغل يحكم وادي آش تحت حماية ملك قشتالة، ولم تقبل نفسه الأبيه هذا الوضع المهين، فترك الأندلس مهاجراً إلى المغرب، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس.

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبدالله الصغير تنتظر مصرعها والضربة القاضية من النصارى(1).

في سنة 895هـ/1890م، أرسل الملكان الكاثوليكيان - فرديناند وزوجه ايزابيلا - وفداً يطلب تسليم غرناطة من أبي عبدالله الصغير، فثارَت نفس أبي عبدالله الصغير لهذا الغدر والخيانة، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، ومعاونته على بني دينه وعقيدته ووطنه فرفض الانقياد والخضوع وقرر المقاومة وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين 50-80 ألفاً، مع مدافع وعُدَد ضخمة، وذخائر وأقوات، وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة في 12 جماد الثانية سنة 896هـ/سنة 1491م، وأتلف الزروع والحقول والقرى كي لا تمتد غرناطة بأي طعام، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من عز تليد وملك مديد ضارب في ذاكرة التاريخ السحيق وأصبحت محاطة بالعدو من كل جهاتها.

لقد استبسل المسلمون وتحملوا الحصار بل خرجوا لقتال العدو المحاصر وافسدوا عليه خططه وتدبيره.

وظهر في تلك المقاومة موسى بن أبي غسان والذي قرر الموت دون الاستسلام ومن أقواله في ذلك: (ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد

(1) انظر: مصرع غرناطة ص77.

والرمح، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنه، من أفرق قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين"(1).

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين، يعاونه نعيم بن رضون، ومحمد بن زائدة، وتولى آل الثغري حراسة الأسوار، وتولى زعماء القصبه والحمراء حماية الحصون.

وحل الشتاء، وقلت المؤمن، والذخائر ودخل الوزير المسؤول عن غرناطة "أبو القاسم عبدالملك" مجلس أبي عبدالله الصغير، وقال: إن المؤمن الباقية لاتكفي إلا لأمد قصير، وإن اليأس قد دبَّ إلى قلوب الجند والعامّة، والدفاع عبث لايجدي.

ولكن موسى بن أبي غسان قرر الدفاع ما أمكن، فقال للفرسان "لم يبقى لنا سوى الأرض التي نقف عليها، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن"(2).

استمر الحصار سبعة أشهر، واشتد الجوع والحرمان والمرض، واعدت تقويم الموقف في بهو الحمراء، فأقر الملاء التسليم إلا موسى بن أبي غسان الذي قال بحزم: "لم تتضب كل مواردنا بعد.. ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها.."(3).

وكانت هذه الكلمات الصادقة تخاطب أناس انهزموا في داخلهم وخارت

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 81.

(2) انظر: المصدر السابق ص 82.

(3) انظر: المصدر السابق ص 82، 83.

عزائمهم، وضعفت معنوياتهم، فقرروا المفاوضة والتسليم، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبد الملك<sup>(1)</sup> جاء في نفع الطيب: "وفي ثاني ربيع الأول من السنة - أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفاً من الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ماكانت، ولايحكم على احد منهم إلا شريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لايدخل النصارى دار مسلم ولايغصبوا أحداً، وأن لايولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل وأن يفتك جميع من أسرى في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نصَّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لاسبيل عليه لمالكة ولاسواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكة، ومن أراد الجواز للعدوة ولا يُمنع، ويجوزون في مدة عُينت في مراكب السلطان لايلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم من الكراء، وأن لايؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لايقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصَّر من المسلمين يُوقف أياماً حتى يطهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولايعاقب من قتل نصرانياً أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ماسلب من النصارى أيام العداوة، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثّة، ولايطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولايدخل

مسجداً من

(1) انظر: سقوط غرناطة ص 83.

مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن (1).

ولا يمنع مؤذن ولا مُصلّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يُعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ويقول المقري بعد هذا: "وأمثال هذا مما تركنا ذكره" من الشروط (2).

يقول الاستاذ محمد عبدالله عنان: (وهذا أفضل ما يمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة، لو أخلص النصارى في عهودهم، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم، ولما أنسى فرديناند وايزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنوا في يوم 29 تشرين الثاني "توفمبر" مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم، أو حيث شاؤوا، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب، ولكن سوف نرى أن الإيمان والعهد لم تكن عند ملكي النصارى سوى ستار للخيانة والغدر، وأن هذه الشروط الخلابية نُقضت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور" (3) وهذا ما تتبأ به فارس الأندلس موسى بن أبي غسان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا على قرار التسليم وقال: "اتركوا

(1) المدجنون هم الذين بقوا من المسلمين تحت حكم الاسبان.

(2) نفح الطيب (6/277/278) نقلاً عن سقوط غرناطة ص 83.

(3) نقلاً عن مصرع غرناطة ص 85.

العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تُخلق لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، ولأن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاتة، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال إن أشرف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها (1).

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء ، واليأس مائل في الوجوه ، وغاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة، عندئذ صاح أبو عبدالله الصغير: "الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله ، تالله لقد كتب لي أن اكون شقياً ، وأن يذهب الملك على يدي" (2)، وصاح من حوله على : "الله أكبر ولا راد لقضاء الله" وقرروا جميعاً التسليم وأن شروط النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه .

نهض موسى بن أبي غسان وصاح: "لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا

تركنا إلى شهامة ملكهم ، إن الموت أقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدني مساجدها ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نساتنا وبناتنا ، وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشي والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق وهذا مأسوف نعاني من مصائب الموت الشريف ، أما أنا فوالله لن أراه" (3) ، ثم قام وخرج وجاهد حتى استشهد رحمه الله تعالى .

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 86.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

ولقد صاغ الشاعر عدنان مردم بك هذه الصورة على لسان موسى بن أبي غسان فقال:

أنا لن أقرّ وثيقةً

فرضت وأخضع للعدا

ما كان عذري إن جئنت

وخفت أسباب الردى

والموت حقّ في الرقاب

أطال أم قصر المدى

إني رسمت نهايتي

بيدي ولن أترددا

كنت الحسام لأمتي

واليوم للوطن الفدى

أنا لن أعيش العمر

عبداً بل سأقضي سيدي(1)

### ثالثاً: وصف حي لتسليم غرناطة:

وفي الثاني من ربيع الأول 897 هـ ، كانون الثاني (يناير) سنة 1492م وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما أن تقدم النصارى الأسبان القشتاليون من تل الرحي صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبدالله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع

(1) سقوط الاندلس ، د. ناصر العُمر ص65.

"هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور - قصوري باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها ، لفضائلهما وزلات المسلمين"<sup>(1)</sup>.

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبدالله الصغير للقيام بهذه المهمة . وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلبداخل القصر المنيف حتى سعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليبا كبيرا فضيا وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب. وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة اصبحت ملكا للملكين الكاثوليكين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع في ركب قاتم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ومن ورائه أهله وصحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها يشع الحزن من محياها الوقور . وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحراس بالبكاء<sup>(2)</sup> وتحرك الركب نحو منطقة البشرات وفي شعب من الشعب المظلة على غرناطة وقف أبو عبدالله الصغير مودعا لمدينته وملكه ، فاجهش بالبكاء على هاتيك الربوع العزيزة ، فصاحت به أمه عائشة الحرة: "إبك مثل النساء مُلكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال" إن هذه الكلمة حري بها أن تكون إطارا لمأساة غرناطة وقد جمعت فيها كل العبر والأمثلة والحكم .

(1) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس ص(124/3).

(2) نفس المصدر السابق (125/3).

يقول الاستاذ نجيب زبيب عن هذه الكلمة : ولما حاولت التعليق عليها ارتعشت يدي وتساقطت الدموع من عيني أسىً وخشوعاً وتهيباً من عظمتها لأنها اصبحت كلمة تاريخية . لا بل وأعظم كلمة قيلت في سقوط غرناطة<sup>(1)</sup>.

ولقد صور أحد الشعراء على لسانها قولها :

تذكر الله باكياً هل يرد الدمع

مجداً ثوى وعاراً أقاما

هدني فوق خطبنا انك ابني

يا لأمّ تسقي العذاب توأما

لم تصن كالرجال ملكا فأمسى

ركنه اندك فابكه كالأيامى (2)

يقول المؤرخ عنان: "وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة وليس ثمة في تاريخ تلك الفترة شخصية تثير من الاعجاب والاحترام ، ومن الأسى والشجى قدر ما يثير هذه الأميرة النبيلة من شجاعة واقدام وتضحية"<sup>(3)</sup>.

إن لبعض النساء مواقف مشرفة في تاريخ الأندلس الجهادي تصلح نبراسا لفتياتنا وأمهاتنا وبناتنا واخواتنا وما قصة عائشة الحرة مع ابناها الا واحدة منها<sup>(4)</sup>.

ويعد شهرور من مصرع غرناطة غادر أبو عبدالله الصغير إلى الغرب مع \_\_\_\_\_

(1) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (3/127،126).

(2) انظر: سقوط الاندلس ص70.

(3) نهاية الاندلس بتصرف ص197 نقلاً عن سقوط الاندلس ص69.

(4) انظر: سقوط الاندلس ص70.

اسرته وأمواله ، ونزل مدينة مليلة ثم استقر في فاس<sup>(1)</sup>، مستجيراً بالسلطان أبي عبدالله محمد الشيخ زعيم بني وطاس ، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه ونظم هذا الاعتذار شعراً أبو عبدالله محمد بن عبدالله العربي العُقيلي، وقدمه على لسان أبي عبدالله الصغير لزعيم بني وطاس في رسالة ومنها في مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم

رعياً لما مثله يُرعى من الدّم

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن

جار الزمان عليه جَوْرَ منتقم

حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً

وأفزع الحظ ما يأتي على الرغم

حكّم من الله حتى لامرّد له

وهل مرد لحكم منه منحتم

وهي الليالي وقاك الله صوّلتها

تصول حتى على الآساد في الأجم

كنا ملوكا لنا في أرضنا دول  
نمنا بها تحت أفنان من النعم  
فايقظتنا سهاماً للردى صعب  
يرمي بأفجع حنق من بهنّ رُمي  
فلا تتم تحت ظل الملك نومتنا

(1) نفع الطيب (278/6) نقلاً عن سقوط غرناطة ص96.

وأي ملك بظلّ الملك لم ينم

يبكي عليه الذي قد كان يعرضه

بأدمع مزجت أمواها بدم (1)

ومرت سنون ، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئاً فشيئاً في نفوس المسلمين ، واسدل ستار من النسيان عليه ، ولكن مأساة المسلمين المنتصرين "أو المور يسكين" لم تقف، وظهرت محاكم التفتيش التي هدفت إلى إبادة المسلمين في الأندلس .

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب ، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً ، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس ، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها ، وحرقت من بقي منهم ، وزاد الكردينال "كمينسس" على ذلك ، فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكادسا في اكبر ساحات المدينة ، وفيها علوم لا تقدر بثمن ، بل هي خلاصة ما بقي من التفكير الإنساني وأحرقها<sup>(2)</sup>، لقد ظن رئيس الأساقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضي على الإسلام في أسبانيا وأنى هذا له، وقد تركت حضارة الإسلام في الأندلس من الآثار ما يكفي لتخليد ذكرها على مر الدهور وكر العصور وإن للإسلام جولة وصوله من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا وسيكون ذلك قريباً عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح ، "ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً" .

(1) انظر: نفع الطيب (618/6 الى 288).

(2) انظر: سقوط غرناطة ص98.

**رابعاً: محاكم التفتيش:**

هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية ، وبأشد وسائل العنف ، ولم تكن الجهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية ، التي اسبغت على سياسة أسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه ، اعتبرهم نصارى الاسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية ، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات ، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة وفي تموز (يولية) 1501 أصدر الملك الكاثوليكيان أمراً خلاصته "إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال" .

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها ، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره ، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع ، فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه ، يزج به في السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة ، تغص بالحشرات والجرذان ، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم ، لتدفع نفقات سجنهم . ومن أنواع التعذيب ، إملاء البطن بالماء حتى الاختناق ، وربط يدي المتهم وراء ظهره ، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفع وخفضه معلقاً ، سواء بمفرده أو مع أقال تربط معه ، والأسياخ المحمية ، وسحق العظام بآلات ضاغطة ، تمزيق الأرجل وفسخ الفك .. ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه(1).

(1) انظر: محاكم التفتيش ص 91 نقلاً عن سقوط غرناطة ص 100.

وقرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ في ساحة البلدة ، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير ، أو إعدام حرقاً وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملك الكاثوليكين حفلات الإحراق(1).  
ومما يذكر.. أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها ، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور ، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها ، وهي على هذه الحالة السيئة ، ولا يمكنها الحراك ، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية ، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كذب كأنما هي جنيّة لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعاً ورعباً(2).

"لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . إلا من يقولها في قلبه ، وفي خفية من الناس وجعلت

النواقيس في صوامعها بعد الأذان ، وفي مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعدورين ، لم يقدرُوا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل نارا ، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً ، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرُونَ على منعهم ولا على نهيمهم ، \_\_\_\_\_

(1) انظر: سقوط غرناطة ص100

(2) انظر: محاكم التفتيش ص93 نقلاً عن سقوط غرناطة ص109.

ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، فيالها من فجيرة ما أمّرها! ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها<sup>(1)</sup>.  
"وانطفاً من الأندلس الإسلام والإيمان، فعلى هذا فليبك الباكون، ولينتحب المنتحبون، فإننا لله وإنا إليه راجعون، كان ذلك في الكتاب مسطوراً وكان أمر الله قدراً مقدوراً"<sup>(2)</sup>.

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.

كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان. فإذا عُلم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكماً بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لايساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.

لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكّون أنه مسلم فإذا وجدوه مخزوناً أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته<sup>(3)</sup>.

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب "الأوتودافي" وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة \_\_\_\_\_

(1) انظر: نهاية الاندلس ص321 نقلاً عن سقوط الاندلس ص72.

(2) انظر: سقوط الاندلس ص72.

(3) انظر: سقوط الاندلس ص10.

بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وإمتهان بعض المهن الخاصة<sup>(1)</sup>.

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة وتحمي أشخاصهم وتنفيذ أوامرهم بكل وسيلة وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف

وسوء استعمال السلطة والقبض على الأثرياء بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته. وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد. هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولا يستطيع دفعاً لها ولأنه كان يرى فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض والريب وأبنت اسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها وأبنت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن باخلاصهم لدينهم الجديد ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم وترى فيهم دائماً منافقين مارقين.

واليك مايقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة. وكانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد فإذا ذهبوا إلى القديس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام. وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف وفي يوم الجمعة \_\_\_\_\_  
(1) انظر: ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى لمحمد عبدالله عنان ص32/24 نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (222/3).

يحتجبون ويغتسلون ويقىمون الصلاة في منازلهم وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون. وإذا عمّدوا أطفالهم عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار. ويسمون أولادهم بأسماء عربية وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية ويقىمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية<sup>(1)</sup>. وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءاً أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير وتعلقهم لدينهم القديم وكيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعدار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم<sup>(2)</sup>.

#### خامساً: فتاوى هامة :

وهذه الفتاوى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى المسلمين الذين أكرهوا على التنصير، حيث قدم لهم بعض النصائح التي يعاون اتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام عند الإكراه من قبل القوة النصرانية الحاكمة وكان تاريخ هذه الرسالة سنة 910هـ/28 نوفمبر 1504م.

وهذا نص الفتاوى:

"الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا"

اخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته. وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن \_\_\_\_\_  
(1) أي الأحكام الاسلامية.

(2) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (223/3).

شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلفظ بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، بعد السلام عليكم من كتابه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيد الله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني. كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من اخلاصكم وغريبتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم، ان لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاکر الله بين الغافلين كالحی بین الموتی فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع وإن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله. فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور وإن منعتكم فالصلاة قفاه بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتمم به، فأقصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله صلى الله عليه وسلم فأتوا منه ما استطعتم. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وأنووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن كان لغير القبلة تسقط في حقم كصلاة الخوف عند الالتحام، وأن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لابنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرّم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيرتموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقوا بالباقي، إن تبتم الله تعالى وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا، وإلا

فكونوا مطمئنين القلوب بالإيمان ان نطقتم بها ناكرين لذلك وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَدَّ، فاشتموا مُمَدَّاً، ناوين انه الشيطان أو مُمَدَّ اليهود فكثير بهم اسمه وإن قالوا عيسى توفى بالصلب فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو ومايعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ماتكتبون به. وأنا أسأل الله أن يدبيل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولايد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً. بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره "يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى" (1).

---

(1) هذه الفتاوى عثر عليها الاستاذ محمد عبدالله عنان خلال بحوثه في مكتبة الفتىكان برومه. انظر الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (225/1).

### **سادساً: القواعد النصرانية الإسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية:**

لقد نقل إلى المؤرخين (الدون روني) مؤرخ ديوان التفنيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديون المقدس أن يأخذ بها المسلمون المنتصرين في تهمة الكفر والمروق، وإليك ماورد في تلك الوثيقة الغريبة (1).

"يعتبر الموريسكي (2) أو العربي المنتصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسولاً. أو أن صفات العذراء أو اسمها لاتناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك. ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية. ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح. وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية. أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة. أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في اتباعه هذه العادة، أو يقول انه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بإيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. أو يقوم بالوضوء والصلاة. بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن. أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية. أو ينشد الأغاني العربية.

(1) انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (226/3).

(2) الموريسكي يطلق على المسلم الذي اكره على الدخول في النصرانية.

أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية. أو أن يستعمل النساء الخضاب في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد. أو يغسل الموتى ويكفنه في أثواب جديدة أو يدفنه في أرض بكر. أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعاً إياه بالنبي ورسول الله. أو يقول إن الكعبة أول معابد الله أو يقول انه لم يُصّر إيماناً بالدين المقدس. أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين..<sup>(1)</sup>.

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في الديار الإسلامية والعربية، يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطالبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة شؤون حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل، والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد استمرت محاكم التفتيش قرناً عدة وعندما احتل نابليون إسبانية بعد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسوماً سنة 1818م بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا، ولكن رهبان "الجزويت" أصحاب المحاكم الملغاة استمروا في القتل والتعذيب، فشمّل ذلك الجنود الفرنسيين، فأرسل المارشال "سولت" الحاكم العسكري الفرنسي لمدريد الكولونيل "ليمونكي" مع ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجم دير الديوان، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء فقرر الكولونيل "ليمونكي" فحص الأرض، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في \_\_\_\_\_

(1) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب (226،227/3).

أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا. فإذا الماء يتسرب إلى أسفل في إحدى الغرف، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس. وفتح الباب بقحوف البنادق، واصفرت وجوه الرهبان وكستها غيرة. وظهر سلم يؤدي إلى باطن الأرض ونزل القائد الكولونيل وجنده. ويذكر هذا الانسان في مذكراته مايلي<sup>(1)</sup>.

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش "الدينونة" كما يسمونه، وهو عبارة عن "دكة" عالية يجلس عليها رئيس الديوان<sup>(2)</sup>، وإلى جانبه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت تلك

الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض. وقد رأيت بها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى التقرز ماحييت رأينا غراً صغيرة في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الأفقية ممداً بها حتى يموت. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية مازالت في أغلالها سجيئة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين، واستطعنا فكاًك بعض السجناء الأحياء وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق \_\_\_\_\_

(1) انظر: التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام لمحمد الغزالي نقلاً عن مصرع غرناطة.

(2) رئيس ديوان محكمة التفتيش.

من الحياة، وكان فيهم من جُنَّ لكثرة مالاقي من عذاب، وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها لفيماً من النساء السجينات.

وانقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم وكانوا يبدؤن بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدرج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة.

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه الرأس المُعذَّب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوى على الحركة وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد جُنَّ الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يحملوا به على الاعتراف، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت<sup>(1)</sup>.

وعثرنا على آلة ثلاثة للتعذيب تسمى السيدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الإستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المُعذَّب فوق هذه الصورة. ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُرَّق الشاب وتقطع إرباً إرباً.

كما عثرنا على جملة آلات لسلس اللسان، ولتمزيق أئداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلابيب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المُعذَّبين \_\_\_\_\_

(1) انظر: مصرع غرناطة ص112.

وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظم.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جُنَّ جنونهم وانطلقوا - كمن به مسّ - فأمسكوا برئيس الدير

ووضعه في آلة التكسير، فدُقَّت عظامه دقاً، وسحقها سحقاً.  
وأمسكوا أمين سره، وزفُّوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليهما الأبواب، فمزَّقته السكاكين شر ممزَّق، ثم أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصابة وبقيّة الرهبان كذلك<sup>(1)</sup>.  
قلت: ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين على بعض ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة المتوحشين الذين نزعت من قلوبهم أدنى مشاعر وأحاسيس الإنسانية وانقادوا في حزب الشيطان اللعين.

### سابعاً: أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً:

1- تفتت كيان الشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

2- سعى ممالك إسبانيا نحو الإتحاد وتمّ ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تم بين (فرناندوا) الذي أصبح ملكاً لمملكة أرجون، وإيزابيلا التي تبوّأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان وتعاونتا معاً بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر: مصرع غرناطة ص93.

(2) المصدر السابق نفسه.

3- الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد.  
يقول المؤرخ النصراني كوندي: (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات)<sup>(1)</sup>.

أما شوقي أبو خليل فيقول: "والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة، والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرّسوا على الحياة الخسنة الجافية وغدا التهتك، والاغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللائي.

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمر والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبؤون في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة،

والجوارى الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعبا يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن يصمد رجاله في الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد، أو يتكوّن منهم جيش قوي، كفاء للحرب والمصاولة<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 94.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

لقد تنافس الولاة والحكام في الجوارى حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سنة متبعة بينهم، وقف عند هذه الحادثة: ذكر المؤرخين أن وفاة ابن هود عام 635هـ كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود، فدبر له مكيدة قتل بها. أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد صلى الله عليه وسلم<sup>(1)</sup> دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور "الله أكبر" وبقينا فيها زمنا، حين كان يحكمها أمثال عبدالرحمن الداخل عندما قُدم إليه خمر ليشرب قال إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه"<sup>(2)</sup>. يقول الدكتور عبدالرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس: (كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أعلى من حياتهم أشربت نفوسهم حُبّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وريع حياتهم"<sup>(3)</sup>).

وضاعت ممالك الأندلس من يدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين

دَوْرِنِ الْعُودِ وَهَاتِ الْقَدْحَا

رَاقِبِ الْخَمْرُ وَالْوَرْدُ صَحَا<sup>(4)</sup>

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام 456هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلّى:

---

(1) انظر: سقوط الأندلس ص 29.

(2) المصدر السابق ص 27.

(3) انظر: التاريخ الأندلسي ص 211.

(4) انظر: النصر والهزيمة لشوقي ابوخليل ص 123.

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم

حل الحرير عليكم ألواناً

ماكان أقبحهم وأحسنكم بها

لو لم يكن ببطرنة ماكانا(1)

4- الاختلاف والتفرق بين المسلمين ، ولو نظرت الى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين وبني عبدالوادم والدولة الحفصية لوجدت أمراً فظيماً، وصل إلى حد الإشتباك والقتال بين المسلمين بل أكثر من ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصارى ضد إخوانهم في العقيدة من أجل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميم منذ ملوك الطوائف بل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف، حتى قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمي:

ما بال شمل المسلمين مبددٌ

فيها وشمل الضد غير مبدد

ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم

وطريق هذا الغدر غير ممهد

إن قال لم فرطتم في دينكم

وتركتموه للعدو المعتدي

تالله لو أن العقوبة لم تخف

لكفى الحيا من وجه ذاك السيد(2)

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تتجامل، \_\_\_\_\_

(1) انظر: فقه التمكين عند دولة المرابطين ، لعلي محمد محمد الصلابي ص90.

(2) انظر: سقوط الاندلس ص33.

وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف وقال صلى الله عليه وسلم في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: (فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) وفي رواية "أهلكوا"(1).

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود: "فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف"(2).

قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحز على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة

والاختلاف(3).

وقال ابن تيمية رحمه الله: "وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا على التفرق والاختلاف"(4).

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم وهو الذي يؤدي إلى تفرقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما

بين المختلفين كل طرف يبطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً(5).

"وإنما كان الاختلاف علّة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقا شتى مما يضعف الأمة لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرى العدو عليها فيطمع فيهاجمها ويحتل أراضها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسح شخصيتها \_\_\_\_\_

(1) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (101،102/9).

(2) المصدر السابق (102/9).

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) انظر: مجموع الفتاوى (116/19).

(5) انظر: السنن الالهية ، د.عبدالكريم زيدان ص139.

وفي ذلك انقراضها وهلاكها" (1).

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقى الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الأندلس وهلاكها واندثارها وإن أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الحركات الإسلامية التي تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى وهذا الخلاف قد يؤدي إلى ضعف الحركات العاملة إذا لم نأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبدالكريم زيدان: "والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تتهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها ولهذا كان شر ما تبثلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقا شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة. وهيئات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أنّ مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفرق في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

والاختلاف في الجماعة لايقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة وإنما يضعف تأثيرها في الناس وتجعل المعرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق. ثم يؤول الأمر إلى \_\_\_\_\_

(1) انظر: السنن الالهية ص139.

انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول" (1).

5- موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبعض في الله بل هذه المعاني كادت تندثر

إن الأمة حيث تخالف أمر ربها وتتحرف عن طريقه فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته قال تعالى: [ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ](2).

وقوله عزوجل: [ لاتتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ](3).

وقوله تعالى : [ لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم... ](4).

وقد أبان رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق الأمة في الولاء والبراء \_\_\_\_\_

(1) السنن الالهية ص ص 141، 140.

(2) سورة المائدة : الآية 51.

(3) سورة المائدة : الآية 57.

(4) سورة المجادلة : الآية 22.

فقال: "وثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله"(1).

ويقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه - عزوجل : (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)(2). فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه، فلا بد أن تُرى فيها سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

فهذا المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، ونراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة وللإسلام وأهله ولكنك لاتجني من الشوك إلا العنب.

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى أن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام فهل يؤمن الذئب على الغنم!!(3).

وهذا أبو عبدالله الصغير سلطان غرناطة الأخير يرسل رسالة إلى ملك الإسبان يعتذر فيها عمّا فعله أبو عبدالله الزغل في إحدى المعارك ضد النصارى من قتل وجراح. ولما سقطت مالقة وحول مسجدها الأعظم

الى كنيسة رده الله إلى أصله، أرسل أبو عبدالله الصغير إلى ملك النصارى يهنئه في ذلك، وسبب فرجه بسقوطها أنها كانت معقلاً لمنافسه عمه الزغل.

---

(1) اخرجه أحمد في مسنده (286/4).

(2) البخاري مع الفتح ، كتاب الرقائق رقم 6501.

(3) سقوط الأندلس ص 24.

وعلى يد هذا الصغير قدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب، دون أن يجد النصارى في ذلك عناءً يذكر!:

وهل شكر النصارى لهذا، المتخاذل خذلانه لقد طرده من الأندلس إلى المغرب وفي ذلك يقول المقرئ - رحمه الله - : (ثم ارتحل السلطان أبو عبدالله إلى مدينة فاس - حرسها الله - ومازال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السُّؤال، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز المنزل ، المانح المانع لا إله إلا هو) (1).

6- التخاذل عن نصره من يحتاج إلى نصره:

لقد كانت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلّمه) (2).

وقوله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" (3).

لقد تخاذل ملوك الشمال الإفريقي عن نصره ماتبقى من الإسلام والمسلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم، وانشغالهم ببعضهم وانهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفد منها إلا أعداء الإسلام.

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخاذلون عن نصره من يستحق النصره وإليك ماحدث في طليطلة.

قال د. عبدالرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف:

---

(1) انظر: سقوط الأندلس (67،68).

(2) البخاري مع الفتح ، كتاب المظالم ، رقم 2442 (116/5).

(3) المصدر السابق ، كتاب المظالم ، رقم 2446، (117/5).

(قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفتس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في

محتنها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحموها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لاهمّ له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليترع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد<sup>(1)</sup>.

وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية في الفترة الزمنية بين عامي 627-655هـ، كان وكانت فترة سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس في أقل من ثلاثين عاماً تنقلب خارطة الأندلس، ويتمكن منها عبّاد الصليب، وتصبح معظم الأندلس أرض نصرانية تحارب الإسلام بكل ماتملك من أجل سحقه ومحيه من الوجود.

يقول المقري في نوح الطيب واصفاً استعداد النصارى لإحدى المعارك: "وجاء الطاغية دون بطئ في الجيش لايحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً، وذهب طليطلة، ودخل على مرجعهم البابا، وسجد له وتضرع، وطلب منه استئصال مابقي من المسلمين في الأندلس، وأكد عزمه على ذلك"<sup>(2)</sup>.

ويقول جوستاف لويون في (حضارة العرب) إن الراهب بليداً أبدى ارتياحه لقتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من 140 ألف مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية<sup>(3)</sup>. وكانت نتيجة تخاذل المسلمين واستماتة النصارى كما قال الشاعر:

---

(1) انظر: التاريخ الاندلسي ص332.

(2) نوح الطيب (1/450،449) نقلاً عن سقوط الاندلس ص45.

(3) انظر: عوامل النصر والهزيمة ص121.

كم جامع فيها أعيد كنيسته  
فأهلك عليه أسى ولا تتجدد  
أسفاً عليها أفقرت صلواتها  
من قانتين وراكعين وسجد  
كم من أسير عندهم وأسيرة  
فكلاهما يبغي الفداء فما فدى  
كم من عقيلة معشرٍ معقولةٍ  
فيهم تود لو أنها في ملحد  
كم من تقيٍ بالسلاسل موثق

يبكى لآخر في الكبول مقيد  
ضجت ملائكة السماء لحالهم  
وبكى لهم من قلبه كالجمد  
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا  
مما دهانا من ردى أو من ردى (1)  
أفلا تراعون الأذمة بيننا  
من حرمة ومحبة وتودد  
أكذا يعيث الروم في اخوانكم  
وسيوفكم للنار تتقلد  
ياحسرتي لحمية الإسلام قد  
خدمت وكانت قبل ذلك توقد (2)

(1) انظر: سقوط الاندلس ص46.

(2) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (63/3).

7- غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عبّاد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم (1).

قال تعالى: [ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون] (2).

لقد سطر النصارى في الأندلس تاريخ ملئ بالدماء وهتك الأعراض وقتل النفوس وسبي النساء.

قال تعالى: [لا يرقبون في مؤمن إلا ولاذمة وأولئك هم المعتدون] (3).

وقال تعالى: [ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم] (4).

لقد استمات النصارى في حروبهم للمسلمين فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

ولقد استطاعوا أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرناندو ملك

قشتالة واستطاعوا أن يوحدوا كلمتهم وأن يجعلوا صفهم متراساً في مواجهة أمة الإسلام وإزالتها من الأندلس.

---

(1) سقوط الأندلس ص 40.

(2) سورة المائدة : الآية 14.

(3) سورة التوبة: الآية 10.

(4) سورة البقرة: الآية 120.

8- إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لاشك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس بزوال الخلافة الأموية ونشأ على اثر ذلك عهد السنوات الصعاب كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحد وأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس

أسماء معتمد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد<sup>(1)</sup>

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، وسمع الى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: (والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصرارى فيمكنوهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه..)<sup>(2)</sup>.

فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة، أصبحت أسر الطوائف سبعة وعشرين طائفة أو إمارة أو دويلة تتنافس فيما بينها يقول د. عبدالرحمن الحجى عن هؤلاء الحكام "وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء، اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم مصالح الأمة، وتركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السُّلطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيَعوا من الحظ الخُلقي المسلم، انحرف هؤلاء المسؤولون على النهج الحنيف الذي به كانت الأندلس وحضارته"<sup>(3)</sup>.

---

(1) سقوط الأندلس ص 31.

(2) مجموع رسائل ابن حزم (176/3).

(3) التاريخ الأندلسي ص 325.

9- عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه

المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي: (فرغ صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون ولكنه لم يصادف أسماعاً واعية، لانه نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال دائرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في الباطن يستجل نزعته ويستقل طلعه وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمرهم وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالاً تثوب، ومذنباً يتوب"<sup>(1)</sup>).

إلا أن هناك بعض العلماء تخلوا عن واجبهم المقدس وقدموا مصالحهم الذاتية على مصالح الأمة ودخلوا في معارك فرعية وبالغوا فيها فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، انصرف عدد من العلماء الى العناية المبالغة<sup>(2)</sup> بالفقه المذهبي وفروعه ونسوا وتتاسوا واقع الأمة وآلامها" وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم - رحمه الله - : "ولا يغرنك الفساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم"<sup>(3)</sup>.

10- الرضا بالخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم:

"في عام 643هـ تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه \_\_\_\_\_

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني ص 96، 95.

(2) سقوط الأندلس ص 35.

(3) مجموع رسائل ابن حزم (173/3).

باسم ملك قشتالة وفي طاعته، وأن يوئى له جزية سنوية، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه!! فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة باعتباره من الأمراء التابعين للعرش، وسلّم ابن الأحمر جيّان، وأرجونة، وبركونة، وبيغ، والحجاز وقلعة جابر للنصارى"<sup>(1)</sup>.

ولما حاصر النصارى إشبيلية في جمادي الأولى عام 645هـ ، قدّم ابن الأحمر قوة من الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها. وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد في الدفاع عن إشبيلية، وطال الحصار زهاء ثمانية عشر شهراً اضطروا إلى الخضوع والتسليم مقابل أن ينجوا بأنفسهم وأموالهم وفي أوائل رمضان 646هـ دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية، وفي الحال حوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة وأزيلت معالم الإسلام منها بسرعة<sup>(2)</sup>. ونتيجة لتصرفات هؤلاء الولاة هاجر كثير من أهل الأندلس المسلمين إلى بلاد المغرب فراراً بدينهم وأرواحهم، مع أن بلادهم يحكمها المسلمون، حتى قال شاعر الأندلس ابن الصلصال:

حشوا رواحلكم يا أهل أندلس  
فيما المقام بها إلا من الغلط  
السلك يُنشر من أطرافه وأرى  
سلك الجزيرة منثوراً من الوسط  
من جاور الشر لا يأمن عواقبه  
كيف النجاة مع الحيات في سفت(3)

(1) نهاية الاندلس ص43 نقلاً عن سقوط الاندلس ص22.

(2) انظر: سقوط الاندلس ص22.

(3) نوح الطيب (352/4) نقلاً عن سقوط الاندلس ص49.

11- سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات:

وظهرت ظواهر متعددة تدل على سوء السياسة في الأندلس، منها تولية صغار السن الولاية وبعضهم لم يبلغوا الحادية عشرة ومنها الاستئثار بالأمر وترك الشورى، ومنها تخوين الأيمن، وتأمين الخؤون، ومنها ظهور الظلم والعسف والجور وتمثل ذلك في صور عدة منها، إرهاق الأمة بالضرائب والجبايات والإتاوات والمكوس ما أنزل الله بها من سلطان.

يقول الدكتور الحجي: (ساعات أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم، وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعتها القادر إرضاءً لأنانيته ورغبة في البقاء بمركزه، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس، وتحت حماية عدو متريص وخصم غادر<sup>(1)</sup>). وترتب على هذه السياسات الظالمة والمظاهر المنحرفة، والمظالم المتعدية، والجور المنتشر اضطرابات، وفتن وصراعات كثيرة، فمثلاً مملكة غرناطة حكمت بين عام 635هـ وعام 893هـ من قبل تسعة وعشرين حاكماً، حتى إن بعضهم لم يستمر في الحكم أكثر من عدة أشهر وبعضهم سنة أو سنتين. لقد كان تقديم المصالح الشخصية مقدم عند كثير من الولاة على مصالح المسلمين ولذلك غلبة الأنانية وحب الذات والزعامة على كثير من المبادئ والمثل والقيم<sup>(2)</sup>.

12- الثورات الداخلية في الأندلس: وكانت لها أسباب متعددة منها ظلم

(1) التاريخ الاندلسي ص368.

(2) انظر: سقوط الاندلس ص51.

الولاة، ومنها قيام بعض النصارى الذين أخفوا مسيحياتهم وأظهروا الإسلام، فاستطاعوا أن يتصلوا بممالك

النصارى ويقوموا بدور تخريبي واستخباراتي ضد دولة الإسلام في الأندلس وظهرت ثورات عديدة في الأندلس تتادي وتطالب بالإستقلال الذاتي ومن أشهر هذه الثورات تلك التي قادها عمر بن حفصون والذي استطاع أن يعزل قرطبة عن سائر المناطق الأخرى ثم اتصل بالعباسيين في العراق والأغالبية في إفريقيا ولما يئس من الوصول إلى أهدافه أظهر ما كان يبطنه من النصرانية عام 899م واتخذ اسم صموئيل وهو اسم في المعمودية وعلن عدائه للإسلام والمسلمين وقاتلهم بكل كره وعنف وحقد حتى كاد أن يسقط عاصمة الأمويين إلى أن جاء الخليفة الأموي عبدالرحمن الثالث - الناصر وكان شجاعاً حازماً، فواصل الفتوحات وطالت مدته في الحكم "نصف قرن"، فكانت أول مدينة استسلمت له استجه ثم لحقت بها مدينة البيرة كذلك استسلمت مدينة جيان وقبلت "ارخدونة" ان تدفع الجزية، ورضخت اشبيلية لقوات عبدالرحمن في 913م وأخضع "ريه" التي كانت ملاذاً لعاصمة ابن حفصون الذي قاد حركة عدائية ضد الإسلام في الأندلس 37 عاماً، وحاصر طليطلة سنة 932م واستسلمت له، وكان الأعداء يتربصون بالإسلام في الأندلس، فملوك النصارى في الشمال لا يكلون ولا يملون في زرع الجواسيس وتفجير الثورات ودعم المنشقين من أجل القضاء على الإسلام، والدولة العبيدية الرافضية في إفريقيا تحالفت مع ابن حفصون النصراني المرتد ضد مسلمي الأندلس، وأرسلت الدعاة وأسوا حزباً عبيدياً رافضياً في الأندلس وتستروا بالطرق الصوفية وقاومهم عبدالرحمن الثالث واستطاع أن يقضي على معظم مخططات الأعداء الهادفة للقضاء على الإسلام في الأندلس، وكان بوسع عبدالرحمن أن يقضي على ممالك النصارى في الأندلس ولكن الله في خلقه شؤون (1).

لقد كانت الشبكات التخريبية الاستخباراتية التي فجرت الثورات وتستررت بالإسلام من الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الأندلس الإسلامية وزوال الإسلام منها.

ولقد اكتشف مخابرات دولة المرابطين تلك اللعبة المزدوجة التي كان يقوم بها بعض الخونة المندسين بين المسلمين والذين يتجسسون على حكام الإسلام في الأندلس والمغرب لصالح ملوك النصارى، فاستفتى السلطان يوسف بن تاشفين بشأنهم الفقهاء فأفتوا بوجوب هدم الكنيسة القوطية في غرناطة التي كان بؤرة الفساد والتجسس على الدولة المرابطية السنية وواصل ابنه الأمير علي بن يوسف متابعة الأعمال التخريبية، فألقى القبض بعد ثبوت التهم على عملاء النصارى فأعمل في بعضهم السيف ونفى من تبقى منهم إلى المغرب، لقد اثبتت التحقيقات انهم كانوا يتجسسون لصالح ملك النصارى القشتالي وغيرهم من ملوك القوط ولم تعطي مخابرات دولة المرابطين ادنى فرصة لهؤلاء المندسين (2).

**ثامناً: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمي الأندلس :**

إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة \_\_\_\_\_

(1) انظر: ابن عذاري (47/1) نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (262/3 الى 267).

(2) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (346/3). لقد نقلت من الكتب الآتية في تحليل أسباب سقوط الاندلس، سقوط الاندلس، ناصر العمري، مصرع غرناطة، شوقي ابوخليل، عوامل النصر والهزيمة، شوقي ابوخليل، السنن الالهية، د. عبدالكريم زيدان، التاريخ الاندلسي، د. عبدالرحمن الحجي وغيرها من الكتب.

1- وذنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

2- وإن الفتن تظل تترى وتتوالى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم.

3- قال تعالى: [ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذاب أليم ] (1).

4- لقد كان في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاب بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي على قلبه وأصبح في ذنك من العيش [ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ذنكاً] (طه:24) .

أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبدل وفقد الاحساس بالذات ومات ضميرها الروحي فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهى عن منكر تنهى عنه وأصابهم ما أصاب بنو إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال تعالى: [لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون] (2) فإن أي أمة لاتعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل. قال رسول الله صلى الله عليه \_\_\_\_\_

(1) سورة النور: الآية 63.

(2) سورة المائدة: الآيات 78-79.

وسلم: (كلا والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتنقصرنه على الحق قصراً أو ليضرين الله على قلوب بعضكم ببعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم) (1).

3- أن ملوك الأندلس تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على احكام الله: [ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...] (2).

كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذلل وتهان حتى تقوم امام من خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم .  
إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله وفرط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانعكس ذلك في حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من اتباعهم إلا ما رحم الله وتركوا الحق وانقادوا للضلال وابتلوا بالنفاق وفضحهم الله بذلك وحرمو التوفيق والرجوع للصواب وخف دينهم وضعف إيمانهم، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله.

4- لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض وتعطلت أحكام الله فيما بينهم ونشبت حروب وفتن وبلايا \_\_\_\_\_

(1) ابو داود ، كتاب الملاحم باب الأمر بالمعروف رقم 4670.

(2) سورة الرعد ، الآية 11.

تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزول عنهم حتى بعد زوالهم.

5- وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم سهلت مهمة النصارى في الأندلس فأصبحت شوكتهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس وحرمو من التمكين وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم وبعض المدن تبثلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم وكم قتل النصارى من المسلمين وكم سبوا من نساءهم.

6- ان الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقال الأرض وضياع الملك، وتسلب الكفار وتوالي المصائب.

7- أن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ إنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لا يعرفونه ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الأندلس وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا اخوانهم في الدين في زمن المرابطين والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم ثم خلص الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمرء عادلين منقادين لشريعة رب العالمين.

8- إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

● معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.

● كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحبة الأقباء والاسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله واستعمالها في غير مايرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وامرائهم واتقنوه اتقاناً عجيباً.  
يقول الشاعر البسطي الأندلسي :

هذا جزاء مخالف مثلي أبي

تقوى الإله ودان بالعصيان

وقال المرابط كاتب ابن الأحمر:

سوّدت وجهك بالمعاصي فالتمس

وجهاً للقاء الله غير مسود

من ذا يتوب لربه من ذنبه

أو يقتدي بنبيه أو يهتدي (1)

وكان من إجابة المتوكل بن الأفطس لأوفونس ملك النصارى:

"أما تعبيرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب أذقناك" (2).

---

(1) انظر: سقوط الاندلس ص 61.

(2) التاريخ الأندلسي ، د. عبدالرحمن الحجي ، ص 337 نقلاً عن الحلل الموشية في ذكر الأخبار المركشية ص 20-23 كذلك الطوائف ، محمد عبدالله غسان ، ص 90-91.

## المبحث الثاني

### أولاً: دولة بني مرين في المغرب الأقصى

استطاعت قبيلة بني مرين أن تسقط دولة الموحدين عام 668هـ/1269م وهم يتفرعون من قبائل (زناتة) ، مثل (مَغراوة) وبني (يفرن) ، وكانت مضاربيهم في الصحراء الكبرى وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقوى وبسلامة العقيدة والابتعاد عن الأفكار التومنترية المنحرفة ومن أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى الدولة.

#### أولاً- عبدالحق بن محبو المريني

كان عبدالحق أول من تزعم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية، وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بني مرين، وكان قد اشتهر بالورع والتقوى، وبسلامة العقيدة والابتعاد عن البدع، والأفكار الغريبة، والتزم بالمذهب المالكي في سيرته<sup>(1)</sup> وقد مات عبدالحق عام سنة 614هـ، فخلفه بعده أبنائه الأربعة: أبو سعيد عثمان، مات سنة (642هـ)، وأبو بكر عبدالحق، مات سنة (656هـ)، ويعقوب ابن عبدالحق، وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحدين وصار أمير المغرب سنة 668هـ (1269م) وقد تكلمت عن سيرته الجهادية في الأندلس<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (55/3).

(2) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (200/2).

#### ثانياً- المنهج الذي قامت عليه الدولة:

لاستطيع اي حركة في المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية بدون رفع شعارات الإسلام ولذلك من الطبيعي أن تستند دولة بني مرين إلى كونهم حماة الإسلام والمسلمين وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة في وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الخطر النصراني على دولة الإسلام هناك إلا أن صدامهم مع الموحدين وانتصاراتهم المتتالية اقنعت بعض المؤرخين<sup>(1)</sup> ان حركة المرينيين ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية وبأنهم لم يكن لهم مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحدين وكانت شعاراتهم المرفوعة في حركتهم الانفصالية،

العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية، ومن هنا كسبوا محبة الناس إلا إن إقدام زعماء بني مرين على قتال الموحيدين يدل على قناعتهم الراسخة بأن الموحيدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب، سواء من المنظور الشرعي أو السياسي.

واتخذ زعماء بني مرين أسلوباً عسكرياً وسياسياً للوصول إلى الحكم واسقاط الموحيدين، حيث خاضوا معارك ضارية مع الموحيدين وحققوا انتصارات كبيرة عليهم، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوباً سياسياً بارعاً، تمثل في الاعتراف بالخلافة الحفصية في تونس وطلب العون منهم وبذلك حققوا مكاسب متعددة، منها وقف خطر بني زيان القادم من الجزائر نحوهم، وتضعيف التحالف بين بني زيان ودولة الموحيدين بإدخال طرف قوي في النزاع<sup>(2)</sup> وقام بنو حفص بمساعدة بني مرين وتدمير

---

(1) من امثال عبدالفتاح الغنيمي ، والدكتور احمد مختار العبادي.

(2) انظر: موسوعة المغرب العربي (207/3).

تحالف بني زيان مع الموحيدين والاستيلاء على تلمسان عاصمة بني زيان عام 640هـ /1243م. ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبني حفص<sup>(1)</sup>.

وعندما وصل السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للحكم استقل بالإمارة والسلطنة وانفصل عن الحفصيين .

وقام ابو يوسف باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم واستطاع في فترة قصيرة ان يحقق نجاحات واسعة ، فاستطاع أن يضبط الأمن ، ويرعى مصالح العباد ، وعمل على توحيد المغرب الأقصى وضم كافة المدن التي كانت منفصلة عن دولة الموحيدين .

ووضع خطوطاً دفاعية ضد الخطر الزياني القادم من الشرق ، واستطاع أن ينظم القبائل العربية ويستخدمها في محاربة الأقاليم المنفصلة عن الدولة واستطاع أن يضم سبتة وطنجة تحت حكمه وبذلك ضمن مفتاح العبور للأندلس وضم إقليم سلجماسة للدولة في صفر 673هـ/1274م ، وبذلك أصبحت كل أراضي المغرب الأقصى تحت نفوذ الدولة المرينية ، وأصبحت فاس عاصمة للدولة المرينية الجديدة . وفي عام 674هـ / 1275م أمر السلطان المريني ببناء عاصمة جديدة وسميت البيضاء وأصبحت فاس القديمة مركزاً للتجارة والعلم<sup>(2)</sup> .

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (207/3).

(2) انظر: المصدر السابق (221/3، 220، 219).

### ثالثاً - حركة التوحيد للشمال الأفريقي :

حاولت دولة بني مرين أن توحد الشمال الأفريقي تحت نفوذها ودخلت في معارك عنيفة مع بني عبدالوادم والحفصيين في المغرب الأوسط والأدنى .

واسـتطاع المرينيون فـي عـصر أبي الحسن المريني (1331/731-752هـ/1351م) وولده أبي عنان فارس (1351/752- ) أن يوحدوا الشمال الأفريقي بالقوة وعادت وحدة الشمال الأفريقي لمدة قصيرة وأزال السلطان أبو الحسن بني زيان عن تلمسان في سنة 1337/737م ثم أحسن إليهم وفرض لهم العطاء وتوقف عن التوسع لانشغاله بالجهاد في الأندلس وعاد حركة التوسع في الشمال الأفريقي بعد هزيمته أمام النصارى في الأندلس ودخل تونس في عام 1347هـ/748م ، لتمتد مملكته من مسراته في ليبيا إلى السوس الأقصى وإلى رندة من عدوة الأندلس . لم يتألف أبو الحسن الحفصيين والقبائل العربية بالمال والإحسان إليها ، ففجروا ثوراتهم ضده واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان .

وفي هذه الأثناء خرج عليه ولده أبو عنان وطلب الزعامة لنفسه واضطر أبو الحسن أن يتخلى عن السلطة في سنة 1351/752 ، ثم مات بعد شهر .

واصل أبو عنان حركة التوحيد لأقطار الشمال الأفريقي وأزال دولة بني زيان سنة 1352هـ/753م وتابع سيره إلى أفريقية ودخل تونس في سنة 1357هـ/758م إلا أن انفجار الثورات على مستوى المغرب كله خصوصاً في فاس وطمع بعض اقربائه في السلطة جعله ، يعود إلى عاصمته ، فوفاه الأجل في العام التالي (1).

(1) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، د.عبادة كحيلة ص141.

وبوفاة أبي عنان انتهت المحاولت المرينية من اجل توحيد الشمال الافريقي وتقلص النفوذ المريني في المغربيين الأوسط والأدنى ثم زال النفوذ المريني من جهة الشرق فلم يحاول السلاطين الذين من بعده أن يقوموا بأية غزوة في الأقاليم .

وبدأ التدهور في الدولة المرينية بعد وفاة بي عنان بسبب تسلم أمرها سلاطين ضعاف ففقدوا المغربيين

الأدنى والأوسط ، كما استولى البرتغاليون على مدينة سبته سنة 818هـ/1415م ، فكان هذا بداية لانتهيار دولة بني مرين، ثم استولى البرتغاليون على جزء كبير من ساحل المغرب واحتلوا طنجة سنة 869هـ/1464م واقتصرت الدولة المرينية على فاس (1).

واضطربت أحوال الدولة بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس وتسلط على الأمور رجال لا هم لهم إلا مصالحهم الشخصية وفي عهد آخر سلاطين بن مرين عبدالحق بن أبي سعيد بن أبي العباس (823-869هـ/1320-1465م) قرب اليهود من مقاليد الحكم وتسلطوا على رقاب الأهالي ، فانفجرت الثورة التي عمت احياء فاس كلها واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبدالله محمد بن علي الادريسي نقيب الاشراف بفاس في رمضان (869هـ / 1465م) وبذلك انتهت دولة بني مرين (2).

#### رابعاً: أسباب سقوط دولة بني مرين:

- 1- دسائس ملوك الاسبان ضدها ، وتحالف زعماء غرناطة معهم ضد دولة \_\_\_\_\_  
(1) تاريخ المغرب والاندلس من القرن السادس الى القرن العاشر ص142.  
(2) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/337،336).
- بني مرين ساهم في اضعافهم وتقويض دولتهم، ودخول حكام غرناطة في تحالفات مع بني عبدالوادم والحفصيين ضد بني مرين ضيق الخناق على دولة بني مرين.
- 2- دخول بني مرين في صراع عنيف مع دويلات ، المغرب الأوسط والأدنى ، كلفها الاموال والرجال والعتاد والأوقات ، وكان قتال بني العقيدة الواحدة والدين الواحد مما ساهم في اضعاف الشمال الأفريقي كله والتعجيل بسقوط دولة بني مرين .
- 3- ضعف الامراء والسلاطين في آخر عهد الدولة مما ساهم في اضعافها وتسلط الوزراء وزعماء العرب في شؤونها، وتنازعت الاهواء والمصالح، فتولدت انفجارات داخلية ونزاع بين الابناء والآباء والأعمام عجل بسقوط الدولة .
- 4- المخاطر الخارجية والمكايد العالمية من قبل النصارى والذين شنوا حرباً على هذه الدولة التي شكلت خطراً على حركة الاسترداد في الاندلس ، ولذلك هاجم البرتغاليون بني مرين واحتلوا سبته عام 818هـ / 1415م ، فكان ذلك الاحتلال بداية الانتهيار (1) .
- 5- تولي اليهود مناصب في دولة بني مرين ومارس اليهود الظلم والجور على أهالي المغرب ، فكان ذلك سبب في قيام الشعب بثورة ضد دولة بني مرين وازالتها من الوجود .

6- أجل الله في هذه الدولة ، لأن الدول لها آجال لا تتعدها .  
وغير ذلك من الأسباب.

(1) تاريخ المغرب والاندلس في القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن العاشر المجموعة  
من الباحثين ص142.

### خامساً: الدولة الوطاسية :

ترجع الدولة الوطاسية في نسبتها إلى بني وطاس وهم فرع من بني مرين وكانوا أصحاب نفوذ وسلطان  
وشوكة في الدولة المرينية وأنزل بهم السلطان عبدالحق آخر سلطان الدولة المرينية نكبة عظيمة ونكل بهم  
أشد تنكيل واستطاع محمد الشيخ أن يفلت من تلك التصفية الجسدية التي نزلت بقومه .

وبعد أن تولى حكم المغرب الشريف محمد بن علي الأدريسي في عام 868هـ ، استطاع محمد الشيخ أن  
يجهز جيشاً لنزع السلطة والحكم من الأدريسي ودخل في حروب طاحنة واحتل فاس عام 877هـ / 1472م  
وكلفه ذلك ضياع مدينة أصيلا من يده حيث استغل البرتغاليون الحرب الأهلية القائمة في المغرب وانصراف  
أمير أصيلا لمحاصرة فاس ، فأرسلوا 477 سفينة محملة بـ (30 ألف مقاتل) في زمن ملك البرتغال الفونس  
الخامس ووقعت أسرة الشيخ الوطاسي في الأسر ، فاضطر للمفاوضة معهم وترتب عن تلك المفاوضات  
تنازل الوطاسيون عن أراضي من المغرب واحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا ، وأطلق سراح  
ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته(1).

وكانت الفتن في المغرب على أشدها عندما تولى الحكم محمد الشيخ واستطاع البرتغاليون النصارى أن  
يتوسعوا للإستيلاء على موانئ المغرب مثل سبتة وطنجة وأصيلا ، وتوغلت سراياهم وبعوئهم في الأطراف  
المجاورة التي احتلوها وكان سقوط غرناطة في فترة الوطاسيين (1492م) وقدم أهالي الأندلس في هجرات  
عظيمة نحوالمغرب ، واستمر النفوذ الأسباني والبرتغالي

(1) انظر: موسوعة المغرب (3/23، 24).

في التوسع وبناء الحصون والقلاع والمراكز والنقاط الاستراتيجية التي امتدت على سواحل المحيط الأطلسي  
والبحر المتوسط وكانت هذه الموانئ والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والاساطيل البحرية البرتغالية  
والاسبانية في طريقها إلى الهند والشرق الأقصى ، كما كانت هذه المراكز نقاطا للتوسع إلى المناطق الداخلية  
ببلاد المغرب ، وامتد نفوذ هذه المراكز إلى زعماء بعض القبائل والأهالي الذين تعاملوا معهم ووجدوا  
مصالحهم الذاتية في الخضوع لهم.

وقامت امارات عديدة في المغرب الأقصى حملت على كاهلها مقاومة النفوذ الأجنبي في البلاد .  
وظهرت قيادة السعديين كقوة حيوية ، لكنها رفعت لواء الجهاد ، ودعت إلى الوحدة المغربية ، وتدرجت في تحقيق أهدافها واستطاعت أن تكسب ودّ الطرق الصوفية وزعماء القبائل ، وتخوض حربا جهادية ضد النصارى الأسبان والبرتغاليين وحرّروا الأراضي المحتلة وبرز الزعيم محمد الشيخ السعدي الهاشمي القرشي في تلك المعارك واستطاع أن يسقط دولة الوطاسيين عام 956هـ.  
الا أن أبا حسون الوطاسي الذي فرّ من السعديين استطاع أن يتحالف مع العثمانيين ويهزم السعديين في فاس عام 961هـ. واعاد زعيم السعديين الكرة من جديد واسقط الدولة الوطاسية في نفس العام 961 هـ (1).

### سادساً: أسباب سقوط الدولة الوطاسية :

- 1- دخولهم في معاهدات مع النصارى المحتلين من الأسبان والبرتغاليين \_\_\_\_\_  
(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (53/3).  
من اجل مصالحهم وسلطتهم ونفوذهم .
- 2- عجزهم عن الوقوف بجانب المسلمين الأندلس والدفاع عنهم وحمايتهم .
- 3- ظهور الحركة الجهادية التي جعلت أهداف الشعب المغربي في أولوياتها . وقد تزعم تلك الحركة السعديون .
- 4- الضعف الاقتصادي الذي أصب الدولة بسبب استيلاء النصارى على الحركة التجارية في الموانئ .
- 5- التفكك السياسي بسبب الحروب الداخلية الطاحنة ، بين المغاربة .

### سابعاً: السعديون :

يرجع أصل السعديين من الجزيرة العربية ويرجعون في نسبهم إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه (1) ويرى الأستاذ محمود شيت خطاب أن الدولة السعدية هي الدولة العلوية الثانية في المغرب بقطع النظر عما أرفج بها خُصومها من الطعن في نسبها (2). وهي لم تعتمد في قيامها إلى (مهدوية) كاذبة ، أو عصبية قوية .

وأما تسميتهم بالسعديين ، يرى الأستاذ شوقي أبوخليل أنها لم تكن لهم في القديم ولم تظهر في سجلاتهم ورسائلهم ، بل لم يجترئ أحد على مواجهتهم بهذه التسمية ، لانهم انما يصفهم بها من يقدح في نسبهم ، ويطعن في شرفهم ، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليلة السعدية ظئر (3)

---

(1) انظر: وادي المخازن لشوقي ابي خليل ص31.

(2) قادة فتح بلاد المغرب (202/2).

(3) ضئُر : المرزعة والعاطفة على غير ولدها.

رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكثير من العامة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك أن الناس سعدوا بهم<sup>(1)</sup> ثم استدل بقول أبي العباس الناصري السلاوي: "وإنما نصفهم نحن بذلك لانهم اشتهروا عن الخاصة والعامة ، فصار كالعالم الصريف المرتجل ، مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف"<sup>(2)</sup>. أما صاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبدالفتاح الغنيمي فقد ذكر نسب محمد القائم السعدي مؤسس الاسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الاسلامي فقال: هو محمد بن عبدالرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبدالله بن أبي عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن اسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبدالله الكامل بن حسن المثني بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم<sup>(3)</sup>.

كانت بواعث الإلتفاف حول الزعامة السعدية تتمثل في حب المغاربة للجهاد ودرح المعتدين ولذلك بحثت قبائل المغاربة عن شخص يقودهم في حركة الجهاد ضد المحتلين النصارى من الاسبان والبرتغال ، فارشدوا إلى الشريف ابي عبدالله محمد القائم بأمر الله وكان مقيما في درعة فأرسلوا إليه فجاء إليهم، واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وباعوه ، فكان هو واضع النواة الأولى للدولة السعدية ، وشرع في حركة الجهاد ووقفه الله في معارك ضارية وحقق انتصارات رائعة على النصارى ، وزحزح اقدام الغزاة النصارى من

---

(1) انظر: وادي المجازن لشوقي ابي خليل ص32.

(2) المصدر السابق ص32 نقلاً عن الاستقصاء (6/5).

(3) انظر: موسوعة المغرب العربي (114،115/3).

اراضي المغرب ، واصاب هيبتهم ، فتيمن المسلمون بقيادته، وتفاعلوا بانتصاراته الرائعة ، وظل في جهاده المبارك إلى أن توفاه الله سنة 923هـ ، وخلف ولدين ، وكان أبو العباس أحمد الأعراج اكبرهم ، فباعه الناس بعد والده ، وحارب البرتغاليين وانتصر عليهم ، وفي سنة (930هـ) دخل مراكش وجعلها عاصمة السعديين . وفي سنة (940هـ) اتفق مع الوطاسيين على اقتسام المغرب على ان يكون نصيب الاشراف السعديين من (تأدله)<sup>(1)</sup> إلى (السوس) ، وللوطاسيين من (تأدلة) إلى المغرب الأوسط .

وانتزع أبو عبدالله محمد الشيخ الأخ الاصغر الملك من أخيه وألقى القبض عليه واستطاع أن يقبض على الوطاسيين سنة (961هـ) ودخل مدينة فاس فصفا له ملك المغرب ، ولكنه قتل سنة (964هـ) وتولى زمام الأمور من بعده ابنه عبدالله الغالب ، فحارب الأتراك والبرتغاليين وتوفي سنة (981هـ)<sup>(2)</sup> فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل وكان فظا غليظا مستتبدا ظالما ، قتل اثنين من اخوته عند وصوله إلى الحكم ، وأمر بسجن آخر ، فكرهته الرعية<sup>(3)</sup> وصفه السلاوي بقوله: (وكان السلطان المذكور فقيها أديبا مشاركا مجيدا قوي العارضة في النظم والنثر ، وكان مع ذلك متكبر تياها غير مبال بأحد ، ولا متوقف في الدماء ، عسوقا على الرعية ، ومن شعره قوله :

فَقُمُ بِنَا نَصْطَبِحْ صَهْبَاءَ صَافِيَةً

فِي وَجْهَهَا عَسَجْدٌ فِي وَجْهه نَقْطُ

(1) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (204/2).

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر : وادي المخازن ص 23.

وانهض إليها على رغم العدا قلقاً

فإن تأخير أوقات الصبا غلط

ومن شعره أيضاً:

ساروا فسار فؤادي إثر ظعنهم

وحلّفوني نحيل الجسم حيرانا

لا افتّر نعر الثرى من بعد بينهم

ولا سقى هاطلّ ورداً وريحاناً<sup>(1)</sup>

إلا إن هذا المتعجرف السفاك للدماء لم يهنأ بملكه حيث استطاع عمه أبو مروان عبدالملك، وأبو العباس أحمد أن يتحالفوا مع الأتراك في الجزائر، وسافر أبو مروان عبدالملك إلى عاصمة الخلافة العثمانية وطلب من السلطان سليم نجده ومعونته إلا أن السلطان العثماني انشغل بتخليص تونس من يد الإسبان، فجهز قوات عثمانية بقيادة سنان باشا واستطاعت أن تحرر تونس من الإحتلال النصراني الإسباني وكان أبو مروان عبدالملك في تلك الحملة وأبلى فيها بلاء حسناً، ثم كان هو أول من أبلغ بشارة الفتح إلى السلطان، فجازاه على ذلك بأن أمر صاحب الجزائر بمده بالجنود والعتاد حتى يرجع إليه حقه المغصوب في الحكم<sup>(2)</sup>.

وما أن وصل جيش عبدالملك المدعوم من قبل الخلافة العثمانية فاس حتى خرج إليه ابن أخيه محمد

المتوكل على الله واستطاع عبدالملك أن يستميل القوَّاد والوزراء فانقادوا إليه جميعاً وباع أهل المغرب عبدالملك بن محمد الشيخ سنة (983).

(1) الاستقصاء (58/5) نقلاً عن وادي المخازن ص34.

(2) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (204/2).

### **ثامناً : من إصلاحات عبدالملك وأعماله :**

- 1- أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامّة.
- 2- اهتم بالتجارة البحرية، وكان للأموال التي غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان الإقتصادي للدولة.
- 3- أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجنديّة العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب.
- 4- استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.
- 5- فرض احترامه على أهل عصره، حتى الأوربيين، احترموه وأجلّوه. قال الشاعر الفرنسي أكبريا دو بيني المعاصر لأحداث هذه الفترة: "كان عبدالملك جميل الوجه، بل أجمل قومه، وكان فكره نيّراً بطبيعته، وكان يحسن اللّغات الإسبانية والإيطالية والأرمنية والرّوسية، وكان شاعراً مجيداً في اللّغة العربيّة، وباختصار، فإنّ معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنّسبة لنبييل، فأحرى لملك"<sup>(1)</sup>.
- 6- اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمر الدولة الداخليّة، وأحوال السكّان عامّة، وعلى اطلاع ودراية بالسياسة الدّولية، وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربيّة وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الإيمن في كل شؤون الدولة<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: وادي المخازن ص37.

(2) المصدر السابق ص39،40.

### **تاسعاً: معركة وادي المخازن :**

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبدالملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ: 30 جمادي الثانية 986هـ الموافق: 4 آب (أغسطس) 1578م.

ولقد كان لتلك المعركة أسباب من أهمها:

1- أراد البرتغاليون أن يمحوا عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم ينسحبون من أسفى وأزمور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث أب (1521-1557م).

2- أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان ابن يوحنا أن يخوض حرباً مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوربا، وزاد غروره بعد ماحققه البرتغاليون من اكتشافات جغرافية جديدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي يدفعه في ذلك حقه على الإسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً، لقد جمع ذلك الملك البرتغالي بين الحقد الصليبي والعقلية الإستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة، في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أخرى، خطط لغزو واحتلال المغرب<sup>(1)</sup>.

وشجع ملك البرتغال مجئ المتوكل (المخلوع) وطلبه للعون من النصارى الوقوف معه من أجل إسترداد ملكه والقضاء على عمّيه \_\_\_\_\_  
(1) انظر: وادي المخازن ص 45،46.

عبدالملك المعتصم بالله، وأحمد المنصور، مقابل أن يتنازل له على موائى وشواطئ المغرب "فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل، وله ما وراء ذلك"<sup>(1)</sup>.

#### 1- حشود النصارى:

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الإسبان والبرتغاليين والطلّيان والألمان وجهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب<sup>(2)</sup>.  
ووصلت قوات النصارى إلى طنجة واصيلاً في عام 1578.

#### 2- الجيش المغربي:

كانت الصيحة في جنبات المغرب الأقصى: "أن أقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله".  
والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبدالملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المسلوخ أن يخترق هذا التلاحم فكتب إلى أهل المغرب ما استصرخت بالنصارى<sup>(3)</sup> حتى عدت النصر من المسلمين، وقد قال العلماء: إنّه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه"، وتهدّدهم قائلاً: [فإن لم تفعلوا، فأذنوا بحرب من الله ورسوله]<sup>(4)</sup>.

(1) انظر: الاستقصاء (69/5) نقلاً عن وادي المخازن ص46.

(2) انظر: وادي المخازن ص49.

(3) سمي النصرى أهل العدو واستكف عن تسميتهم نصرى.

(4) سورة البقرة ، آية 279 ، انظر: وادي المخازن ص51.

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته، برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها: (الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرّضى عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر، فما نصره، ولا استنصروا به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله.

وبعد، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب.

لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوج والمصاب...

وأما قولك: في النصرى فإنك رجعت إلى أهل العدو واستعظمت أن تسميهم بالنصرى، ففيه المقت الذي لا يخفى، وقولك: رجعت إليهم حين عدت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهم غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصرى والعياذ بالله، والثاني: إنك استعنت بالكفار على المسلمين.. قال عليه الصلاة والسلام: إني لا أستعين بمشرك.. الاستعانة بهم - بالمشركين - على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: لسان العاقل من وراء قلبه.. وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله..

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الإسلامية، والحمية الإيمانية، وتجدد لهم نور الإيمان، وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: لادين إلا دين محمد صلى الله عليه وسلم، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: [وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين..](1).

وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعوّلت على بلوغ الملك بحشودهم، وأنى لك هذا مع قول الله تعالى: [ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون](2). ولما عاين أهل القصر الكبير النصرى

واستبظروا وصول السلطان عبدالملك ارادوا الفرار والتحصن في الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس.

وكتب عبدالملك المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان: (إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العودة، فإن ثبت الى أن تقدم عليك، فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب بن كلب)(3). فليس من الشجاعة، ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن والعزل، ولا ينتظر مقابلة المحاربين وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان وقرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر(4).

وتحركت قوات عبدالملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس ومحاولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

(1) سورة العنكبوت : الآية 110.

(2) الاستقصا (79/5) نقلاً عن وادي المخازن ص53.

(3) انظر: وادي المخازن ص53.

(4) انظر: وادي المخازن ص54.

### 3- قوى الطرفين (البرتغالي النصراني والاسلامي المغربي):

■ الجيش البرتغالي :

125.000، ومايلزمهم من المعدات، والرواية الأوربية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب، فهي تتحدث عن 14.000 راحل، و2000 فارس، و36 مدفعاً، مقابل : 50.000 راجل في الجيش المغربي ، و22.000 1.500 من الرماة ، و20 مدفعاً.

ذكر ابوالقاضي في (المنتقى المقصور: عدد الجيش البرتغالي مئة ألف وخمسة وعشرون ألفاً)(1).

وقال أبو عبدالله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن):

أن مجموعهم كان مئة ألف وعشرين ألفاً، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل(2).

كان مع الجيش البرتغالي: 20.000 إسباني، 3000 ألماني، 7000 إيطالي.... وغيرهم عدد كبير... مع

ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعاً... وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان.

وكان معهم، المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح ما بين : 300-600 رجل على الأكثر(3).

## ■ الجيش المغربي :

وكان جيش المغاربة تعداداه 40.000 مجاهد، يملكون تفوقاً في الخيل —————

(1) انظر: الاستقصا (69/5) نقلاً عن وادي المخازن ص56.

(2) انظر: الاستقصا (69/5) نقلاً عن وادي المخازن ص56.

(3) انظر: وادي المخازن ص56.

ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب:

1- ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من أيديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة ، والخنادق العميقة.

2- التقاف الشعب حول القيادة ، حيث تم التحام بين القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن لئن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الاسلام وفاصلة في تاريخ المغرب وكان الشيخ ابوالمحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات وقاد هذا الشيخ (أبو المحاسن يوسف الفاسي أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاءً حسناً رائعاً وثبت الى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، وتورع أبوالمحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم، وعفَّ عنها، ولم يأخذ منها شيئاً<sup>(1)</sup>).

وأظهر عبدالملك المعتصم بالله عبقرية فذة في المعركة وكذلك أخوه أبوالمعالي أحمد الذهبي.

"لقد حنكت التجارب عبدالملك المعتصم بالله، فعزل عدوّه عن أسطوله بالشاطئ بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة، عندما استدريج سبستيان الى مكان حدده عبدالملك ميداناً للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكماً عندما أمر عبدالملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدهما"<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: وادي المخازن ص58.

(2) المصدر السابق ص62.

لقد جعل عبدالملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوف للرماة المشاة وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماة فرسان والقوى الاسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض في الوقت المناسب وهي في غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين ، واستثمار النصر<sup>(1)</sup>.

كان صباح الاثنين 30 جمادى الآخرة 986هـ/1578م يوماً مشهود في تاريخ المغرب، ويوماً خالداً في تاريخ الاسلام. وقف السلطان عبدالملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه ، مذكراً بوعد الله للصادقين

المجاهدين بالنصر<sup>(2)</sup> [ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز] (الحج ، آية:40).  
[ ومالنصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم] (الانفال، آية :10).  
كما ذكر بوجوب الثبات:

[ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار] (الانفال، آية :15).  
[ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون] (الانفال: آية :45).  
وبضرورة الانتظام:

[ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص] (الصف، آية:4).  
وذكر أيضاً حقيقة لا مرأى فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم \_\_\_\_\_

(1) انظر: وادي المخازن ص.

(2) المصدر السابق ص62.

للاسلام بعدها قائمة.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة<sup>(1)</sup>.

ولم يأل القسس والرهبان جهداً في إثارة حماس جند أوروبا الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحلّ من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي أتسمت بطابع الحروب الصليبية.  
وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إباناً ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبدالملك برد الهجوم الاول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهّد الطريق لجنوده الى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراکش ودخل خيمته وماهي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، وأمر هذا القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة ، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا وكان كذلك، فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه أحمد المنصور وحاجبه رضوان العليج، وصار حاجبه يقول للجنود: ( السلطان يأمر فلاناً أن يذهب الى موضع كذا، وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر)<sup>(2)</sup>.

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش وصدّم مؤخرة الجيش البرتغالي، وأوقدت النار في برود النصارى، وصدّم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقيون الادبار قاصدين قنطرة نهر واد المخازن وكانت تلك القنطرة أثر \_\_\_\_\_

(1) انظر: وادي المخازن ص 64.  
(2) الاستقصا (80/5) نقلاً عن وادي المخازن ص 66.  
بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم ، فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر، وقتل من قتل،  
وصُرع سبستيان، وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقاً في نهر وادي المخازن.  
واستمرت المعركة أربع ساعات وتلت الساعة، وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين<sup>(1)</sup>.  
جاء في (درة السُّلوك) لأحمد بن القاضي، وهو معاصر لأحداث المعركة "مخطوطة بدار الوثائق بالرباط،  
د 428، ص 14"<sup>(2)</sup>.

وابن أخيه<sup>(3)</sup> بالنصارى اعتصمًا

وصار يستجدهم لمن سَمًا

أجابه اللعينُ بستيان<sup>(4)</sup>

بجيشه ومعه الاوثان

وعدد الجيوشِ الذي جَمَعًا

ينيف عن مائة ألفِ سُمِعًا

فقيض الله له المنصورا<sup>(5)</sup>

ملكاً شجاعاً أسدَ هصورا

فخلص الاسلام من يدِ اللعين

بصبره على لقاء المشركين

---

(1) انظر: وادي المخازن ص 66، 67.

(2) دعوة الحق السنة 19، العدد 8، رمضان 1398هـ، ص 56 نقلاً عن وادي المخازن ص 67.

(3) اشارة الى المتوكل.

(4) بستيان (الضرورة الوزن) وإلا فهو سبستيان.

(5) أحمد المنصور ،أخو عبدالمك المعتصم بالله قاد المعركة بعد وفاة أخيه ، وكان جديراً  
بالشاعر أن يذكر عبدالمك الذي هباً وخطط للمعركة.

مامنهم إلا قتيل وأسير

في ساعة من الزّمان<sup>(1)</sup> ذا شهير

مات بها بستيان اللعين

فماله عن الرّدى معين

ثم محمد<sup>(2)</sup> الذي أتى به  
مات غريقاً<sup>(3)</sup> يومه فانتبه  
لحكمة الله العظيم القاهر  
أفادهم وزين المناير  
بذكر عمّه أبي العباس  
الحازم الرأي شديد الباس  
نجل الرسول المصطفى المختار  
به زها المغرب على الأقطار<sup>(4)</sup>

### عاشراً: أسباب نصر وادي المخازن:

1- القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبدالملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، ولحاجبه المنصور، وظهر مجموعة من القادة المحنكين من أمثال، أبي علي القوري، والحسين العلي، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.

---

(1) اشارة الى قصر مدة المعركة.

(2) محمد المتوكل المسلوخ.

(3) في نهر وادي المخازن.

(4) برده الغزو الصليبي وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن.

2- التقاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي والذي استطاع

أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.

3- رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضييد الجراح بسبب سقوط

غرناطة، وضياح الاندلس، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين والذين تحت حكمهم في الاندلس.

4- اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية وشارك كذلك مجموعة من الاندلسيين

تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية.

5- الخطة المحكمة التي رسمها عبدالملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج

خصومه الى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على

نهر وادي المخازن.

- 6- القدوة والأسوة المثالية التي ضريها للناس كل من عبدالملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما له أثر أشد في اتباعهم من قولهم.
- 7- تفوق القوات المغربية بالخيال حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة في الفرار.
- 8- استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته مما جعل القلوب تتنافر.
- 9- وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد<sup>(1)</sup>.

---

(1) انظر: وادي المخازن ص.75،74،73،72

- 10- دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم. وغير ذلك من الأسباب.

### الحادي عشر: نتائج المعركة :

- 1- أصبح سلطان المغرب بعد عبدالملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الاثنين 30 جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسع مئة للهجرة.
- 2- وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي الى مقر السلطنة العثمانية، في زمن السلطان مراد خان الثالث، والى سائر ممالك الاسلام المجاورة للمغرب، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم ووردت الرسل من سائر الاقطار مهنيين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.
- 3- ارتفع نجم الدولة السعدية في أفق العالم واصبحت دول أوروبا تخطب ودّها واضطر ملك البرتغال الجديد "الريكي" أن يرسل وفداً الى المغرب وكذلك ملك الاسبان محملة وفودهم بالهدايا الثمينة. ثم قدمت رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ومعهم هدياهم الثمينة<sup>(1)</sup>.
- وبعدها رسل ملك فرنسا واصبحت الوفود (تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور)<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر: وادي المخازن ص.70.

(2) الاستقصاء (92/5) نقلاً عن وادي المخازن ص.70.

4- سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم ، وتهاوت قوتهم.

يقول لويس مارية - المؤرخ البرتغالي - واصفاً نتائج المعركة:

"وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الاعصار، العصر، الذي لو وصفته - كما وصفه غيره من المؤرخين - لقلت: هو العصر النحاس البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح ، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس ، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم، وخلفها الفشل ، وانقطع الرجاء، واضمحل إبان الغنى والريح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب"<sup>(1)</sup>.

5- مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبيي حاقد سبستيان ملك البرتغال، ملك مخلوع خائن محمد

المتوكل ، مجاهد شهيد ، عبدالملك المعتصم بالله.

6- سارع البرتغاليون النصارى بفكك اسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

7- سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

8- حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط - على مستوى أوروبا حيث رأو أهمية اتقان الغزو الفكري

لبلاد المسلمين، لئن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الاسلامية في المشرق والمغرب<sup>(2)</sup>.

---

(1) الاستقصا (85/5-86) نقلاً عن وادي المخازن ص71.

(2) انظر: وادي المخازن ص76.

### و - السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي:

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة 956هـ/1549م.

أبوه محمد المهدي ، وأمه بربرية الأصل لها أوقاف بمراكش معروفة لدى المغاربة<sup>(1)</sup>.

درس في مراكز علمية عديدة ومن أهم هذه المراكز : (فاس، ومراكش بتاروددانت.....).

ودرس علوم اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والفقهاء والحديث والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والأصول

والتفسير .

أ - من أشهر شيوخه :

- 1- أبو العباس أحمد بن علي المنجور، المعروف بتبحره في العلوم واهتمامه بالفنون ، وتوسعه في علم النحو والبلاغة والمنطق وعلم الكلام.
- 2- شقروان بن هبة الله الوهراني، درس عليه الفقه والتفسير وغيرها من العلوم.
- 3- ابو زكريا يحيى السراج.
- 4- محمد بن يوسف الدرعي.
- 5- سليمان بن ابراهيم .
- 6- موسى الروداني(2).

---

(1) انظر: وادي المخازن ص37 نقلاً عن الاستقصا (136/5).

(2) انظر: وادي المخازن ص38.

### **ب- من مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور:**

- 1- "المعارف في كل ماتحتاج الخلائق" يتكلم هذا الكتاب عن فقه الدولة وسياستها ويهتم بالطرق العلمية لصناعة الاسلحة والذخيرة، وبناء نقاط للدفاع، ويهتم بالطرق التقنية ويرسم التفكير الاستراتيجي القتالي.
  - 2- مؤلفه في دراسة الحديث النبوي: (نحن معاشر الانبياء لا نورث، ماتركناه صدقة)(1).
  - 3- كتابات أدبية وشعرية متميزة، تظهر فيها المحسنات البيعية أحياناً(2).
- وصفه السلاوي فقال: (نشأ المنصور في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنه(3) لأهله عليه، وكانت مزايل الخلافة لائحة عليه من نعومة أظفاره(4). كان طويل القامة ممتلئ الخدين، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة، أسود الشعر، أدعج أكحل، ضيق البلج(5) براق الثنايا، حسن الشكل ، جميل الوجه، ظريف المنزع، لطيف الشمائل(6).

### **ج- إدارته للدولة:**

استمر على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ماوصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الادارة والقضاء والجيش، وترتيب وتنظيم الأقاليم التابعة للدولة.

---

(1) حاول ان يزيح بعض الاشكالات العلمية المتعلقة ببحث الحديث والفقه.

(2) انظر: وادي المخازن ص38.

(3) مثافنه : ركبته الانسان وتدل على لزوم الشيء.

(4) أخطاره: طفولته.

(5) البلج : تباعد ما بين الحاجبين.

(6) انظر: وادي المخازن ص39.

وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية ، أو التأخير في الرد على المراسلات الادارية والسياسية.

واحداث حروف لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لايعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الامن والاستخبارات التي تحمى به الدولة من الاخطار الداخلية والخارجية.

واهتم بالجهاز القضائي ، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية تماماً، ومنع السلطة التنفيذية من التدخل في السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في القرنين 11 و12 هـ (16 و17م) فقال : "في الوقت الذي كانت أوروبا في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ماكان يدعى بقضاء المظالم"<sup>(1)</sup>.

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبية في مراكش، بجوار قصره، وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء في الاقاليم ويهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الادارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه.

وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد، يحرسها جنود مقيمون لايبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كليومتراً بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام.

---

(1) انظر: دعوة الحق نقلاً عن وادي المخازن ص41.

وطور عمل المؤسسات الاستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء، واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لايستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله.

وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الافق بحيث يسمح بدخول المختصين أو ممثلين المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الامر استشارات على نطاق شعبي واسع<sup>(1)</sup>.

وطور السلطان أحمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثماني في التسليح والرّتب واللباس واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية واثبتت الايام أنه أهل لذلك ومن أهم هذه القيادات ، إبراهيم بن محمد السُفّاني قائد الجبهة الامامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة ، وأحمد الحداد العمري المعقلي. ودعم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم واقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول، خصوصاً في مينائي العرائش وسلا(2). ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب وضم بلاد السودان الغربي الى نفوذه ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الاسبان والانجليز والاتراك، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة، واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاه

(1) انظر: وادي المخازن ص43،42.

(2) المصدر السابق ص44.

والخشب لبلاد(1).

#### د- انهيار الدولة السعدية:

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي في عام 1012هـ/1603م دخل المغرب في حالة من الضعف والتفكك آل به الأمر الى سقوط الدولة السعدية وقد كان لذلك السقوط عدة عوامل منها:

- 1- الصراع المرير على كرسي الحكم بين أبناء الأسرة السعدية من الاسباب القوية التي عجلت بنهاية الأسرة سريعاً وانهيارها.
- 2- ساهم ذلك الصراع في قيام الثورات والحركات الانفصالية والامارات المستقلة عن الحكومة المركزية في المغرب الاقصى وانشغل الأمراء السعديين بالصراع فيما بينهم عن أحوال الرعية والعدو الخارجي.
- 3- دخلت الولايات والامارات المنفصلة في نزاع عسكري فيما بينها من أجل الحدود والتوسع كل امانة على حساب الاخرى ولم تكن هذه الامارات في وئام فيما بينها.
- 4- ظهور إمارة قوية بقيادة الاسرة العلوية الشريفة أخذت تسعى لتوحيد المغرب.
- 5- تولى الزعامة السعدية ابوالعباس أحمد وكانت قد وصلت الدولة في عهده الى حالة من التردّي والضعف والانهيار حيث لايزال طفلاً صغيراً وكان أخواله من العرب الشبانات لهم تطلع للوصول للحكم انتهى الأمر بإن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدي آخر السلاطين السعديين عام \_\_\_\_\_



كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحيدين وعندما ضعف أمر الموحيدين، انفصلوا بالمغرب الاوسط وجعلوا مدينة تلمسان عاصمة لهم وترجع اصولهم الى قبائل زناتة الكبرى وعرفوا في كتب التاريخ ببني عبدالواد(1).

وكان بنو عبدالواد من أمراء القبائل الرحل التي تنتقل في الصحراء الكبرى خلف الماء والكلاء والمراعي ثم ساعدتهما الظروف والأحوال التي مرت بها المغرب على الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلثمائة سنة تقريباً. وكان استقرار قبائل عبدالواد في سواحل المغرب الاوسط واستطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بالقوة على أهالي هذه البلاد واصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط.

انفصل زعيم بني عبدالواد يَغْمُرُ اسن بن زيان عن دولة الموحيدين وأبقى الطاعة الشكلية لها الى ان سقطت فعلياً وحكم زعيم بني عبدالواد ما يقارب الخمسين سنة (633هـ/1235م-681هـ/1282م) كان يغمر اسن يدرك صعوبة الموقف الذي أصبح فيه، لكون دولته أصغر دويلات الشمال الافريقي وأقلها قوة، وابقن بالخطر القادم من المغرب الاقصى بعد صعود نجم قبائل بني مرين لذلك تحالف مع خلفاء الموحيدين لكسر شوكة المرينيين إلا أن تلك الأحلاف لم تستمر وانتهت بوصول بني مرين الى الحكم بعد إسقاطهم للموحيدين.

---

(1) انظر: تاريخ قادة بلاد المغرب (234/2).

وارادت الدولة المرينية أن تأمن حدودها الشرقية ودخلت في صراع عنيف وقتال مرير مع بني عبدالواد الذين هزموا في عام 670هـ/1271م أمام الضربات المرينية قرب وجدة ثم تحركت القوات المرينية نحو تلمسان، وضربت عليها حصاراً استمر لمدة عام كاملاً، ثم رفع حتى تنتفرغ الدولة المرينية للاستيلاء على ما تبقى من أقطار المغرب الاقصى(1).

وكان من سعد بني عبدالواد أن انشغل المرينيون بالجهاد في بلاد الاندلس. وتحالف بني عبدالواد مع بني الأحمر لما سأت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر بفعل العمل الاستخباراتي النصراني الاسباني. وقام بني عبدالواد بالهجوم على حدود الدولة المرينية فاضطر المرينيون أن يعودوا لحرب بني عبدالواد والحقوا بهم هزائم في عام 679هـ/1280م.

وكان بنو عبدالواد يجدون في الصحراء الواسعة ملاذاً لهم عندما يشتد خطبهم وتتكسر حشودهم، وتتهزم قواتهم امام المرينيين، ثم ينتظرون الوقت المناسب والفرصة الملائمة ليعودوا الى مدنهم في المغرب الاوسط. كان بنو عبدالواد ينتهزون الفرص التي تحدث بين ابناء البيت المريني ، فيناصرون فريق على حساب آخر، كما كانوا يدخلون في احلاف ضد المرينيين مع الحفصيين الذين رأوا في بقاء بني عبدالواد درع حصين

بينهم وبين بني مرين إلا ان تلك الحالة لم تستمر طويلاً حيث دخلت الدولتان في صراع عنيف ضد بعضهم البعض وإن كان أخف من الصراع مع المرينيين.

واستطاعت الدولة المرينية أن تزيل الوجود الزياني والحفصي وتوحد المغرب كله في زمن أبي الحسن المريني في عام 737هـ/1337م إلا ان تلك \_\_\_\_\_

(1) انظر: المغرب في تاريخ الاندلس والمغرب ص134.

الوحدة لم تستمر بسبب عوامل مرت بنا.

لقد تعرضت دولة بني عبدالوادي للإنهييار أكثر من عشرين مرة ومع ذلك استطاعت أن تبقى في حكم المغرب الاوسط لمدة ثلاثة قرون، ويرجع ذلك الى أسباب منها(1):

1- ظهور الزعيم يغمر اسن بن زيان والذي استمر في الحكم لمدة نصف قرن يقول ابن خلدون عنه: (كان يغمر اسن بن زيان من أشد بني عبدالوادي بأساً وأعظمهم في النفوس مهابة واجلالاً، واعرفهم بمصالح قبيلته، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة، شهدت له بذلك أثارة قبل الملك وبعده، وكان مرموقاً بعين التجلة، مؤملاً للأمر عند المشيخة، تعظمه من أمره الخاصة وتضرع إليه في نوائبها العامة، فلما تولى الامر بعد أخيه قام به أحسن قيام واضطلع بأعبائه وظهر على الخارجين وأصارهم في جملته وتحت سلطانه، وأحسن السيرة في الرعية بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار واتخذ الألة ورتب الجند والمسالح وفرض العطاء)(2).

2- حصانة مدينتهم وموقعها الوعر، وخصوبة الاقليم المحيط بها، وصبرهم ومصابرتهم في القتال وتحملهم للحصار.

3- حسن سياستهم مع القبائل العربية الهلالية، فمنحهم اقطاعات واسعة وكرمهم بالأموال والعطاء فكانوا من الأسباب الظاهرة في حماية الدولة.

4- اسناد مرافق الدولة الى الاندلسيين الذين هاجروا من ظلم النصارى الاسبان وجورهم وتعسفهم، فاستفادت

الدولة من خبرتهم في الوزارة، وفي \_\_\_\_\_

(1) انظر: المغرب في تاريخ الاندلس والمغرب ص136.

(2) ابن خلدون في تاريخه (79/7).

الحياة المعمارية، والحياة الثقافية.

5- اهتمامها بالتجارة واستفادوا من موقع تلمسان الذي كان محطة بين افريقية المدارية واوروبا، فكان يتم التبادل بين التجار ما يحملوه من أفريقيا من تبر ورقيق وجلود وعاج وبين ما يحمله التجار من أوروبا

وأخصها السلاح.

فهيأت الدولة الأمن للتجار وخفضت عنهم الضرائب، واكتفت ما تحصله من رسوم فكان للتجارة سبب في ازدهار الدولة وحصولها على الاموال اللازمة.

6- اهتمام الدولة بالعلماء والادباء والشعراء حتى ان يحيى بن خلدون (ت 780هـ) وهو أخ المفكر الكبير والمؤرخ المعروف بن خلدون استطاع أن يصل الى وظيفة الحجابة في زمن الأمير أبي حمو موسى الثاني (753هـ/1352م-791هـ/1389م) وكان هذا الأمير محب للعلماء والادباء وكان هو نفسه أديباً شاعراً وله كتاب اسمه: (نظم السلوك في سياسة الملوك) ووقف مع غرناطة في جهادها بالمال والرجال(1).

وفي عهد بني زيان على العموم نبغ جماعات من أشهر العلماء والادباء والكتاب والمفكرين، ولعل في قمة هؤلاء عبدالرحمن الثعالبي مؤلف الجواهر الحسان ، والمقري مؤلف نفع الطيب كما امتازت هذه الدولة ببناء المارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق(2).

---

(1) المغرب في تاريخ الاندلس والمغرب ص136.

(2) موسوعة التاريخ الاسلامي ، د.أحمد شبلي (4/252).

#### **ب- التنظيم الإداري في عهد بني عبدالوادم:**

قسمت السلطات في الدولة الى :

- 1- السلطة العسكرية ويتولاها صاحب السيف.
- 2- السلطة الإدارية ويتولاها صاحب القلم.
- 3- السلطة القضائية ويتولاها قاضي القضاء.
- 4- السلطة المالية ويتولاها صاحب المال.

ويتابع مسؤولين السلطات السابقة شخص يطلق عليه ( مزاول ) وله حق الإشراف على كل هؤلاء وهو مايعرف في زماننا رئيس الوزراء وفي كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالي) وهو حافظ النظام الإسلامي، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة، والقاضي وغيرهم من موظفي الدولة وجباة الضرائب(1).

### ج- اسباب السقوط لبني عبدالدار :

1- النزاع الداخلي بين أبناء الاسرة الحاكمة من أجل الوصول الى الحكم.  
2- قتال الحفصيين لهم في عهد أبي فارس عبدالعزيز وعهد أبي عمر وعثمان أضعف الدولة وخلخل بنيتها القائمة عليها.

3- ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب الدولة في تلمسان.

4- مجيء الغزو الصليبي النصراني الاسباني واحتلالهم بجاية سنة 910هـ/1504م ثم استيلاءهم على وهران 914هـ، ثم سعيهم للاستيلاء على الجزائر وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الاسبانية<sup>(2)</sup>، وعجز بنو \_\_\_\_\_

(1) انظر: موسوعة التاريخ الاسلامي، د. احمد شبلي (252،253).

(2) انظر: المغرب الكبير (875/2).

عبدالواد في التصدي لهم.

5- ظهر على الساحة المجاهدون المسلمون الذين ينتمون الى الدولة العثمانية وكان على رأسهم خيرالدين بربروسة الذي استطاع أن يضع حداً لعدوان الاسبان وانتهى الامر بزوال دولتي بني زيان في عام 962هـ/1554م ودخول المغرب الاوسط تحت الحكم الاسلامي العثماني الذي استطاع أن يهزم الاسبان وكان تفاعل أهالي المغرب الاوسط مع الدولة العثمانية عظيماً، لأن المسلمين العثمانيين دحروا الاسبان وهزموهم وخلصوا البلاد من التواكل والتخاذل الذي أخذ إليه بني عبدالدار، فكان ذلك التخاذل والتواكل سبب في تجرأ الاسبان على احتلال وهران واعتدى الجيش الاسباني النصراني على حرقات الدين والاعراض والنفوس والاموال وارتكبوا الفواحش، وقتلوا نحو ثمانية آلاف من الاطفال والشيوخ والنساء، وانتهكت حرقات المساجد والبيوتات الشريفة وفي أواخر رمضان سنة 915هـ/1511م اقتحم النصارى الاسبان اسوار (بجاية) وحطموا الجامع الاعظم فيها وكثير من معالم المدينة<sup>(2)</sup>.

فكان من الطبيعي أن يفرح أهالي المغرب الاوسط لمجيء اخوانهم في العقيدة والدين الذين جاءوا من أجل الدفاع عن الاسلام وأهله في الشمال الافريقي.

(1) انظر: المغرب الكبير (875/2).

## المبحث الرابع الدولة الحفصية

اختلف علماء التاريخ في نسب امرء بني حفص، فمنهم من ارجعهم الى عمر ابن الخطاب كابن نخيل ، الذي يعتبر اول كاتب لديوان الدولة الحفصية(1). ومنهم من ارجعهم الى قبيلة هنتاتة، التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص، ومن أكبر قبائل البربر في المغرب على وجه العموم. وموطنها بجبال درن القريبة لمراكش، ويعتبر أبوحفص من زعماء المصامدة وله مكانة ونفوذ بين قبائل المصامدة وهو من خواص ابن تومرت، وأمن بدعوته وبذل قصارى جهده في مناصرته، وكان يأتي بعد عبدالمؤمن في المنزلة عند الموحدين، من غير منازع، ويشترك معه في الالقاب الرئاسية، فبينما كان ابن تومرت يسمى بالامام، وعبدالمؤمن بن علي بالخليفة كان يسمى هو بالشيخ(2). وبلغ من احترام عبدالمؤمن له، وحسن تقديره اياه ان كان يأخذ برأيه في كل مشاكل الحكم، وأكرم أولاده من بعده وأسند لهم المناصب والامارة في الاندلس وأفريقية.

---

(1) ابن خلدون ، تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب (374/1).

(2) انظر: بحوث في تاريخ الحضارة الاسلامية ص220.

وعندما تولى الخلافة الموحدية الناصر بن المنصور(1) اسند الى أبي محمد عبدالواحد ابن أبي حفص الهنتاتي أمر أفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام بأعبائها ويقضي على الفتن والثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية وأحلافهم من العرب. وكان من شروط أبي محمد الحفصي على الخليفة الموحي ، أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الاحوال وتتقطع أطماع بني غانية عنها، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل، فقبل الناصر شروطه، ومن هنا ورث الملوك الحفصيون سلطنة تونس وافريقية(2).

ويعتبر الانفصال الرسمي عن الدولة الموحدية بالنسبة للحفصيين على يد أبي زكريا بن عبدالواحد الحفصي سنة 626هـ/1229م<sup>(3)</sup>.

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير ابوزكريا بن عبدالواحد الحفصي بالانفصال منها:

1- انهيار دولة عبدالمؤمن في المغرب والاندلس عقب الهزيمة التي حاققت بجيوشها من موقعة العقاب سنة 1212م.

2- رفض الخليفة الموحي ادريس المأمون في عام 626هـ/1229م لتعليم ابن تومرت ثم أزال اسمه من السكة والخطبة .

3- قتل الخليفة الموحي ادريس أشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته \_\_\_\_\_

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والاندلس للعبادي ص121.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق ص180.

ومعظمهم من هنتاتة، قبيلة الحفصيين.

فأستغل ابوزكريا عبدالواحد الموقف المتأزم ورفض مبايعة الخليفة ادريس المأمون، واتخذ الاسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبدالمؤمن والاستقلال بولايته واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد واهداف حركة ابن تومرت، ولذلك حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال على التمسك بتعاليم ابن تومرت، وذكروا اسمه في الخطبة والسكة، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة. وان كانت الظروف اقتضت تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان<sup>(1)</sup>.

واستطاع ابوزكريا بن عبدالواحد أن يشكل إمارة في تونس وقضى على البقية الباقية من بني غانية، واستولى على قسطنطينة وبجاية ودخل تلمسان وافته بيعة أهل طنجة وسبتة وسلجماسة، كما أفته بيعة بني مرين عندما كانوا يقاتلون الموحدين في المغرب الاقصى وكانت مناورة سياسية دلت على دهاء ومكر زعماء المرينيين<sup>(2)</sup>، ودعا له عدد من ولاة الاندلس وبايعة أهل شرق الاندلس واشبيلية والمرية والى الامير أبي زكريا عبدالواحد وجه أمير بلنسية وفداً برئاسة ابن الأبار يستصرخه لنجدة أهل بلنسية فقام ابن الابار القضاعي بين يدي امير الحفصيين منشد قصيدته السينية الفريدة التي قال عنها المقرري انها فضحت من باراها وكبا دونها من جارها<sup>(3)</sup> وهي:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً

إن السبيل الى منجاتها درساً

(1) انظر: دراسات في المغرب والاندلس للعبادي ص180.

(2) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والاندلس ص127.

(3) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (120/3).

وهَبَ لها من عزيز النصر ما التمسْت

فلم يزل منك عزُّ النصر مُلْتَمَسَا

وحاشى مما تُعانيه حُشاحشَتَهَا

فطالما ذاقْت البلوى صباح مسا

يالجزيرة اصبح اهلها جزراً

للحادثات وأمسى جدُّها تَعَسَا

في كل شارقة إمام بانقة

يعود مآتمها عند العدا عروسا

وكل غاربة إجحاف نائبة

تثني الامان حذراً والسرور اسى

تقاسم الروم لانالت مقاسمهم

إلا عقائلها المحجوبة الانسا

وفي بلنسية منها وقرطبة

ما ينسف النفس اوما ينزف النفسا

مدائن حلها الاشراك مبتسماً

جدلان، وارتحل الايمان مبتئسا

وصيرتها القوادي العائثات بها

يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

فمن دساكر كانت دونها حرساً

ومن كنائس كانت قبلها كنسا

يالمساجد عادت للعدى بيعاً

وللنداء غدا اثنائها جرساً

لهضي عليها الى استرجاع فائتها

مدارساً للمثاني اصبحت دُرُسا  
واربُعاً نممت ايدي الربيع لها  
ما شئت من خَلَعِ مَوْشِيَةٍ وَكُسا  
كانت حدائق للأحداق موقفةً  
فصَوِّحِ النَّصْرَ من ادواحها وعسى  
وحوال ما حولها من منظر عجب  
يستنطس الركب او يستركب الجلوسا  
سرعان ما عاش جيش الكفر واحربا  
غيث الدِّبَا في مغانبها التي كسبا  
وابتز بزتها مما تحيفها  
تحيف الاسد الضاري لما افترسا  
فأين عيش جنيناه بها خضراً  
وأين عصر جَلِينَاهُ بها سلسا  
محا محاسنها طاغ اتيح لها  
ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا  
ورَجَّ أَرْجَاءَها لما أحاط بها  
فغادر الشَّمَّ من أعلامها خُنسا  
خلا له الجوّ فامتدت يداه الى  
الى إِدَارِكِ مالم تطأ رجلاه مختلسا  
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً  
ولو رأى راية التوحيد ما نَبَسَا  
صِلْ حبالها أيها المولى الرحيم فما  
أبقى المِرَاسُ لها حبالاً ولامرسا  
الى ان قال:  
طهر بلادك منهم إنهم نجس  
ولا طهارة مالم تغسل النَّجْسَا

وأوطئ الفيلق الجرار ارضهم  
حتى يطأطيء رأساً كل من رأساً  
وانصُر عبداً بأقصى شَرِقها شرقت  
عيونهم أدمعاً تهمي زكاً وخسا  
هم شيعة الأمر وهي الدارُ قد نهكت  
داءً مالم تباشر حَسَمَه انتكسا  
فاملاً هِنناً لك التأييد ساحتها  
جرداً سَلاهِبَ أو خطيئة دعساً  
واضرب لها موعداً بالفتح

ترقيهِ لعل يوم الأعداي قد أتى وعسى (1)

ولقد لبي السلطان الحفصي النداء وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال والمؤن الى المدينة المحاصرة إلا أن تلك الاغاثة لم تفيد أهل بلنسية بسبب الحصار المحكم من قبل النصارى مما جعل أهالي المدينة يضطرون الى التسليم والخضوع للمعتدين النصارى الحاقدين (2).

(1) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس (120، 121، 122/3).

(2) المصدر السابق (122/3).

وفتح ابوزكريا أبواب أفريقية للهجرة الاندلسية وبلغ التأثير الاندلسي في الدولة الحفصية ذروته في عهد ابي عبدالله المستنصر خليفة أبي زكريا يحيى، وكان من أعظم حكام دولة الحفصيين وكان بلاطه يزخر بأهل الاندلس الذين هاجروا الى جواره.

لقد كانت مناورة أبي زكريا عبدالواحد السياسية حققت أهدافها حيث استطاع أن يمكن لبني حفص الحكم في أفريقية وتوسع نفوذه من أحواز طرابلس شرقاً الى مدينة الجزائر غرباً، وبدأ كأنه سيعيد الوحدة الى أقطار المغرب (1).

### ب- ولاية العهد:

سلك الحفصيون في ولاية العهد مسلك تعيين الافراد من الاسرة الحاكمة. وفي عام 633هـ/1235م عين الأمير ابوزكريا ابنه على ولاية بجاية وحول له معظم الصلاحيات في سائر أعمالها.

وتتميز أبو يحيى بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العدل، وجعل أهل مشورته وخاصته من أهل العلم والتقوى والدين والراي السديد.

وكانت وصية ابي زكريا لابنه مليئة بالنصح والارشاد ومما جعل في وصيته قبل موته في عام 647هـ/1249م:

- 1- (المحافظة على اقامة شعائر الاسلام في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه.
- 2- تفقده للجيش وحسن معاملته لافراده حسب درجاتهم، فلا يلحق السفية بالكبير، فيجرئ السفية عليه، ويفسد نية الكبير ، فيكون احسانه مفسدة له في \_\_\_\_\_  
(1) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والاندلس ص128.  
كلا الوجهين.
- 3- اوصاه الامير بعدم الجزع عند حدوث الملمات، لان الجزع يؤدي الى القلق والاضطراب، وبالتالي الى الفشل في معالجة الامور، لذا عليه أن يعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء، وذوي التجارب من قادة الجيش.
- 4- ان يحسن اختيار مستشاريه، ممن اتصفوا بصدق القول والاخلاص في العمل، وان لا يقتصر في استشارتهم على احد منهم دون الآخر، بل يأخذ بأرائهم جميعاً، فان في تعداد الآراء هداية لمعرفة الصواب.
- 5- عليه ان يتفقد احوال رعيته، ويراقب العمال والولاة في اعمالهم، وبيحث عن سيرة القضاء وعن احكامهم، ومهما دعي للكشف عن ملمة فليكتشفها، ولا يراعى من حكمه أحداً اذا زاغ عن الصواب، ولا يقتصر على شخص واحد فقط في رفع مسائل وحوائج المتظلمين من ابناء رعيته.
- 6- اوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات، لانهما أنجح الطرق في معالجة الأمور.
- 7- أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث في طرقات المسلمين وأموالهم، متماد في غيه في فساد صلاحهم واحوالهم، ومثل هذا ليس له إلا السيف.
- أما الحسود فعليه أن لا يقبل عثرته، لان في اقالته مايشجعه على القول ، والقول يدفعه الى العمل، ووبال عمله يضر غيره، فليحسم داءه قبل انتشاره ويتدارك امره قبل اظهاره.
- 8- عليه ان يزهّد في الدنيا، فلا ينشغل بلهوها وزينتها بل يعمل الاعمال الحميدة المشكورة التي تخلد ذكره في الدنيا، وينال بها مرضاة الله في الآخرة<sup>(1)</sup>.

(1) ابن خلدون تاريخ الدول (1/406-408).

وبعد موت أبي زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه ابو عبدالله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله الذي اعلن نفسه أمير المؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام 656هـ وكان أعلانه كأمر المؤمنين للمسلمين 657هـ/1259م وبايعه شريف مكة بالخلافة<sup>(1)</sup>.

وحاول الحفصيون أن يستندوا الى الأسس الشرعية اللازمة في باب الخلافة، كالاصل العربي، والنسب النبوي، الى جانبهم قرابتهم للموحدين. فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب<sup>(2)</sup>، وعمر رضي الله عنه كما تعلم من اشراف قريش وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته حفصة فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي ، وهذا النسب النبوي ، وبحكم قرابتهم للموحدين، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة<sup>(3)</sup>.

وحرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الاصل، وأعلانه في كل حفل ومناسبة وتبارت أقلام كتابهم وقصائد شعرائهم بأطلاق اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية وذكر نسبهم الذي يرجع الى عمر الفاروق كما يقولون، فهذا ابن خلدون يمدحهم ويقول:

قوم ابو حفص أب لهم

وما ادراك والفاروق هو أول<sup>(4)</sup>

---

(1) انظر : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس للعبادي ص123.

(2) نفس المصدر السابق ص124.

(3) نفس المصدر السابق ص124.

(4) نفس المصدر السابق ص124.

ودعم موقف الحفصيين في اعلان الخلافة سقوط بغداد بيد المغول واعتراف شريف مكة وأهل الحجاز بالخلافة الحفصية وسارع ملك غرناطة ابن الاحمر بمبايعة الحفصيين وكذلك المرينيين في المغرب الاقصى يقول السلاوي الناصري: "ولما بلغ بنو مرين بالمغرب، وغلبوا على الكثير من ضواحيه، كانوا يدعون الى أبي زكريا الحفصي تأليفاً لأهل المغرب، واستجاباً لمرضاتهم ، وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم..."<sup>(1)</sup> واعترف بنو زيان في تلمسان في المغرب الاوسط بهذه الخلافة. وبذلك ظهرت خلافة قوية في الشمال الافريقي عاصمتها تونس وبسطت نفوذها في بلاد الاندلس والمغرب والحجاز، وشعر حكام مصر بخطورة أهداف الخلافة الحفصية، وكانت السياسة المصرية في عهد المماليك تهدف الى مد سلطانها على الحجاز لاسباب دينية واقتصادية وسياسة ومن أهم تلك الاهداف السيطرة على

البحر الاحمر وتجارته، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها، كالتولونيين، والاشيديين والفاطميين (العبيديين) قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ثم جاء الأيوبيون والمماليك والعثمانيون، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب "خدام الحرمين"<sup>(2)</sup>.

وكان يحكم مصر في تلك الفترة (658-676هـ) السلطان الظاهر بيبرس وكان من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر واستطاع ان يهزم المغول عند الحدود العراقية، وعلى الصليبيين في الشام حتى صارت سيرته مضرِباً \_\_\_\_\_

(1) انظر: السلاوي (الاستقفا 28/3-29) نقلاً عن العبادي دراسات.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والانديس ص127.

لأمثال، رأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته، لهذا عمد الى احياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659هـ/1261م، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبإيعاه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة، ولقبه بالمستنصر بالله وقام الخليفة الجديد وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز ، وما يغزوه من بلاد الاعداء وبهذا العمل كسب بيبرس نفوذاً أدبياً وروحياً وسياسياً ووجه ضربة موجعة للدولة الحفصية وشرع بيبرس بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف وأرسل كسوة الكعبة وأرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب... الخ ثم أدى بيبرس فريضة الحج وظهر منه خشوعاً وكرماً متميزاً وازال انصار الحفصيين، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي ووضع مندوباً تابعاً له بجانب شريف مكة إلا أن بعد مضي وقت قصير، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها في المنطقة التي تعيش فيها<sup>(1)</sup>.

استطاع المستنصر أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي أن يطور الدولة ويجعلها مقصداً للعلماء والادباء وأن تتخذ مكانة رفيعة على المستوى الدولي في زمانه، وجاءته سفارات من دول متعددة، بعضها من السودان، وبعض آخر من أوروبا، وأهتم بعاصمة الدولة ، وتطور العمران وازدهرت الاحوال العامة في أيامه وأصبحت أعز أيام الدولة الحفصية.

وتعرضت الدولة الحفصية لهجمات نصرانية همجية يقودها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة 668هـ/1270م أي بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر، إلا أنها أخفقت ، بسبب الوباء الذي عصف بها وعصف بحياة الملك \_\_\_\_\_

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والانديس ص127.

نفسه<sup>(1)</sup>.

مات المستنصر الموحي عام (675هـ/1277م) وبعد انقضاء القرن السابع الهجري، ضعف أمرها

وتوقف الدعاء لها في المغرب والاندلس، ثم لم تلبث أن نخرتها واضعفتها الحروب الاهلية، واستقلت بجاية عن تونس، وانتهاز بنو مرين هذه الفرصة، وأخذوا يتدخلون في شؤون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات<sup>(2)</sup> واصبح الشمال الافريقي في دوامة الصراع.

واستطاع الحفصيون أن يعودوا الى حكم افريقية ، لدى انسحاب المرينيين، وبزغت مرحلة جديدة من الاستقرار النسبي في ولاية أبي العباس أحمد المعروف بالمستنصر 772هـ/1370-796هـ/1394م، واستطاع ان يقف أمام هجوم من النصارى على المهديّة سنة 792هـ/1390م، فهزموهم واستعادت الدولة الحفصية شيئاً من هيبتها وتمكن ابنه ابوفارس من الاستيلاء على تلمسان، وضم بعض الامارات التي استقلت في حياة ابيه 803هـ/1400م، وعلى بسكرة سنة 805هـ/1402م ثم نجح في الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة 813هـ/1410م.

وفي عهد ابي فارس قدمت السفارات الى تونس من جميع الانحاء تخطب مودته وتطلب مصالحته خاصة ومنها سفارة من غرناطة وفاس ومصر وتوفي ابو فارس سنة 838هـ/1434م وخلفه ابنه الاصغر المستنصر فحكم 14 شهراً ومات، وفي عهد أخيه أبي عمر وعثمان اشتعلت نار الفتنة بسبب اطماع أبناء عمومته بالسلطان إلا ان ابا عمر استطاع ان يقضي على هذه الثورات سنة \_\_\_\_\_

(1) المغرب في تاريخ المغرب ص128.

(2) عام 1357، 1350، 1346م نقلاً عن العبادي دراسات ص.129.

850هـ/1446م ويهزم عمه أبا الحسن<sup>(1)</sup>.

وتقدمت تونس في مجال الحضارة في عهده، وشكلت علاقات ومعاهدات تجارية مع فرنسا ، وسلاطين مصر والاندلس، ثم تمزقت وحدة الحفصيين بعد وفاته، وهاجم الاسبان سواحل تونس، وتبدلت الحال حتى اصبحت حال الحفصيين يرثى لها وعبر أبو محمد الحفصي عن الحالة التي وصلت إليها في بيت شعر قال فيه:

وكنا أسوداً والرجال تهابنا

فجاء زمان فيه نخشى الارانب<sup>(2)</sup>

وكان هذا الامير قد تحالف مع الاسبان وثار عليه ابنه، فقبض عليه وسمل عينه وخلعه من منصبه، ثم قام الاسبان بمذبحة في تونس سنة 941هـ/1534م فكانت نهاية الحفصيين ، وبدأ الصراع عليها بين العثمانيين والاسبان واستطاع العثمانيون أن يتغلبوا على الاسبان وبذلك دخلت تونس في حكم الدولة العثمانية الاسلامية عام 976هـ/1568م<sup>(3)</sup>.

وذكر الدكتور عبادة كحيلة أن الأمر خلص للعثمانيين عام 981هـ/1573م<sup>(4)</sup>.

### طرابلس والدولة الحفصية:

اتخذ بنو حفص تونس مركزاً لسلطانهم وأرسلوا الامراء على طرابلس ، ومن \_\_\_\_\_

(1) المغرب الكبير (879/2).

(2) انظر: موسوعة التاريخ الاسلامي (305/4).

(3) المصدر السابق نفسه .

(4) انظر: المغرب في تاريخ المغرب ص132.

أمراءهم على طرابلس أبو عبدالرحمن يعقوب الهرغي، وعبدالله بن ابراهيم بن جامع ، ومحمد بن عيسى الهنتاني ، ويوسف بن طاهر اليربوعي، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ولكنه لم ينجح وثار أعيان طرابلس ضده فقبضوا عليه وقتلوه، ولم تظهر حركات انفصالية في عهد الوالي الثاني، أما الوالي الثالث فقد انفصل بطرابلس عن امراء بني حفص في اثناء امارة أبي عبدالله محمد (647-665هـ) فعاد يعلن ولاءه اليه وتبعيته لامارته، وجاء يوسف بن طاهر اليربوعي فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالامر .

لقد كانت حركة انفصال المدن عن الدولة الحفصية كثيرة وكانت الثورات متصلة من أمير ضد أمير، وكان ذلك مما سبب الضعف والوهن للاسرة الحفصية الحاكمة، وفي مطلع القرن الثامن الهجري كان الاضطراب قد بلغ أشده وكان زكريا بن أحمد اللحياني أحد امراء بني حفص قد عاد حديثاً من الحج الى طرابلس، فأجتمع حوله الناس واختاروه أميراً لهم سنة 711هـ ورأى اضطراب الأحوال بتونس فعقد العزم على غزوها واحتل تونس وجعل ابنه ابوضرية عليها ثم سار شرقاً حتى وصل الى برقة ثم رجع الى طرابلس<sup>(1)</sup>. واصبحت طرابلس عاصمة النشاط السياسي بإفريقية حوالي ست سنوات ، ثم انهزمت هذه الحركة أمام القوات التي قادها يحيى ابوبكر سنة 818هـ الذي استطاع أن يحرر تونس، ولكنه فشل في ضم طرابلس، بل ظل أمراء طرابلس يهددون تونس من حين الى آخر<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي ص342.

(2) انظر: موسوعة التاريخ الاسلامي (378/4).

### د - طرابلس بين بني ثابت وبني مكى وبني حفص:

بنو ثابت عرب وشاحيون من بني سليم آل لهم حكم طرابلس من سنة 724هـ وظلوا يحكمونها بدون

استقرار - حتى قبيل غزو الاسبان لها(1).

ومن ولاية بني ثابت:

■ ثابت بن محمد (الاول) 724هـ

■ محمد بن ثابت 730هـ

غزا جزيرة جربة وضمها الى طرابلس واستعادها بنو حفص سنة 748هـ(2).

■ ثابت بن محمد بن ثابت الثاني 750هـ

استطاع تجار جنوه أن يخدعوا الطرابلسيين ويحتلوا المدينة في عام 755هـ وهرب ثابت من المدينة وحيل بين الاهالي وبين اسباب الدفاع، وغلبوا على أمرهم فملكوا البلاد ونهبوا الاموال وتملكوا المتاع، وأسروا الرجال وسبوا النساء، ونقلوا كل ما استطاعوا الى جنوه، فتدخل بنو مكي وهم من البربر، ونسبهم في لواته بزعامة أحمد بن مكي وكان حاكماً لقابس وتفاوض مع الجنويين وطلبوا أن يدفع لهم خمسين ألف مثقال من الذهب العين، فقبل، وأرسل الى السلطان أبي عنان في تونس يستنهض همته في دفع المبلغ، فلم يتفاعل، فأخرج ما عنده ووقف معه أهل قابس والجريد وتم دفع المبلغ وحرر بذلك طرابلس وبعد مامكت الجنويين حوالي خمسة أشهر.

وقد أرسل إليه سلطان الحفصيين ابو عنان المال الذي دفعه فأعتمر عن \_\_\_\_\_

(1) انظر: موسوعة التاريخ الاسلامي (379/4).

(2) المصدر السابق نفسه.

أخذه، وإنها لشهامة ونخوة ورجولة وموقف يدل على حميته الاسلامية القوية وعاطفته الجياشة نحو أخوانه في العقيدة(1).

وبعد هذا الموقف الشهم النبيل رأى السلطان ابوعنان أن يعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فتولاها وجعلها دار إمارته وبقي أميراً عليها الى أن توفي عام 766هـ.

وتولى ابنه عبدالرحمن ولاية طرابلس بعد وفاة أبيه فكان سيء المعاملة عاجز الرأي مستبداً في الامر كرهه الناس وسئموا حكمه.

واستطاع ابو بكر بن ثابت أن يحتل طرابلس بأسطول جاء به من مصر وقف الاهالي معه من أجل التخلص من ولاية عبدالرحمن بن مكي وعمل ابوبكر بن ثابت على تحسين علاقته مع بني حفص واعترف لهم بالولاء(2).

وبعد وفاة ابي بكر بن محمد سنة 792هـ ولي طرابلس ابن أخيه علي بن عمران بن محمد بن ثابت واستطاع أن ينفصل عن الحفصيين وتعرض لحصار عنيف استمر لمدة سنة إلا إنه قاوم ذلك واستطاع الحفصيون أن يدعموا ابن عمه يحيى بن أبي بكر واستطاعوا أن يمتلكوا طرابلس ويقبضوا على واليها علي بن عمران . واسند الحفصيون ولاية طرابلس الى يحيى بن أبي بكر ثم رأى الامير الحفصي أن يعزل يحيى بن أبي بكر وعين عليها رجل من قبله يثق فيه وأصبحت طرابلس تابعة له. وانقرض حكم بني ثابت من طرابلس، وإمارتهم عليها<sup>(3)</sup>، بعد أن حكموها نحو 79 سنة<sup>(4)</sup>.

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص352.

(2) المصدر السابق نفسه ص353.

(3) المصدر السابق نفسه ص355.

(4) المصدر السابق نفسه ص346.

وتولى المنصور محمد بن عبدالعزيز بن أبي العباس ولاية طرابلس عام 803هـ واستمر في الحكم الى وفاته عام 833هـ.

ثم تولى ولاية طرابلس عبدالواحد بن حفص وقبل الشروع في عمله اشترط لقبولها شروط:

1- أن يبقى واليها على البلاد ولا يعزل حتى يعيد البلاد الى مجدها التجاري ونشاطها الثقافي.

2- أن يستقل بالادارة ولا يرد أمره في شيء .

3- أن يتخذ من الجند لنفسه ما يريد.

وافق الامير عبدالعزيز الحفصي على تلك الشروط وظهر من عبدالواحد بن حفص حزمًا ورأيًا وإرادة ونشر العدل ومنع الظلم واستتب الامن واطمأن الناس على اموالهم وأرواحهم ونعمت البلاد بالخيرات واتسعت التجارات، وكثرت الأموال وبقي والياً الى أن توفي 858هـ وكانت مدة حكمه 25 سنة كانت أيام رغد وهنا على أهل طرابلس<sup>(1)</sup>.

### ثورة بني غراب :

ثار بنو غراب على والي طرابلس أبي بكر بن عثمان وألقوا القبض عليه وأرسلوه إلى ابن أخيه يحيى بن محمد المسعود بن عثمان في تونس فسجنه ثم قتله. ودخلت البلاد في الانقسامات والتحزب وقام رجل يقال له منصور اصلح بين المتخاصمين وهدأت الفتنة

واختار الطرابلسيون الشيخ منصور وهو

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص357.

الذي سعى في الإصلاح والياً عليهم بدلا من الحاكم الحفصي أبي بكر وسمع سكان الدواخل ببيعة الشيخ منصور حاكماً على المدينة، فجاءته البيعة من غريان، وترهونة ومسلاته وبنو وليد وخلفه رجل يقال له يوسف مات بالطاعون عام 885هـ وخلفه في الحكم مامي وبقي في الحكم نحو اثنتي عشرة سنة. وتوفي عام 898هـ واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبدالله بن شرف فولوه حاكماً عليهم، وكان رجلاً يميل إلى الزهد في الدنيا حتى لقب بالمرابط. وتغلب عليه أمر الزهد والانشغال بالعبادة ولم يكن أهلاً بالولاية فأهمل تحصين البلاد، وتقوية أبراجها وأسوارها وإعداد الجند اللازم للدفاع عن المدينة، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء ولم تكن ثورة بني غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد ودام حكم الشيخ عبدالله بن شرف نحو 18 سنة توسع أهالي طرابلس في التجارة وجمع الأموال والثروات(1).

ويرأى الشيخ طاهر الزاوي بأن طرابلس منذ أن تولاهها عبدالواحد بن حفص سنة 833هـ - إلى أن احتلها الإسبان سنة 916هـ كانت في رخاء مستمر وأمن شامل، واستطاع الأهالي أن يجمعوا ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الإفريقي، وانغمس أهلها في متع الحياة ووقعوا في الترف الذي افسد عزائمهم، وأخلاقهم وضعفت روح الجهاد والكفاح والنضال في نفوسهم، فطمع فيهم الأعداء من النصارى فتكالبوا عليهم(2) وحانت الفرصة للإسبان فجهزوا مئة وعشرين قطعة بحرية وانضمت إليها سفن أخرى من مالطة، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان، وثلاثة آلاف من

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص359.

(2) المصدر السابق نفسه ص360.

الإيطاليين والمالطيين. وفي 8 من ربيع سنة 916هـ تحركت قواتهم نحو طرابلس ووصل اساطيلهم ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر، سنة 916هـ، الخامس والعشرين من يوليو سنة 1510م وبدأ القتال بين النصارى الإسبان والطلليان والمالطيين وبين أهالي طرابلس ولم تكن القوات متكافئة وسقطت المدينة في يد الأعداء، فهتكت الأعراض وسبيت النساء وقتل الرجال وديست المقدسات واستمر الإفساد الإسباني في البلاد مايقرب من عشرين سنة ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا فيها أسوار المدينة ثم سلمت طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا في عام 942هـ 1535م واستمر فرسان الدين يوحنا حتى عام 958هـ 1551م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار، وبحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا وسنتعرض للتفاصيل في الكتاب السادس من سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي بإذن الله تعالى

عندما نتحدث عن الدولة السنية العثمانية العلية ودورها في العالم الإسلامي عموماً والشمال الأفريقي خصوصاً.

### أسباب سقوط الدولة الحفصية :

1- اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظّر له ابن تومرت وحرصها على تبني عقائده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدية التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الأفريقي فأصبح الولاء ضعيفاً للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين استخدموا تبني منهج ابن تومرت كمناوره سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين .

2- الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي .

3- استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين ، فتضطر أحياناً الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسطانها ، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال ، وأحياناً تتهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية .

4- استهدفت مدن أفريقية من قبل الإسبان النصارى والأوروبيين عموماً فعملوا على تنصير الشمال الأفريقي والانتقام من المسلمين واستغلال خيراتهم وثرواتهم ، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين .

5- ظهور قوة إسلامية سنية أصيلة متمثلة في السلطنة العثمانية والتي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر ، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى نصره الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العالمين .

6- تطلع أهالي الشمال الأفريقي إلى قوة إسلامية سنية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها ، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم وتعاونوا على البر والتقوى من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين ودحر النصارى الغاصبين .

7- كان سقوط الدولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه بسبب التنازع بين المسلمين وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى .

## الخلاصة

- 1- يعتبر محمد بن تومرت المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين لأنه وضع الخطوط العريضة التي قامت عليها الدولة.
- 2- يعتبر منهج ابن تومرت خليطاً من علم الكلام والمعتزلة والأشاعرة والامامية والخوارج.
- 3- لم يتورع ابن تومرت في سفك الدماء وسبي النساء وتكفير المسلمين، واستخدام الأساليب الملتوية من الكذب والخداع من أجل الوصول الى اهدافه.
- 4- يعتبر ابن تومرت هو الناشر الفعلي لعقائد الأشاعرة في الشمال الافريقي بقوة السلطان ، وتأليفه لكتب في مجال العقائد حكم عليها علماء أهل السنة بالابتداع .
- 5- أخطأ بعض المعاصرين عندما نظروا الى حركة ابن تومرت كحركة اصلاحية، لأنها في الحقيقة كانت حركة تدميرية بعيدة عن معالم الاصلاح التي جاءت في الكتاب والسنة بل كانت حركة ابن تومرت من الاسباب البعيدة في ضياع الاندلس وتمزق وحدة الشمال الافريقي.
- 6- كانت لابن تومرت عبقرية تنظيمية ومنهجية تربوية واهداف سياسية سعى بكافة الوسائل والاساليب لتحقيقها.
- 7- ساعدت سذاجة المجتمع المغربي وجهله على تغلغل معتقدات ابن تومرت المنحرفة في اوساطه.
- 8- تزعم عبدالمؤمن بن علي قيادة الموحدين بعد موت ابن تومرت وخاض حروباً ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين وتوحيد الشمال الافريقي.
- 9- ظهرت مواهب سياسية فذة عند عبدالمؤمن بن علي تمثلت في، ابعاده لقبائل المصامدة عن الحكم، وتقريبه لقبائل بني هلال وبني سليم منه، واسناد أمر حمايته الى قبيلة كومية، وتدرج في القضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات، وجعل الحكم وراثياً في أسرته.
- 10- لم يلتزم عبدالمؤمن بالمنهج التومرتي حرفياً وانما استفاد منه فيما يحقق اغراضه واهدافه السياسية ولذلك نجده ينحرف عن تعاليم ابن تومرت كلما حانت له فرصة كما حدث عندما ألغى نظام الطبقات وهذا العمل يدل على عدم اعتقاده في عصمة ابن تومرت وإن كانت توجيهاته وأوامره الى كافة الموحدين تحض على ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها ويعتبر ذلك

- تكتيكاً من عبدالمؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت .
- 11-تولى أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن عام 558هـ بعد مؤامرة دبّرت لخلع أخيه واستقر له الحكم وبايعه جميع الموحدين في 563هـ وكان أبو يعقوب مولع بحب الفلاسفة ولذلك قرب إليه ابن طفيل .
- 12-عمل ابو يعقوب يوسف على ضم الاندلس بالقوة واستطاع محمد بن مردنيش أن يقاتل الموحدين لمدة طويلة واستنزف جهودهم وأخذ من أوقاتهم وقتل من رجالهم وشجع الامراء الطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا فرصة انشغال الموحدين به، وشقوا عصا الطاعة ولم يستطع الموحدون أن يضموا شرق الاندلس لدولتهم إلا بعد موت ابن مردنيش عام 567هـ .
- 13-اشتعلت ثورات المغرب الاقصى ضد دولة الموحدين عام 559هـ وكانت ثورات ضارية اضعفت قوات الموحدين وأوهنت شوكتهم إلا ان الموحدين استطاعوا أن يقضوا على ثورتي صنهاجة وغمارة عام 563هـ .
- 14-قامت في المغرب في قفصة في عام 575هـ ثورة ضد الموحدين بقيادة علي بن المعز بن المعتز الرندي واستطاعت تلك الثورة أن تخلص قفصة من تحت حكم الموحدين إلا ان جيوش الموحدين الجرارة استطاعت ارجاعها في عام 576هـ .
- 15-عجز يوسف بن عبدالمؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارى في الاندلس، لعدة أسباب منها، نقص الخبرة العسكرية والسياسية عند الخليفة الموحيدي، وعدم قدرته على تقدير الظروف ، وعدم قدرته على الوصول الى هدفه من أيسر الطرق، وميولاته الفكرية التي طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية وانشغاله بالمناقشات الفكرية حتى عند حصاره لأعدائه، وبسبب ضعف ولاء المسلمين لدولة الموحدين بسبب انحراف منهجها وظلمها للرعايا، كما أن الخليفة الموحيدي يوسف كان حريصاً على أن يتولى جميع الامور بنفسه وعدم اصغائه لنصح الناصحين .
- 16-توفى السلطان يوسف في 580هـ ودفن في تينمل بعد أن بلغ السابعة والاربعين من عمره وهو يعد من كبار الخلفاء الموحدين والسلاطين العظام في تاريخ المغرب الاسلامي .
- 17-تولى ابو يوسف يعقوب بعد وفاة أبيه ، فقام بالامر أحسن قيام وأظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط احكام الناس على حقيقة الشرع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقرين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الاحوال في أيامه وعظمت الفتوحات .
- 18-صرح السلطان يعقوب المنصور بعدم صحة الاعتقاد بعصمة بن تومرت، وحرص على مجالسة الصلحاء والمحدثين .

- 19- عمل السلطان يعقوب على القضاء على ثورات بني غانية والاعراب واستطاع أن يخضد شوكتهم وأن يوحد الشمال الافريقي كله.
- 20- عمل على استتفار المسلمين في بلاد المغرب كلها من أجل الجهاد ضد النصارى واستجاب له المسلمون وتوافدوا على معابر العبور استعداداً للجهاد ضد النصارى في الاندلس.
- 21- استطاع يعقوب المنصور أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في الاندلس في معركة الارك عام 591هـ وترتب على هذا النصر الحاسم نتائج عظيمة للمسلمين في الاندلس والشمال الافريقي من أهمها، ارتفاع الروح المعنوية لمسلمي الاندلس، وسقوط هيبة ملوك النصارى.
- 22- نستطيع ان نقول بأن يعقوب المنصور اخذ بأسباب النصر المعنوية، والحسية حيث شرع في تحشيد الجيوش وترتيبها وتنظيمها، ووجد القيادة، وأعطى مجلس الشورى صلاحيات واسعة، واسند المهام الى اهلها....الخ.
- 23- طلب السلطان صلاح الدين الايوبي من يعقوب المنصور أن يمدد بمدد ضد النصارى في المشرق إلا ان السلطان يعقوب امتنع لأسباب سياسية وعقدية ونفسية ومع هذا اكرم رسول صلاح الدين غاية الاكرام ولم يمتنع المغاربة من المساهمة في جهاد المسلمين ضد النصارى في المشرق تحت قيادة صلاح الدين.
- 24- توفي السلطان يعقوب المنصور عام 595هـ بعد أن جاهد بالسيف وحرص على اصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم نحو منهج اهل السنة والجماعة.
- 25- تولى أبو محمد عبدالله الناصر لدين الله خلافة الموحدين عام 595هـ واستطاع ان يقضي على ثورة بني غانية وأن يوحد المغرب كله الاقصى والايوسط والادنى وعبر بجيوش ضخمة جبل طارق قاصداً جهاد النصارى في الاندلس وانهزم في معركة العقاب عام 609هـ أمام الجحافل النصرانية ثم رجع الى المغرب وانهك في الشهوات والملذات حتى قتل مسموماً عام 910هـ.
- 26- بعد هزيمة العقاب توغل النصارى في مدن وقرى المسلمين مرتكبين اشنع المجازر البشيرية من قتل وهتك للأعراض وسبي النساء ويتقدمهم القساوسة بالأنائيد والتشجيع على استئصال المسلمين من ديار الاندلس.
- 27- تعتبر موقعة العقاب بداية الانهيار الفعلي لدولة الموحدين ولقد كان لصغر سن الخليفة وقلة خبرته واعجابه بنفسه وتسلسل الوزير ابن جامع عليه سبب في هزيمة العقاب.
- 28- لقد ساهمت عوامل عديدة في سقوط دولة الموحدين ومن أهمها، هزيمة معركة العقاب وظلم

الموحدين للمرابطين ، والثورات المتتالية في الاندلس والمغرب الأقصى والايوسط والنزاع على الخلافة داخل البيت الموحي، والانهيار العسكري الذي اصاب القوات الموحيية، وانكماش العقيدة التومرية في نفوس الموحيين، وتحول الحكم الى الوراثة.

29- بعد زوال دولة الموحيين في عام 668هـ/1269م انقسم الاندلس والشمال الاريقي الى دويلات من أهمها، دولة بني الأحمر في غرناطة، وبني مرين في المغرب الاقصى، وبني عبدالواد في المغرب الاوسط، وبني حفص في المغرب الاذنى.

30- كان لظهور مملكة غرناطة وصمودها امام الهجمات النصرانية اسباب من أهمها، موقعها الجغرافي المتميز، ووقوف دولة بني مرين معها بكل ماتملك ، هجرة الكوادر الاندلسية من المدن الاسلامية التي سقطت اليها، قانون التحدي عند الشعور بالخطر، حب أهالي غرناطة للجهاد في سبيل الله، براعة حكام غرناطة في ادراة الصراع العسكري والسياسي.

31- ظهر في ميدان الجهاد الاندلسي السلطان أبو يوسف يعقوب المريني الذي استطاع أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في معركة قرب استاجة وظهرت ملكات قيادية للسلطان المريني تمثلت في أمور منها، إهتمامه بعنصر الاستطلاع ، ابعاده للغنائم عن ساحة المعركة ، خطبته المؤثرة في جنوده ، دخوله في المعركة بنفسه وقتله للنصارى بيده.

32- كانت العلاقة بين بني مرين وبني الاحمر يعترها الذبول والشك بسبب عملاء النصارى الذين استطاعوا أن يقنعوا بني الاحمر بعقد اتفاقات مع ملوك النصارى إلا انها سرعان ما تتبخر امام الخطر الداهم وترجع علاقات المسلمين الى مجاريها الطبيعية.

33- كان لمشيخة الغزاة دور عظيم في الدفاع عن غرناطة ولقد سجلت لنا كتب التاريخ انتصارهم الساحق على جيوش النصارى وكانت اعداد مشيخة الغزاة قليلة أمام قوات النصارى إلا انهم عوضوا نقصهم بالايمان وصحة اللجوء الى الله فأنزل الله نصرهم عليهم وكان ذلك النصر العظيم الذي حصد فيه امراء النصارى وملوكهم في عام 719هـ وكان عدد الملوك والامراء القتلى اكثر من عشرين والقتلى من الجنود أكثر من خمسين ألفاً.

34- كانت موقعة طريف في عام 741هـ والتي انهزم فيها المسلمون وضعفت شوكتهم امام النصارى لم يشهد المسلمون مثلها منذ وقعة العقاب ولقد استشهد في هذه المعركة مجموعة من العلماء من أشهرهم المفسر الكبير محمد بن جزي ، ووالد لسان الدين الخطيب.

35- اندلعت الحرب الداخلية في غرناطة بسبب النساء واستغل ملوك قشتالة هذه الفرصة وتحركوا من

اجل احتلال غرناطة في عام 887هـ واستطاع ابو عبدالله الصغير أن يستولي على عرش غرناطة بعد أن أزاح والده عنه ويأشر الحروب بنفسه ضد النصارى إلا انه وقع أسيراً بيد النصارى عام 888هـ.

36- استطاع ملك قشتالة أن يستفيد من أبي عبدالله الصغير واطلق سراحه في الوقت الحرج الذي زاد من الصراع الداخلي في غرناطة بعد ان جعله يوقع على وثيقة الخنوع والخضوع لملك قشتالة.

37- في عام 897هـ حاصرت جحافل النصارى غرناطة ونقضوا كل العهود والمواثيق وضيقوا الخناق على المسلمين حتى اضطروا الى تسليمها ، ليدخل المسلمون تحت ظلم وعسف وجور محاكم التفتيش بعد ذلك بسنين.

38- كانت محاكم التفتيش مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب ولقد ارتكبت في حق المسلمين ماقتشعر منه الابدان وتشيب من هولته الولدان.

39- حاول المستضعفون من المسلمين ان يحافظوا على دينهم ومعتقدهم وراسلوا العلماء ليستفسروا عن بعض الفتاوى وقد دونت في هذا البحث احدى الفتاوى الهامة.

40- كانت هناك أسباب عديدة ساهمت في سقوط الاندلس من أهمها، تفكك وحدة الشمال الافريقي، الانغماس في الشهوات والركون الى الدعة والتترف، الاختلاف والتفرق بين المسلمين ، موالة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم، التخاذل عن نصرته من يحتاج الى نصرته، غدر النصارى ونقضهم للعهود، إلغاء الخلافة الأموية وظهور عصر الطوائف، عدم قيام العلماء بدورهم المطلوب، الرضا والخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم، سوء سياسة الولاة وإرهاق الامة بالجبايات.

41- لقد تباعد أهالي الاندلس عن تحكيم شرع الله، فترتب على ذلك ضنك في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وضياع الملك والعزة والتمكين.

42- زالت دولة الموحيدين من الوجود عام 668هـ واستولى على مقاليد الحكم في المغرب الاقصى بنو مرين.

43- حاولت دولة بني مرين أن توحد المغرب كله الاقصى والاوسط والادنى ونجحت في فترات قصيرة في هذا الهدف إلا أنها ضعفت وتقلصت ثم زالت من الوجود عام 869هـ وسجل لها التاريخ جهادها العظيم ضد النصارى في الاندلس .

44- من أهم اسباب سقوط دولة بني مرين؛ دسائس ملوك الاسبان، وتحالف غرناطة معهم ضد بني مرين، ودخولهم في صراع مرير مع دويلات المغرب، وتولى الحكم بعض الامراء الضعاف، الخطر

- الخارجي من البرتغال على مواني الدولة ، وغير ذلك من الاسباب.
- 45-بعد سنتين من تولي أبي عبدالله محمد الادريسي الحكم بفاس خرج عليه الشيخ محمد الوطاسي واحتل فاس واقام الدولة الوطاسية وكان دخوله لفاس عام 877هـ/1472م.
- 46-استطاع السعديون أن يسقطوا الدولة الوطاسية في عام 956هـ وساعدتهم عدة عوامل في نجاحهم الكبير منها؛ دخول الوطاسيين في معاهدات مع الاسبان والبرتغاليين، عجز الدولة الوطاسية عن حماية اراضيها وموانئها، فظهر السعديون كقادة لحركة جهاد تبنت اهداف الشعب المغربي ، فالتف الشعب حولهم.
- 47- استطاع الامير ابو مروان عبدالملك السعدي أن يتحالف مع العثمانيين فساعده على تخليص المغرب من ابن اخيه محمد المتوكل وبايعه أهل المغرب عام 983هـ.
- 48-كان السلطان عبدالملك يمتاز بالذكاء والقدرة على التخطيط وله من بعد النظر حظ وافر، فأقام دولته على أسس علمية، وسلح جيشه وطور بلاده واستفاد من النظم الادارية والعسكرية العثمانية.
- 49-حقق السعديون بقيادة السلطان عبدالملك وأخيه أحمد المنصور انتصاراً حاسماً على النصارى في معركة وادي المخازن في عام 986هـ وتجلت عبقرية السلطان عبدالملك العسكرية في وضعه خطة محكمة وشرع في تنفيذها بنفسه.
- 50-استشهد السلطان عبدالملك في وسط المعركة وتولى أخوه أحمد المنصور الحكم من بعده وبايعه أهالي المغرب.
- 51-كان السلطان أحمد المنصور الذهبي متبحراً في العلم وترك مؤلفات في فنون متعددة منها، ادبية وشعرية وحديثية ومن اشهر كتبه المعارف في كل ما تحتاج الخلائق.
- 52-استطاع السلطان احمد المنصور أن يقطع بدولته اشواطاً نحو التقدم والازدهار وبناء الدولة على اسس علمية متطورة في كافة مجالات الدولة.
- 53-بعد وفاة السلطان أحمد المنصور في عام 1012هـ/1603م ضعفت الدولة السعدية ودخلت في حالة من التفكك والصراع الداخلي وانفصلت عن كيائها مجموعة من الامارات والولايات وانتهت فعلياً على يد قبيلة الشبانان العربية في عام 1069هـ/1658م وازالوا نهائياً الاسرة السعدية.
- 54-لم تستطع قبيلة الشبانان أن تقوم بالدور القيادي في المغرب فكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة أمام زحف الاشراف العلويين الذين اصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام 1075هـ/1412م وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكزهم ولاتزال اسرة الاشراف العلويين الى يومنا هذا في حكم المغرب

الأقصى.

55- حكم المغرب الاوسط بنو عبدالواد بعد زاول دولة الموحدين واستمرت دولتهم لمدة ثلاثة قرون وتعرضت لمخاطر عظيمة من اشدها احتلال الاسبان لمدينة وهران وبجاية في عام 915هـ/1511م وزالت الدولة الزيانية من الوجود عام 962هـ/1554م على يد الفاتحين العثمانيين.

56- حكم افريقية في فترة حكم الدويلات للشمال الافريقي بنو حفص وتعرضت دولتهم للمد والجزر وزال ملكهم من الوجود في عام 976هـ/1568م على يد العثمانيين.

57- سقطت مدينة طرابلس الحبيبة تحت قبضة الاسبان في عام 916هـ ثم سلمت الى فرسان الدين يوحنا في عام 942هـ/1535م واستمر الفرسان الدين يوحنا حتى عام 958هـ/1551م حيث استطاع الابطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا.

### أهم مراجع البحث

ابن جزى ومنهجه في التفسير، علي محمد الزبيري، دار القلم ، الطبعة الاولى، 1407هـ، 1987م.  
ابن خلدون ، ابو زيد عبدالرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ الأكبر، مؤسسة جمال، بيروت-لبنان.

اعز ما يطلب لابن تومرت، تقديم وتحقيق عمار الطالب، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة 1985م.

ابن ماجة للامام أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ، حققه محمد فؤاد عبدالباقي، دار التراث العربي. اشراط الساعة للوابل، يوسف عبدالله الوابل، الطبعة الثالثة، 1411هـ، 1991م ، دار ابن الجوزي. إجماع العوام عن علم الكلام، لأبي حامد محمد محمد الغزالي الطوسي. البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط3، 1983م.

المغرب الكبير، د. السيد عبدالعزيز سالم، دار النهضة العربية ، بيروت، 1981م. البيذق أخبار المهدي بن تومرت، أبوبكر الصنهاجي، تحقيق لبيقي بروفسنال، باريس 1928م. الدعوة الموحدية بالمغرب، عبدالله علي علام، دار المعرفة بالقاهرة ، الطبعة الاولى 1964م. المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة 1963م. النهاية، الفتن والملحاح ، للحافظ اسماعيل بن كثير ، تحقيق د.طه زيني، دار النصر للطباعة ، الناشر دار الكتب العلمية ، بيروت سنة 1399هـ.

المنار المنيف لابن القيم، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن ابي بكر ابن القيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبدالفتاح ابو غدة، مكتب المطبوعات الاسلامية ، حلب، 1390هـ. النبوة والانبياء، لمحمد علي الصابوني.

الملل والنحل للشهرستاني، للعلامة ابي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، 1395هـ.

الحموية، لشيخ الاسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية. اخبار المهدي، تحقيق عبدالحميد حاجيات، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس 1395هـ. الكامل في التاريخ لابن الأثير، لعزالدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم، دار احياء التراث العربي ، بيروت، لبنان الطبعة الاولى 1408هـ، 1989م.

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول، اعتنى بنشره السيد بشير الفورتي، تونس 1329هـ.

ابن صاحب الصلاة، عبدالملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم الباجي، المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، دار الاندلس بيروت الطبعة الاولى 1983م.

الدور الفكري للأندلس والمغاربة في المشرق، د.علي احمد ، دار شمال دمشق ، 1995م.  
النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة ، ليوسف بن تغري الآتابكي، وزارة الثقافة والارشاد القومي في مصر.

المغرب في تاريخ الاندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة ، الطبعة الاولى 1418هـ-1997م.  
التكملة ، لكتاب الصلة ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبار.  
العقاب، شوقي ابوخليل ، دار الفكر، تصوير 1405هـ، 1985م عن ط 1979م.  
الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والاندلس ، نجيب زبيب، دار الامير، الطبعة الاولى 1415هـ، 1995م.  
السنن الالهية ، د. عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الاولى 1413هـ، 1993م.  
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الاسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح الدين المنجد.  
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني.  
الاعلام للزركلي، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.  
الامام مالك بن أنس، عبدالغني الدقر، دار القلم، الطبعة الثانية ، 1410هـ، 1990م.  
الآراك، د. شوقي ابوخليل، دار الفكر، الطبعة الاولى 1979م.  
الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى: الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصري.  
الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، للسيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري، طبع دار الكتب العلمية بيروت سنة 1399هـ.  
الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية، سليمان بن عبدالله الباروني النفوسي، مطبعة الأزهار البارونية.  
الابانة عن اصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، نشر دار البيان، دمشق ، سنة 1401هـ.  
بحوث في تاريخ الحضارة الاسلامية، مجموعة من البحوث التي أقيمت في ندوة الحضارة الاسلامية في ذكرى الاستاذ د.احمد فكري 16-20 اكتوبر 1976م شباب الجامعة.  
تاريخ الاسلام د. حسن ابراهيم حسن، دار الجيل، بيروت الطبعة الثالثة عشر 1411هـ، 1991م.  
تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطاهر احمد الزاوي، دار التراث العربي، الطبعة الثالثة.  
تاريخ عصر النهضة الاوربية ، د. نور الدين حسام ، دار الفكر ، طبعة 1968م.  
تاريخ المغرب والاندلس من القرن السادس الى القرن العاشر الهجري ، تأليف مجموعة من الاساتذة، دار الامل للنشر والتوزيع.

- تاريخ الاندلس ، عبدالرحمن الحجي، دار القلم ، الطبعة الرابعة 1415هـ، 1994م.
- تاريخ المغرب والاندلس في عصر المرابطين، د. حمدي عبدالمنعم محمد حسين ، مؤسسة شباب الجامعة ، طبعة 1986م.
- تجربة الاصلاح في حركة بن تومرت، د. عبدالمجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، الطبعة الثانية 1415هـ/1995م.
- تفسير الرازي للامام الفخر الرازي.
- تفسير القرطبي لأبي عبدالله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي.
- تفسير الألوسي ، روح المعاني للامام الألوسي.
- البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الاولى 1408هـ، 1988م.
- دراسة لسقوط ثلاثين دولة اسلامية ، د. عبدالحليم عويس، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، 1410هـ، 1989م.
- دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، د. احمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة.
- دعوة الحق، السنة 19، العدد 8، رمضان 1398هـ.
- ديوان التحقيق والمحاكمات لمحمد عبدالله عنان .
- دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي، عزالدين عمر احمد موسى، دار الشروق، الطبعة الاولى، 1403هـ، 1983م.
- دولة المرابطين ، سلامة محمد سلمان الهرفي، دار الندوة 1405هـ/1985م.
- دائرة المعارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي، مطابع دائرة المعارف القرن العشرين، الطبعة الثالثة 1343هـ.
- رحلة ابن جبير، ابوالحسن محمد بن احمد ، دار صادرن ودار بيروت 1964.
- تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين، يوسف اشباخ، ترجمة محمد عبدالله عنان، القاهرة، 1958م.
- تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية بالأوفست.
- درء تعارض العقل والنقل الامام شيخ الاسلام أحمد عبدالحليم بن تيمية.
- روض القرطاس، لأبي الحسن علي بن عبدالله ، الانيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.

سقوط الاندلس ، د.ناصر العمري، مؤسسة المومتمن، دار الوطن، الطبعة الاولى 1412هـ.

سقوط غرناطة ، شوقي ابوخليل، دار الفكر، الطبعة الثانية 1981م.

سقوط دولة الموحدين ، د. امراجع عقيلة الغناكي، 1409هـ، 1988 منشورات جامعة قاريونس.

سير اعلام النبلاء ، للامام شمس الدين محمد بن احمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الثانية، 1402هـ.

سنن أبي داود للامام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني.

شذرات الذهب في اخبار من ذهب، عبدالحى بن احمد بن محمد الحنبلي، المسمى ابن العماد (ت1089).

صحيح البخاري، للامام ابي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري المتوفى 256هـ.

صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي دار احياء التراث.

صحيح الجامع للألباني، تحقيق، الشيخ محمد ناصر الدين، الألباني، المكتب الاسلامي ، الطبعة الاولى، 1388هـ.

صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الاولى 1417هـ/1997م.

صلاح الدين بطل حطين، عبدالله علوان، دار السلام، القاهرة، الطبعة السادسة ، 1405هـ/1985م.

عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس، محمد عبدالله عنان، القاهرة، 1964م.

عقيدة أهل السنة والجماعة والأثر في المهدي المنتظر، للشيخ عبدالمحسن بن حمد العباد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الاولى.

عقد بيعة بولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، حسن مؤنس.

عقائد الامامية ، لمحمد رضا ظافر.

عوامل النصر والهزيمة، لشوقي ابي خليل، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية1407هـ، 1987م.

غرناطة في ظل بني الأحمر، د.يوسف شكري فرحات ، الطبعة الاولى ، 1402هـ، 1982م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

فقه التمكين عند دولة المرابطين، علي محمد محمد الصلابي، سلسلة صفحات من التاريخ الاسلامي في الشمال الافريقي.

فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للامام احمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية ،

ومكتبتها، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.

فتاوى ابن تيمية ، لأبي العباس، احمد بن عبدالحليم بن تيمية ، جمع وترتيب ، عبدالرحمن بن محمد قاسم.

قيام دولة المرابطين ، لحسن احمد محمود القاهرة، 1957م.

قادة فتح بلاد المغرب، محمد شيت خطاب، دار الفكر ، الطبعة السابعة ، 1404هـ/1984م.

موسوعة التاريخ الاسلامي، د. احمد شبلي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة العاشرة سنة 1995م. مجموعة رسائل ابن حزم.

موسوعة المغرب العربي للغيني، عبدالفتاح مقلد الغيني، الناشر، مكتبة مدبولي، الطبعة الاولى، 1414هـ/1994م.

مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال افريقيا، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الاسلامية، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة الملك عبدالعزيز، مكة 1979م لم تطبع.

معالم تاريخ المغرب والاندلس د. حسين مؤنس، الطبعة الاولى القاهرة 1980م.

مسند الامام احمد بن حنبل، شرح وتحقيق احمد شاكر، أمه د. عبدالحسين عبدالمجيد هاشم ، دار المعارف بمصر، الطبعة الاولى.

مجلة المنار، لمحمد رشيد رضا.

الأغلبية سياستهم الخارجية، محمود اسماعيل.

مجلة جامعة الامام محمد بن سعود، العدد السادس، 1413هـ، 1992م ، مجلة محكمة.

نظم الجمان في اخبار الزمان لابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الفاسي.

نظم المتناشر في الحديث المتواتر للشيخ جعفر الحسني الادريسي الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت 1400هـ.

نفع الطيب في غصن الاندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المقري، تحقيق ، د. احسان عباس.

وادي المخازن ، لشوقي أبي خليل دار الفكر بيروت ، الطبعة الاولى 1409هـ/1988م.

وفيات الاعيان لابن خلقان، شمس الدين، أبو العباس بن خلكان، دار صادر بيروت، حققه احسان عباس.

## N

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
1	.....الاهداء
2	.....المقدمة
7	.....الفصل الأول : محمد بن تومرت
7	.....المبحث الاول: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم
16	.....المبحث الثاني : البعد التاريخي عند ابن تومرت
23	.....المبحث الثالث: مسيرة العودة وخطواته الحركية
37	.....المبحث الرابع:الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت
71	.....المبحث الخامس:المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت
96	.....الفصل الثاني: عبدالمؤمن بن علي وابنائاه واحفاده
96	.....المبحث الاول : عبدالمؤمن بن علي
96	.....أولاً : أسمه ونسبه
97	.....أ- لقاءه بمحمد بن تومرت
98	.....ب- بيعته
101	.....ثانياً: قتال عبدالمؤمن للمرابطين وتوحيده للمغرب
113	.....ثالثاً: اهتمام الموحدين بالاندلس
116	.....رابعاً: فتح المغرب الادنى والاوسط
119	.....خامساً : سياسته مع النصارى واليهود وتخريجه للساسنة لضبط نظام الدولة

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
140	.....المبحث الثاني : ابو يعقوب يوسف
140	.....أولاً : علمه وبيعته
140	.....أ- علمه
141	.....ب- بيعته
143	.....ثانياً : سياسة يوسف عبدالمؤمن في الاندلس

145	آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين.....
146	ثالثاً: الثورة في المغرب الاقصى.....
147	رابعاً : الثورة في المنطقة الشرقية من المغرب الاقصى .....
149	خامساً: غزو الخليفة الموحي لبلاد الاندلس.....
152	سادساً:أسباب فشل ابي يعقوب يوسف في توحيد الاندلس.....
158	المبحث الثالث: أبو يوسف يعقوب المنصور.....
158	أولاً : اسمه وشيء من سيرته.....
159	أ- اصلاحاته في منهج الدولة.....
166	ثانياً : سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب.....
167	أ- الصراع مع بني غانية.....
170	ب- جهاده في الاندلس.....
174	ثالثاً: معركة الأرك.....
175	أ- خطة الموحدين.....
183	رابعاً : نتائج معركة الأرك.....
184	خامساً: اسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك.....
	سادساً : السفارة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وأبي
188	يوسف يعقوب المنصور.....
	<u>الموضوع</u>
<u>الصفحة</u>	
194	سابعاً: وفاة السلطان وبعض اعماله واخلاقه.....
197	المبحث الرابع:الخليفة الموحي ابو محمد عبدالله الناصر.....
198	أولاً : ثورة بني غانية.....
202	ثانياً: جهاد الناصر لدين الله.....
207	أ- حصار قلعة رياح.....
208	مقتل البطل يوسف بن قاسم أبوالحجاج.....
209	د- المعركة.....
215	ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب.....

220	رابعاً: اسباب سقوط دولة الموحيدين.....
234	خامساً: خلفاء الموحيدين.....
	الفصل الثالث: الاندلس والشمال الافريقي بعد سقوط دولة
235	الموحيدين.....
237	المبحث الاول: مملكة غرناطة.....
244	أولاً: ترجمة ابن الاحمر.....
244	أ- شيء من سيرته.....
247	ثانياً: جهاد المرينيين في الاندلس.....
250	أ- مجلس الشورى الحربي.....
251	ب- ترتيب أبي يعقوب لجيشه.....
255	ت- الغزوة الثانية.....
258	ج- مشيخة الغزاة.....
262	د- موقعة طريف.....
	<u>الموضوع</u>
	<u>الصفحة</u>
266	هـ- العلماء الذين سقطوا شهداء.....
277	ثالثاً: وصف حي لتسليم غرناطة.....
282	رابعاً : محاكم التفتيش.....
286	خامساً: فتاوى هامة.....
	سادساً: القواعد النصرانية الاسبانية في معاملة من أكرهوا على
289	النصرانية.....
293	سابعاً: أهم أسباب سقوط غرناطة والاندلس عموماً.....
	ثامناً: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمي
310	الاندلس.....
	.
315	المبحث الثاني: دولة بني مرين في المغرب الاقصى.....

315	أولاً: عبدالحق بن محيو المريني.....
316	ثانياً: المنهج الذي قامت عليه.....
318	ثالثاً: حركة التوحيد للشمال الافريقي.....
319	رابعاً: أسباب سقوط دولة بني مرين.....
321	خامساً: الدولة الوطاسية.....
322	سادساً: أسباب سقوط الدولة الوطاسية.....
323	سابعاً: السعديون.....
327	ثامناً: من إصلاحات الملك عبدالملك وأعماله.....
328	تاسعاً: معركة وادي المخازن.....
337	عاشراً: أسباب نصر وادي المخازن.....
339	الحادي عشر: نتائج المعركة.....
	<u>الموضوع</u>
	<u>الصفحة</u>
341	الثاني عشر: السلطان ابو العباس أحمد المنصور.....
341	أ- من أشهر شيوخه.....
342	ب- من مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور.....
342	ج- إدارته للدولة.....
345	د- انهيار الدولة السعدية.....
347	المبحث الثالث: بنو عبدالدار (بنو زيان).....
351	ب- التنظيم الاداري في عهد بني عبدالواد.....
351	ج- اسباب السقوط لبني عبدالواد.....
353	المبحث الرابع: الدولة الحفصية.....

359	.....ب- ولاية العهد.....
365	.....ج- طرابلس والدولة الحفصية.....
367	.....د- طرابلس بين بني ثابت وبني مكى وبني حفص.....
369	.....س- ثورة بني غراب.....
371	.....و- أسباب سقوط الدولة الحفصية.....
373	.....الخلاصة.....
384	.....أهم مراجع البحث.....
391	.....المحتويات.....

()

()